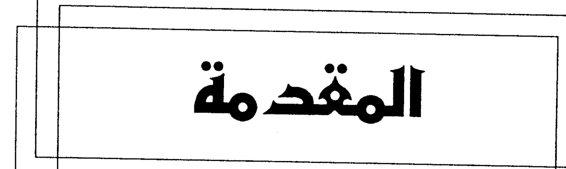
العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر

المسلمون

في آسيا الوسطى وإيران

دكتور مصطفى رمضان


المقدمة

سنعرض فى هذا الجزء من كتابنا لأوضاع البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة فى العالم، والتى شهدت تغيراً جذرياً فى أوضاعها، وذلك بعد أن عرضنا للتغييرات المشتركة فى الجزء الأول، ابتداء من القرن العاشر الهجرى (١٦م) حتى الآن، فقد آن لنا أن نتعرض لكل قطر من أقطار الإسلام على حدة، وذلك فى إطار الحركة المشتركة التى يشهدها العالم الإسلامى اليوم.

وأعنى بالحركة المشتركة، حركة العالم الإسلامى ضد قيود الاستعمار عقب الحرب العالمية الثانية، ومازالت مستمرة حتى الآن (١٩٩٤م)، وسنضطر للرجوع إلى الوراء تاريخياً للتعرف على سمات الأقطار الإسلامية وحركتها المنفردة، آخذين فى الاعتبار أننا إذا أردنا أن نفهم أى حركة إسلامية أو ثورة إسلامية، فعلينا أن نرجع إلى تاريخ الشعب الذى قام بها.

غير أننا لن نتخلى عن التصور العام فى هذا الجزء أيضاً، وخاصة فيما يتعلق بمواجهة الاستعمار للدول الإسلامية، فإنه يعاملها دائماً باستراتيجية موحدة، فها هو الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون يعرب عن هذا فى كتابه «الفرصة السانحة» Seize the Moment «... نحن نتكلم عن العالم الإسلامى كوحدة واحدة، ليس بسبب وجود «لجنة مركزية» (أى حكومة مركزية)، تدير سياسة المسلمين فى العالم، ولكن لأن الدول الإسلامية تجمعها تيارات سياسية وثقافية واحدة، نابعة من الحضارة الإسلامية ككل، وتسرى هذه التيارات فى جميع البلاد الإسلامية بصرف النظر عن الاختلافات

بين هذه البلاد وبعضها، فكما توجد فى جميع الدول الغربية أحزاب يؤمن بعضها بسياسة السوق الحرة وإعانة البطالة والاشتراكية، فكذلك يوجد فى العالم الإسلامى جماعات تؤمن بتيارات سياسية مختلفة، منها الأصوليون والرجعيون والتقدميون، وهذا الاتحاد فى العقيدة والسياسة يعطى لهذه الجماعات قوة وتماسكاً، فإذا حدث حادث فى جزء من العالم الإسلامى، فلابد أن يؤثر فى الجزء الآخر» (١).

فقد تمكنت الدول الاستعمارية بقوة جبروتها من أن تكبل العالم الإسلامى بأوضاع حدودية جائرة بعد الحرب العالمية الثانية، أملاها تسلط الحلفاء المنتصرين فى يالطة سنة ١٩٤٥م، دون مراعاة لخطورة تمزيق العناصر البشرية الموحدة، بل قصداً منهم إلى زيادة تمزيق العملاق الإسلامى الكبير الرابض وسط العالم القديم من المحيط الأطلسى إلى حدود الصين واليابان، فقد كان الإسلام قد تمكن من توحيد البشر فى تلك المناطق الشاسعة تحت مظلة «لا فرق لعربى على عجمى إلا بالتقوى، والناس سواسية كأسنان المشط»، لكن الاستعمار أيقظ العنصرية من جديد لدى العرب والفرس والترك والبربر والهنود والأكراد وغيرهم.

وكلما بدت يقظة لهذا العملاق لينبض من جديد نبضاً موحداً ويحس بإحساس واحد، وذلك كما يحدث أثناء النكبات تمادى الاستعماريون القدماء فى التربص به وتشديد الضربات المؤثرة إليه،

(١) ص١٢٦ من الترجمة العربية لأحمد صدقى مراد، نشر دار الهلال المصرية، القاهرة، ١٩٩٢.

لعودة النبض المنفرد لكل إقليم، كما أرادوا له بسياسة فرق تسد إلى عمل تعميقها ومازال حتى يومنا هذا، وحاولت الدول الاستعمارية وضع حكام فى البلدان الإسلامية مهمتهم المحافظة على ما أوجده الاستعمار، وأرادت لهؤلاء الحكام أن يصبحوا أبطالا فى نظر شعوبهم، فمنحت أوطانهم نوعاً من الاستقلال المزيف، بهدف خدمة عملائهم وتغطية أعمالهم الشنيعة فى كبت حريات الشعوب، ومن هنا كانت موجة الاستقلال المزيف التى عمت الأوطان الإسلامية فى الخمسينيات والستينيات من هذا القرن.

ولكن بعد فترة اكتشفت الشعوب الإسلامية أن هذا الاستقلال ما هو إلا سراب، يحسبه الظمآن إلى الحرية استقلالا وتحرراً، حتى إذا مارسه وجده نوعاً من الخداع، لأن الدول الاستعمارية كبلت البلاد الإسلامية بمعاهدات واتفاقيات خطيرة لابتزاز ما تبقى من خيراتها، فإذا أرادت هذه الدول أن تلغى هذه المعاهدات الجائرة، لوح لها الاستعمار بعصاه الطويلة المؤثرة، واتضح للعالم الإسلامى أن الاستقلال المزعوم ما هو إلا تغطية لمواقف العملاء الذين حكموا أوطانهم بمعونة المستعمرين، الهدف منه جعل هؤلاء العملاء أبطالا فى نظر شعوبهم من استمرار عملية استنزاف الموارد فى ظل هؤلاء الحكام.

فقامت يقظة حقيقية، ومجموعة من حركات التمرد ضد الأوضاع التى أرساها الاستعمار فى العالم الإسلامى، وتصدت هذه الحركات لهؤلاء الحكام الأدعياء، تعرف حقيقتهم لشعوبهم، وحققت

هذه الحركات بعض الانتصارات فى كثير من الأوطان الإسلامية فى مصر وإيران وتشاد وليبيا واليمن والعراق وسوريا ولبنان والجزائر وأريتريا وأفغانستان.

واتضح للعقلاء أن نظام الحكم فى العالم الإسلامى هو الآفة الكبرى التى نتج عنها التأخر الداخلى والهيمنة الاستعمارية، ذلك لأن الحاكم فى العالم الإسلامى يسيطر على مقدرات الناس وثروات البلاد، بطريقة لا تتناسب مع روح العصر الذى نعيش فيه، فيقرب منه الوضيع، ويقصى الكفء العظيم، وينال المحاسيب حظهم موفوراً من فتات موائد الحاكم المستبد، وبرتكبون فى سبيل ذلك أكبر وأفظع جناية فى حق مواطنيهم، وهى الوشاية بكل كفء لإبعاده عن بلاط الحاكم ونظام الحاكم، ومن ثم تنتشر الأحقاد والوشايات بالناس، وتروج سوق الجاسوسية ويروح ضحية ذلك كل كفء، لأن ضعفاء النفوس يعتقدون أنه جدير بأن يتقدم عليهم لبروزه بعلمه وعمله، فيطعنونه بغير حق لدى الحاكم، ويقدحون فى ذمته وشرفه وعدم إخلاصه للحاكم، ليفوزوا هم ويتقدموا عليه بغير حق.

وينتج عن ذلك أن الناس فى مثل هذه المجتمعات ينحدرون إلى الدرك الأسفل من الأخلاق، فيتبادلون الحسد والحقد على كل المستويات، والحاكم يتحكم فى الجميع، ويزداد النفاق وتروج سوقه.

وفى هذا الحكم الاستبدادى، ليس هناك نظام ديمقراطى لارتقاء الناس فى وظائفهم، والمناصب العليا فى الهيئات العلمية

والحكومية، بل يحدث ذلك بطريقة التعيين الفوقى من ناحية السلطان المتحكم فى مقدرات الناس وطرق معاشهم.

أما فى المجتمعات الديمقراطية، ففيها يرتقى الناس مناصبهم بناءاً على كفاءتهم، وبطريقة رسمتها القوانين المرعية فى بلادهم لا يتعداها السلطان، ومن ثم يطمئن الفرد على أنه ملاق نصيبه بكفاءته وعمله وعلمه، ومن ثم تقل الوشايات والأحقاد فى مثل هذه المجتمعات الديمقراطية، وينام الإنسان قرير العين، مطمئن الفؤاد لنصيبه فى الحياة، الذى يساوى عمله وكفاءته.

أما فى المجتمعات الاستبدادية، فينام الإنسان فيها ويصحو على غل يلازم وسادته، وتدبير شيطانى تفتحت عنه قريحته للإيقاع بالآخرين لدى الحاكم المستبد، بالوشاية بهم وعلى الأخص الوشاية بالأكفاء، لخوف الضعفاء من تقدمهم، وفى هذا الجو من الحقد تنتهك الحرمات، وتسب الأعراض بلا جريرة، وإنما مجرد مزايدة عند الحاكم الذى سيطر على مقدرات الناس ومعاشهم، فيعطى ويمنع بناء على الوشايات، ويكيل العطاء بغير حدود، لمن يحومون حول موائده، ويملأون أذنيه بكل باطل ضد كل كفء، خوفاً من تقدمه عليهم، لأنهم لا رصيد لهم سوى هذه الوشايات، وإجادة شتى أنواع النفاق، أما الأكفاء فلا رصيد لهم سوى علمهم وعملهم الذى لا ينفع فى سوق النفاق.

وعلى ذلك تعتمد الأمة على نوعيات من الناس يكرههم الناس، ويحقدون عليهم لتقدمهم، فيسود الحقد، ولا تتقدم بسبب ذلك الأمة

لمجافاتها ذوى الكفايات الذين أعرضوا ونأوا بجانبهم، فأعرض عنهم الحاكم بل وتوجس منهم خيفة، وخاصة إذا كانوا من أصحاب الآراء الحرة، الذين لا يخشون فى قول الحق لومة لائم، وتبعدهم عن المناصب العليا، وتعطيها لمن يتقدم بوشاية ويثبت ولاءه للحاكم.

وعلى ذلك ينتشر الجهل والخمول فى مثل هذه الأمم، فالإنسان الكفء عندما يعرف أن عمله وعلمه لن يوصلاه إلى المراتب التى ينشدها، يهجر العلم ويهمل عمله ويعتريه الكسل والخمول، لعدم مجازاته على علمه وعمله، وبذلك يعم الجهل بجانب انتشار الحقد والحسد والجاسوسية، والإيقاع بالناس ومحبة الشر لهم وانتظاره وتمنى المصائب للغير.

والشعوب الإسلامية ظلت زمناً طويلا ومازالت، تغتصب ثرواتها من الشعوب الاستعمارية، وقد يضع البسطاء اللائمة على الاستعمار الجشع وحده، ولكنهم لو تأملوا الأمر ملياً، لعرفوا أن الاغتصاب الخارجى سببه اغتصاب الحكام المستبدين لحقوق مواطنيهم، وتكميم أفواههم وقهرهم، فتعيش الأقليات فى عيشة راقية على حساب الضعفاء، الذين يتضورون جوعاً ويضربون بلا شفقة، عندما يهبوا للمطالبة بحقوقهم، ويوصمون بشتى التهم كالكفر والخروج عن دين الإسلام والخيانة والعمالة، إلى آخر قائمة التهم التى يستطيع الحاكم إلصاقها بهم، ولا يهمه أصدقه الناس أم كذبوه، لأن أجهزة الدعاية فى يده بها يستطيع أن يكفر أتقى الناس والقوة فى يده، والحاكم المستبد لكى يستمر فى عملية الاغتصاب لحقوق

بنى وطنه الضعفاء، ويستأسد عليهم فى كل مناسبة ليقهر معارضتهم، هو فى نفس الوقت جبان ضعيف أمام الغاصب الأجنبى، بل ويسهل له عملية اغتصاب حقوق الوطن فى سبيل استمرار حكمه، ومن ثم أصبحت الدول الاستعمارية تعرف نقطة الضعف هذه لدى الحكام المستبدين، فتلوح لهم دائماً بأنها قادرة على تعريتهم فى الوقت المناسب أمام مواطنيهم، وأمام الرأى العام العالمى، إذا هم فكروا فى انتقاص حقوق الاستعمار التى ورثها يوم أن كان قابضاً على صولجانه، ويده من حديد فى البلاد الإسلامية، ومن ثم استحق هذا النوع من الحكام المستبدين فى العالم الإسلامى وصف الشاعر معروف الرصافى العراقى لهم بقوله:

عبيدهم للأجانب ولكن   على أبناء جلدتهم أسود

وهكذا أصبحت حقوق الشعوب الإسلامية فى التاريخ المعاصر كلأ مباحاً لمن لا يملك وهو الاستعمار، ومن لا يستحق وهو الحاكم المستبد، وهكذا تآمر من لا يملك ومن لا يستحق على استمرار هذه الحال التى لا يرضى بها إنسان، ومن أجل ذلك تقوم الثورات الإسلامية بين الحين والحين، فى حركات يائسة لتربص الغرب لها والحاكم المستبد، ومحاصرة الاثنين معاً لها، ومن ثم فهى فى الغالب انتحارية تفضل الموت على الحياة، من أجل الإعراب عن معارضتها، وهكذا فإن الانفجار فى النهاية سيكون مروعاً، لأن الاستمرار فى كبت الحريات وغصب الحقوق من شأنه أن يزيد من قوة الانفجار النهائى، وما نسمعه من حركات غليان فى العالم الإسلامى بين الحين

والحين، إنما هو بخار محبوس يخرج شعاعاً منه، ينذر بالانفجار القادم، والنتيجة المحتومة، وعلى الباغى تدور الدوائر.

وثمة ملاحظة يجب تسجيلها على الثورات فى العالم الإسلامى، فقد رأت هذه الثورات أن الإسلام هو المخلص الوحيد لها من ظلم الظالمين، وهو البلسم الذى يشفى جراح المقهورين، ويعدهم بالخلاص من الظالمين.

وعلى الرغم من أن الاستعمار الغربى اعترف بحق الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والبرازيل وغيرها من الشعوب الغربية بالاستقلال عنه وأخذ طريقها إلى الحرية والديمقراطية، إلا أنه مازال لا يسمح حتى الآن للشعوب الإسلامية بذلك، ويحاصرها فى كل مكان بشتى الوسائل، ويتدخل فى الوقت المناسب، لحماية عملائه فى البلاد الإسلامية، والمحافظة على وضع ما بعد الحرب العالمية الثانية، وازدادت المعركة فى السبعينيات ومطلع الثمانينيات والتسعينيات عنفاً وشراسة فى كثير من المواطن فى إيران وأفغانستان ونيجيريا والجزائر والصومال وتشاد وأريتريا والمغرب والسودان، وغيرها من البقاع الإسلامية، فالاستعمار مصمم على حماية مكاسبه ومناطق نفوذه التى تمده بماء الحياة، ويعتبرها معركة حياة أو موت.

وعندما قامت الثورة الإسلامية فى إيران ضد حكم محمد رضا بهلوى، ونجحت فى إجباره على مغادرة إيران فى ١٦ من يناير سنة ١٩٧٩م، تحركت الصحافة الاستعمارية لاستعداء الغرب المسيحى

والشرق الشيوعى على الإسلام، فكتبت صحيفة (لوبوان) الفرنسية مقالا تحت عنوان «محمد رجل العالم عام ١٩٧٩م»، تصف الثورات الإسلامية فى كل مكان بأنها صحوة ويقظة إسلامية عامة فى كل أنحاء العالم، فقالت:

«إن محمداً اتى بدين أصبح يهز أرجاء العالم، إن هذا الدين أصبح يعبر عن تطلعاته، ففى إيران انطلق موكب آيات الله والشيوخ يحمسون الجماهير، وصحيفة (لوبوان) كانت أول من أعلنت فى ١١ ديسمبر عام ١٩٧٨م أن الإسلام على الرغم من أشكاله السلمية، سيتحرك فى اتجاه هجومى فى كل مكان، فى آسيا وفى أفريقيا، ليظهر بأن دين محمد هو دين الفاتحين»(١).

ثم تساءلت: كيف انتشر الإسلام، وأجابت:

«انتشر الإسلام عبر أدغال أفريقيا السوداء، وتسرب إلى جنوب الساحل بواسطة القوافل والدعاة وأجهزة (ترانزستور) وألات التسجيل، ووصل إلى أفريقيا الاستوائية، وقد أحدث ردود فعل، وأزال الإبهام فى جاليات السود بأمريكا الشمالية، وفى الاتحاد السوفيتى أصبح التحرك الإسلامى الشغل الشاغل لليونيد بريجنيف، ولمن سيتولون الحكم بعده، ذلك أنه فى عام ٢٠٠٠ فإن سوفيتياً واحداً من كل ثلاثة سيكون مسلماً، وفى موسكو فإن القرآن يباع فى السوق السوداء بمئات الروبلات».

(١) من ترجمة للمقال نشرتها جريدة المدينة المنورة السعودية فى عددها رقم ٤٨١٩ الخميس ١٢/٢/١٤٠٠هـ تحت عنوان «الإسلام فى صحف الغرب».

«إن الإسلام موجود فى كل مكان، وفى فرنسا فإن الإسلام يشكل الديانة الثانية بعد المسيحية، ويوجد فى فرنسا حوالى مليونان من المسلمين، منهم ٤٥٪ من شمال أفريقيا و١٦٪ من أفريقيا السوداء، ويوجد الإسلام فى البلقان، وهناك فى بلغاريا (١,٣٠٠,٠٠٠ مسلم)، وحوالى ٤ ملايين مسلم فى يوغوسلافيا، ولم يمتد انتشار الإسلام إلى هذين البلدين فقط بحكم الفتح الذى تم فى الماضى، ففى وطن (المارشال تيتو) شيد فى منطقة (بوسنه) وحدها فى ظرف عشرة أعوام مئتا مسجد جديد، ومعهد إسلامى فتح أبوابه منذ سنتين فى بلدة (سراجيفو)، ويتعلم مائة وخمسون ألف طفل فى مدارس تحفيظ القرآن فى كل أسبوع الصلاة وأصول الدين الإسلامى، وفى الصين يردد ٢٠ مليون مسلم «لا إله إلا الله محمد رسول الله»(١).

ويشير صاحب المقال إلى أن هذه الأعداد المتزايدة من المسلمين ربما لا تشكل خطراً، وإنما الذى يشكل خطراً هو «ظهور تلك الحركة التى ألهبت الجماهير فى إيران وفى مكة، حيث احتجزت الرهائن أمام الكعبة داخل المسجد الحرام، أما فى باكستان فقد أعلن الجنرال ضياء الحق فى ١٠ فبراير عام ١٩٧٩م، بأن القرآن والسنة قد أصبحا القانون الأساسى، وبمقتضى هذا القانون فرضت الزكاة كضريبة على الثروة وعلى الأملاك العقارية، وأعلن حاكم باكستان عن رجم المرأة الزانية المتزوجة»(٢).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) وبالطبع فإن الشريعة توجب رجم الرجل الزانى أيضاً، وربما تناساها الكاتب كنوع من التشهير بالإسلام (فى الغرب) الذى يرجم المرأة فقط.

«وفى أفغانستان فإن الثوار المسلمين قد أدخلوا الرعب فى نفوس الحكام الموالين للاتحاد السوفيتى، ففى شهر مارس (١٩٧٩م) تمرد الثوار المسلمون فى مدينة مصيرات، وهى المدينة الثالثة فى البلاد، وانضم إلى صفوفهم الجنود الذين كانوا مرابطين بها»(١).

وهكذا أخذ كاتب المقال يشير إلى مواطن الثورة فى العالم الإسلامى، لتحريك أجهزة الاستعمار واستعدائها على المسلمين فى كل هذه البلاد، ووصف كتاب الغرب أن ما يحدث فى العالم الإسلامى إنما هو فى حقيقته مواجهة بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى(٢)، على الرغم من أن الثورات كانت موجهة إلى الحكام المسلمين المستبدين المتعاونين مع الغرب.

وكما جرت العادة، فإن الاستعمار يفضل أن يضرب المسلمون بعضهم بعضاً بالنيابة عنه، فيلجأ إلى تحريك الأحقاد على الأوضاع الحدودية الخاطئة، التى فرضها الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية بين الأوطان الإسلامية، وكانت العراق على سبيل المثال، قد اقتطعت انجلترا منها منطقة عربستان فى الجنوب الشرقى منها، والتى تهيمن على شط العرب، وأعطتها لإيران سنة ١٩٢٠م، وكانت هذه المنطقة مجال نزاع مستمر بين الطرفين، لزرع الأحقاد فى نفوس المسلمين،

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر: مجلة الحوادث اللبنانية عدد ١٢٠٧ فى ٢١ ديسمبر ١٩٧٩م، مقال بعنوان «هل هى حرب بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى أم حرب بين العالم الثالث وأمريكا؟».

واستعداء بعضهم على بعض فى الوقت المناسب، فيحصد الاستعمار ثمرة هذا بالهيمنة على موارد تلك البلاد، وهذه السياسة كانت فى الماضى أملا يراود لويس التاسع ملك فرنسا، والتى ضمنها وصيته المشهورة التى أشرنا إليها فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

فاستعدى الاستعمار كلا من العراق وإيران ضد بعضهما البعض، فقامت حرب مهلكة بينهما سنة ١٩٨٠م، واستمرت حتى سنة ١٩٨٩م، وهكذا بدأت عملية مساعدة الخصم على كسر ذراع نفسه بنفسه، وهذه المسألة معروفة فى لعبة المصارعة الأمريكية، فاللاعب لا يحاول استخدام قوته فى كسر ذراع خصمه، بل يضع هذه الذراع فى حركة بارعة فى وضع خاص تحت ثقل جسم الخصم، فيحطمها هذا الثقل، أى مساعدة الخصم على كسر ذراع نفسه!!.

وفى لبنان، كان الوضع يهدد بقيام دولة إسلامية، عمل لها الدروز والسنة والشيعة وغيرهم ممن رفضوا هيمنة الموارنة، ولعب الأمريكيون لعبتهم المعروفة، وإذا بكل القوى اللبنانية، بل وكل قوى المنطقة تتصارع وتتصادم، وتمت عملية كسر ذراع الخصم دون عناء من الغرب.

ولكن الدولة الاستعمارية فكرت فى الاستفادة من الصراع العسكرى فى المنطقة، حيث لم يتم ذلك سلمياً، وأعنى بذلك استغلال جو الحرب فى العالم الإسلامى بتجارة السلاح، والعيش على هذه التجارة، وضمان استنزاف الموارد عن طريق بيع صفقات الأسلحة إلى البلاد الإسلامية، التى يتم بها القضاء على كل أمل فى التقدم فى

هذه البلاد، حيث تقضى على الموارد، وتحرق كل تقدم بالمدافع والطائرات والقنابل فى ساحات القتال، فالدول الاستعمارية بذلك فائزة فى وضع الحرب أيضاً، كما أنها فائزة فى وضع السلم.

والإحصائيات المتعلقة بتسويق السلاح فى العالم، توضح المأساة التى خطط لها الاستعمار لاستنزاف موارد البلاد الإسلامية، وتتنافس فى هذا المجال دول الغرب، فقد نشرت مجلة الأسبوع العربى التى تصدر باللغة العربية فى باريس، إحصائية خطيرة فى سنة ١٩٨٢، وتقول هذه الإحصائية التى استقتها مما ينشر فى الغرب بأن قيمة مشتريات الأسلحة فى سنة ١٩٨٠م فى دول العالم الثالث، وغالبيتها دول إسلامية، قيمة هذه المشتريات بلغت ٤٤,٢ مليار دولار أمريكى(١)، وتحتل الدول العربية المركز الأول بين دول العالم الثالث فى شراء الأسلحة، ويحتل الاتحاد السوفيتى المركز الأول فى مبيعات الأسلحة، تليه فرنسا فالولايات المتحدة، ويقدر تقرير أمريكى رسمى قيمة مبيعات الاتحاد السوفيتى من الأسلحة فى سنة ١٩٨٠م بنحو ١٤,٨ مليار دولار، تليها مبيعات فرنسا ٨,٢ مليار دولار أمريكى، فالولايات المتحدة الأمريكية ٦,٦ مليار دولار أمريكى، ويقول التقرير أن الولايات المتحدة الأمريكية زودت العالم الثالث منشآت عسكرية. وقدمت إليه تدريبات وخدمات أخرى، لا أسلحة تبلغ قيمتها ١٥,١ ملياراً دولار أمريكى.

ويلاحظ أن الدول الإسلامية بدأت تعتمد بصورة متزايدة على

(١) مجلة الأسبوع العربى، عدد ١١٧٠، بتاريخ ١٥ مارس ١٩٨٢، ص١٩.

السلاح الفرنسى، واستناداً إلى تقرير رسمى فرنسى، نشر فى مطلع عام ١٩٨٣م، فإن قيمة عقود بيع المعدات العسكرية التى وقعتها فرنسا فى يناير وفبراير عام ١٩٨٢ بلغت ٢٢ مليار فرنك فرنسى، وتوزعت العقود الرسمية على السعودية بمبلغ ١١ مليار فرنك، ومصر ٥,٧ مليارات، والعراق ٤ مليارات، ونيجيريا بمقدار مليار فرنك فرنسى فقط(١).

قمع الدول الإسلامية عسكرياً ونووياً

إن الدول الاستعمارية هى التى تتآمر باستمرار على الدول الإسلامية، وتحاول الإبقاء على مشاكلها التى تعوقها عن النمو، وذلك بإيجاد إسرائيل وخلق وطن قومى لها فى المنطقة، كما أوضحنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة، وتساعدها منذ الحرب العالمية الأولى حتى تم إعلان دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨، وساعدت إسرائيل منذ لحظة ميلادها، على أن تظل الدولة الأولى فى التسلح لكى تقمع الدول العربية الإسلامية عسكرياً باستمرار، فجعلت منها ترسانة عسكرية، استطاعت أن تنتصر على الدول العربية المجاورة، فى حروب عام ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧، وكادت تنتصر فى حرب عام ١٩٧٣م، لولا تدخل عامل المفاجأة وعوامل أخرى جعلت الحرب بالتعادل، وتعاونت الدول الصناعية على وقفها خوفاً على إمدادات البترول.

---

(١) المرجع السابق.

وأضافت الدولة الاستعمارية بعداً آخر إلى قمع العالم الإسلامى، وهو البعد الذرى، أو ما يسمى بالقمع الذرى والنووى، فقد ساعدت إسرائيل منذ لحظة ميلادها، على أن يكون لها أسلحة ذرية، فبعد عام واحد من قيام إسرائيل أى فى سنة ١٩٤٩م، أرسلت حكومة بن جوريون (أول رئيس لوزراء إسرائيل) بعثة لها إلى فرنسا لدراسة العلوم الذرية، وقد استطاع أحد اليهود السوفيت الهروب إلى إسرائيل فى سنة ١٩٥٣م، ويدعى (دوستروفسكى)، حاملا معه معادلة علمية جديدة لإنتاج الماء الثقيل اللازم لصناعة القنبلة الذرية، ومقابل كشف أسرار هذه المعادلة لفرنسا، تولت فرنسا رعاية المشروع النووى الإسرائيلى.

وقد تطور هذا المشروع فيما بعد عندما قام (أوبنهايمر)، أبو القنبلة الذرية الأمريكية، وهو يهودى أيضاً، بالإقامة فى إسرائيل وبموافقة الحكومة الأمريكية، حصلت إسرائيل على تقارير سرية أمريكية عن البحث العلمى النووى، بالإضافة إلى ٤٥ مجلداً علمياً، تضمنت حصيلة الدراسات والأبحاث النووية الأمريكية، وتولت الولايات المتحدة تدريب وإعداد ١٦٥ عالماً إسرائيلياً فى المفاعلات النووية الأمريكية، وهم الذين قادوا فيما بعد عملية الصناعات النووية الإسرائيلية.

ومن ثم أنشأت إسرائيل عدة مفاعلات نووية، الأول مفاعل يسمى مفاعل (ناحال سوريك) فى جنوب تل أبيب بمعونة فرنسا، وفى سنة ١٩٥٧م أنشأت مفاعل (ريشون لتون)، وفى سنة ١٩٦٤م

أقامت مفاعل (ديمونة) قرب مدينة بئر سبع، وهذا المفاعل الأخير تنتج منه إسرائيل القنبلة الذرية التى تقدرها المصادر العلمية بعدد يتراوح بين عشر قنابل وعشرين قنبلة، وفى سنة ١٩٦٦م بدأت العمل فى مفاعل (النبى روبين)، وتستغله إسرائيل فى تحلية مياه البحر المالحة وإنتاج الكهرباء(١).

وتقوم إسرائيل فى الوقت نفسه بالقضاء على أى محاولة عربية أو إسلامية لامتلاك القنبلة الذرية، فقد قامت فى شهر يوليو من عام ١٩٨١م بالعدوان على المفاعل النووى العراقى، الذى تم إنشاؤه بمساعدة فرنسا، وذلك بحجة أن العراق قد يصبح دولة نووية منتجة للسلاح النووى، الأمر الذى يعرض مستقبلا أمن وسلامة إسرائيل للخطر، وعندما تعهدت فرنسا بإعادة بناء المفاعل النووى العراقى، اعترضت إسرائيل بشدة، واستعملت قوة الصهاينة فى فرنسا، للضغط على الرئيس الفرنسى ميتران للتراجع، واشترط ميتران على العراق عدم إنتاج سلاح نووى من هذا المفاعل.

ولما كانت باكستان من بين الدول الإسلامية التى تقدمت فيها الأبحاث النووية فى مفاعلات ذرية متقدمة، فإن إسرائيل هددت بضرب المفاعل النووى الباكستانى، وتخطط لذلك كما ذكرت التقارير مؤخراً، ويطلقون على القنبلة الذرية المنتظرة فى باكستان بالقنبلة الذرية الإسلامية.

وأخيراً فإن الانبعاث الإسلامى فى البلدان الإسلامية بات مقلقاً

---

(١) انظر: مجلة الأسبوع العرربى، العدد ١١٧٠، فى ١٩٨٢/٣/١٥، ص١٨.

للاستعمار، ويعتبره كتاب الغرب استفزازاً لهم وللاتحاد السوفيتى، فقد كتبت مجلة «جويشى كرونيكل» الانجليزية الأسبوعية مقالا تحت عنوان «الإسلام المجاهد» (١)، تقول فيه:

«لا جدال بأن نجاح القيادة الشيعية فى إزاحة الشاه، وإقامة نظام جديد متأثر بالإسلام فى إيران، سيكون حافزاً رئيسياً لأية مؤسسة إسلامية فى أى مكان، لكى تعيد التأكيد على نفوذها الضخم، هذا النفوذ ودور الإسلام فى الحياة اليومية لمئات الملايين فى قارتى آسيا وأفريقيا، كانت تتجاهله حتى الآن حسابات المعلقين الغربيين المهتمين بقضايا عملية تتعلق بإمدادات النفط والسياسة والأمن، ولكن صانعى السياسة فى الغرب سيكونون قصيرى النظر إذا أهملوا تلك النداءات الملحة، التى يطلقها الجامعيون والأكاديميون فى أنحاء العالم الإسلامى، لإعادة النظر فى «البركات» المفترضة من «التحديث»، والعودة إلى تعاليم الإسلام الأساسية، هذه النداءات تندرج فى صلب الاستفزازات الإسلامية الجديدة، حيث لا تسمع فقط فى الأنظمة المعتدلة فى العالم العربى، وإنما أيضاً فى الأنظمة الأكثر راديكالية».

«... وإذا ألقينا نظرة شاملة، وجدنا أنه ليس فى وسع الغرب ولا حتى الاتحاد السوفيتى، أن ينظر بلا مبالاة إلى الوعى الذاتى المتنامى والثقة بالنفس عند المسلمين، اللتين -إذا أخطىء توجيههما أو التحكم فيهما- يمكن أن تزعزعا توازن قسم كبير من

(١) بتاريخ ٥/١/١٩٧٩.

الكرة الأرضية» (١).

من كل هذا يتضح لنا تربص الدول الاستعمارية ليقظة العالم الإسلامى، ومحاولة كتاب الدول الاستعمارية استعداء ساسة بلادهم عليه، ولكن عجلة التغيير التاريخية ماضية فى طريقها، لتحقيق أمانى الشعوب الإسلامية المقهورة والتى طال ظلمها، ولا يستطيع أحد مهما أوتى من قوة وجبروت إيقافها، أو العمل على توجيهها لصالحه.

وقد شاءت قدرة الله أن يتم فك أسر ست دول إسلامية مؤخراً من ربقة أسر الاتحاد السوفيتى، عندما انفرط عقده، وهى طاجيكستان وأوزبكستان وكازاخستان وتركمانستان وأذربيجان وقيرغيزستان.

وسقط الاتحاد السوفيتى دون حرب، وسقطت النظرية الشيوعية بعد فشلها الاقتصادى، لعدم قدرة الاتحاد السوفيتى على إطعام شعوبه، التى نزلت بها المجاعة وحل بها الفقر، رغم قدرتها العسكرية، وثبت بذلك فشل النظرية الشيوعية التى حاولت غزو العالم، وخاصة دول العالم الثالث.

ففى أوائل شهر ديسمبر من عام ١٩٩١، أعلنت كل من روسيا الاتحادية وأوكرانيا وروسيا البيضاء إلغاء الاتحاد السوفيتى، وإقامة

(١) نقلا عن مجلة الحوادث، عدد ١١٥٨، بتاريخ ١٢/١/١٩٧٩، (نص مترجم للعربية).

رابطة جديدة سميت «كومنولث الدول المستقلة»، ولم تلبث أن انضمت إليها الدول الإسلامية الخمس، التى استقلت فى وسط آسيا، وهى كازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان وتركمانستان وأوزبكستان، واتخذ الكومنولث شكله الجديد فى عاصمة كازاخستان «ألماآتا» فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٩١م، ليضم كل جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق، عدا جمهوريات البلطيق الثلاث (استونيا - لاتفيا - لتوانيا)، التى استقلت هى الأخرى، ولم تقبل الانضمام إلى الكومنولث الجديد، وأعلن «نور سلطان نزار باييف» رئيس كازاخستان أن رؤساء الجمهوريات المستقلة المجتمعين فى العاصمة الكازاخية، ألغوا رسمياً ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى الشيوعى من خارطة العالم، واتفقوا على أن تحتل جمهورية روسيا الاتحادية مقعد الاتحاد السوفيتى الدائم فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن والمنظمات الدولية الأخرى(١).

وكانت مقدمة هذا الانهيار قد بدأت بتعديلات جوهرية فى النظام الشيوعى على أيام رئاسة جورباتشوف، مثل إدخال نظام الانتخاب عام ١٩٨٩م، وإنشاء مجلس تشريعى يراقب السلطة التنفيذية، وتعديل الدستور ليرفع منه السلطة القيادية التى يتمتع بها الحزب الشيوعى، وفى ديسمبر ١٩٩٠م صدر قانون يحول النظام

---

(١) د.مصطفى كسبة، المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، وهو ملخص للأبحاث التى قدمت إلى مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز، المنعقد بجامعة الأزهر، فى سبتمبر ١٩٩٣، ص٢٤٢- ٢٤٣.

الاقتصادى المركزى إلى نظام السوق الحرة، وفى يوليو ١٩٩١م اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى لتقرر التخلى عن الشيوعية الماركسية اللينينية، وقام الرئيس الروسى «بوريس يلتسين» فى محاولته إدانة الماضى، بتدمير كل الإنجازات التى كان يفخر بها المواطن الروسى، والرموز التى كان يحترمها، ومنها تحطيم صورة الزعيم السوفيتى لينين، مؤسس الدولة السوفيتية، وكشف النقاب عن مدى تورط لينين فى عمليات القمع الرهيبة للمواطنين فى أعقاب ثورة عام ١٩١٧م.

كما اتهم الرئيس السوفيتى الأسبق ستالين بسوء القيادة، وأدان كل فترة حكم الماركسية اللينينية، وحمل الحزب الشيوعى مسئولية جميع سقطات تلك الحقبة(١).

ومن ناحية أخرى، كانت مقدمة هذا الانهيار الشيوعى الجهاد الإسلامى فى أفغانستان، الذى قضى على هيبة الاتحاد السوفيتى، كما قال الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون فى كتابه «الفرصة السانحة» Seize the Moment «تمكنت المقاومة الأفغانية، رغم ضعف تسليحها، من وقف النفوذ الشيوعى، وأجبرت موسكو على الانسحاب المهين من البلاد»(٢).

وقال فى مكان آخر من هذا الكتاب «وقف الإسلام بصلابة ضد

(١) المرجع السابق، ص٣٤٦- ٣٤٩.

(٢) ص١٣ من الترجمة العربية لأحمد صدقى مراد، نشر دار الهلال المصرية، القاهرة، ١٩٩٢.

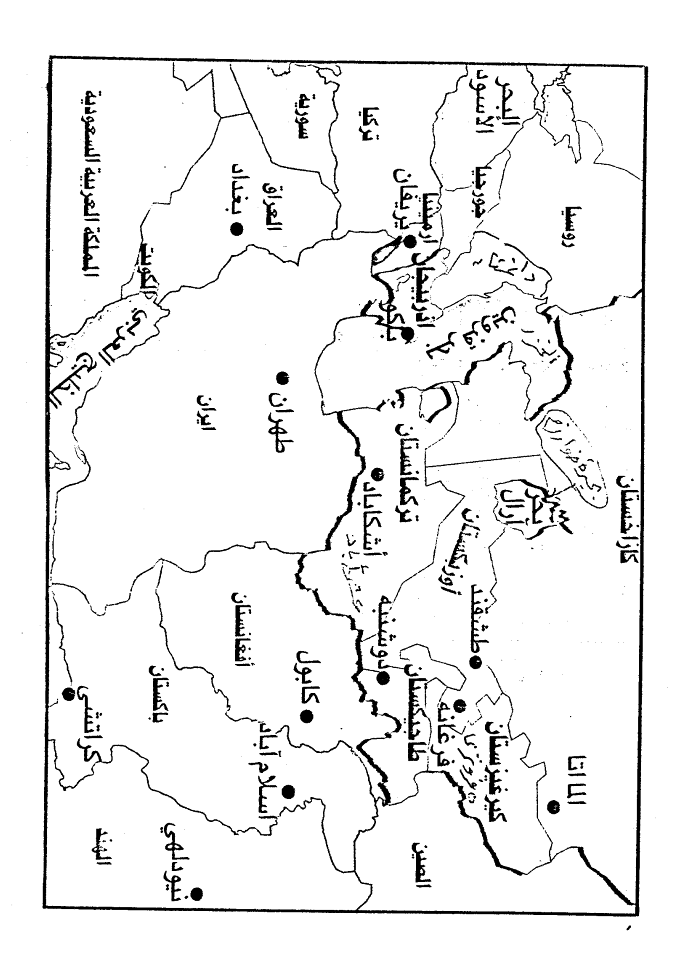
الشيوعية، أقوى مما وقفت المسيحية ضدها»(١).

ولاشك أن الجهاد الأفغانى جزء من اليقظة الإسلامية، وقد سبقته الثورة الإسلامية فى إيران، وتبعتها عملية استقلال الدول الإسلامية، التى كانت تابعة للاتحاد السوفيتى، وهى طاجيكستان وكازاخستان وأوزبكستان وتركمانستان وقيرغيزستان وأذربيجان، وهذه الدول لها ماض عظيم فى تاريخ الإسلام والمسلمين، بدأت بعد استقلالها تتشوق إليه.

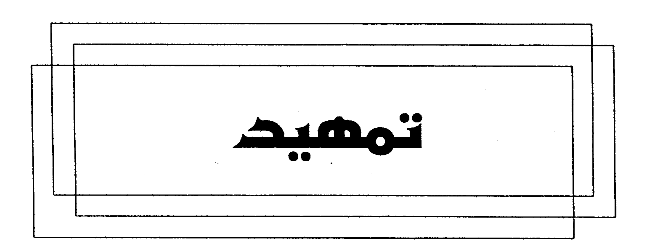
هذا وبالله التوفيق، وعليه التوكل، وهو نعم المولى ونعم النصير&

أ.د. مصطفى محمد رمضان
مدينة نصر - القاهرة - أول أغسطس ١٩٩٤

(١) المرجع السابق، ص١٢٨.



تركيا
سورية
العراق
بغداد
المملكة العربية السعودية
الكويت
إيران
طهران
جورجيا
روسيا
البحر الأسود
أرمينيا
يريفان
أذربيجان
باكو
تركمانستان
أشكاباد
أوزبكستان
طشقند
كازاخستان
قرغيزستان
ألما آتا
طاجيكستان
دوشنبه
أفغانستان
كابول
باكستان
إسلام آباد
كراتشي
نيودلهي
الهند
الصين


تمهيد

تمهيد

من الحقائق التاريخية التى يجهلها المسلمون، أن ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى، وانفرط عقده الآن، كان فى يوم من الأيام فى العصور الوسطى أرضاً إسلامية خاضعة للحكام المسلمين، وأن أغلب مناطقه حتى روسيا، كانت ولاتزال آهلة بالمسلمين، وأن الإسلام قد دخلها منذ صدر الإسلام، وأنبتت هذه الديار كثيراً من أعلام الإسلام ودعاته وعلمائه.

ليت قومى يعلمون ذلك، ويعلمون أيضاً أن من أكبر العوامل التى ساهمت فى سقوط الاتحاد السوفيتى، هو صمود مسلمى أفغانستان، وهذا ما يرصده الغرب الآن، واستعد لذلك استعداداً شديداً لمقاومة الإسلام والمسلمين فى كل مكان، وهذا ما قاله الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون»، فى كتابه الأخير «الفرصة السانحة» Seize the Moment، الذى صدر سنة ١٩٩٢، عندما اعترف بأن مقاومة الإسلام والمسلمين للفكرة الشيوعية، كانت أنجح وأقوى وأكثر تأثيراً من مقاومة الغرب لها، وأشار إلى أن السبب فى ذلك، يعود إلى مقاومة المسلمين لها، كانت تنبع من دافع عقائدى مبدئى، بينما كان الدافع الغربى للمقاومة، أكثر ميلا إلى المصلحة النفعية «البراغمانية»، وصدق نيكسون، فقد كان الإسلام الجبل الرأسى الذى صد هجمة الشيوعية على بلاد المسلمين(١).

---

(١) نيكسون، الفرصة السانحة، ترجمة أحمد صدقى مراد، دار الهلال، ١٩٩٢، ص١٣٨.

ولكن الغرب يهلل، ويثبت لنظامه الاقتصادى الرأسمالى، الانتصار على شيوعية الاتحاد السوفيتى وحده، ولكن شهد شاهد من أهله، بفاعلية مقاومة المسلمين للفكر الشيوعى، وهو الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون.

ويقول نيكسون «... نحن نتكلم عن العالم الإسلامى كوحدة واحدة، ليس بسبب وجود «لجنة مركزية إسلامية»، تدير سياسة المسلمين فى العالم، ولكن لأن الدول الإسلامية تجمعها تيارات سياسية وثقافية واحدة، نابعة من الحضارة الإسلامية ككل، وتسرى هذه التيارات فى جميع البلاد الإسلامية، بصرف النظر عن الاختلافات بين هذه البلاد وبعضها، فكما توجد فى جميع الدول الغربية أحزاب، يؤمن بعضها بسياسة السوق الحرة، وإعانة البطالة والاشتراكية، فكذلك يوجد فى العالم الإسلامى جماعات تؤمن بتيارات سياسية مختلفة، منها الأصوليون والرجعيون والتقدميون، وهذا الاتحاد فى العقيدة والسياسة، يعطى لهذه الجماعات قوة وتماسكاً، فإذا حدث حادث فى جزء من العالم الإسلامى، فلابد أن يؤثر فى الجزء الآخر»(١).

---

(١) من مقال وتحقيق لعبدالقادر طاشى، فى جريدة المسلمين، عدد ٢٠ ربيع الآخر سنة ١٤١٣هـ/ ١٦ أكتوبر ١٩٩٢م.
وانظر: نيكسون، الفرصة السانحة، ترجمة أحمد صدقى مراد، دار الهلال، ١٩٩٢، ص١٣٨.

ويعيش فى آسيا الوسطى ٧٥٪ من مسلمى الاتحاد السوفيتى، وهى الأرض المعروفة بالتركستان الغربية (وهى غير التركستان الشرقية التى تحتلها الصين)، وهذه الأجناس فى مجملها مكونة من الجنس التركى المغولى، ولا فرق بين الأثنين، فالعلاقة الجنسية بينهما شبيهة بالعلاقة بين العرب العدنانيين والعرب القحطانيين، وأحياناً يطلق عليها الجنس التركى فى المراجع الغربية، وكلاهما انتهى به المطاف إلى اعتناق الإسلام، كما اختلط بها الجنس الفارسى، والأدبيات الفارسية أكثر من الأدبيات التركية، وأصل هذا الجنس المنطقة التى كانت قديماً تقع بين امبراطوريتى الصين وفارس، فكان محصوراً فى منطقة المراعى الوسطى فى وسط آسيا، وكانت قوة فارس تمنعهم من الزحف غرباً، فلما سقطت فارس أمام المسلمين، بدأوا يدخلون ديار الإسلام.

وكان لكثرة الخيول، ولطبيعة السهوب، ومراعى الاستبس الغنية، أن اكتسب السكان مهارة القتال والفروسية، فأقاموا الممالك القوية لأنفسهم، أو تحركوا بأعداد كبيرة خارج المنطقة، ليحكموا الكثير من مناطق العالم الإسلامى، أو يدخلوا فى تكوين معظم الجيوش، التى كونها حكام العالم الإسلامى(١).

وكان انتشارهم بكثرة، لدرجة أن بعض المؤرخين شبه ذلك

(١) د.طه عبدالعليم، العالم الإسلامى، إقليم جيوستراتيجى جيوبوليتيجى، رؤية جغرافية، نشره دورية يصدرها قسم الجغرافيا، كلية البنات، جامعة عين شمس، ص١٨.

بقوله «كأنما السماء كانت تمطر تركاً»(١)، ويطلق على هذا الجنس بأنهم بدوان العجم، ومن هنا يأتى دورهم التخريبى للعالم الإسلامى، بسبب سطحية إسلامهم، وخشونتهم وقسوتهم قبل إسلامهم مباشرة، وذلك لأنهم إندفعوا إلى العالم الإسلامى فى فترة الرعى، ليس لديهم فكر يذكر، وكانت البلاد التى دخلوها قد قطعت شوطاً كبيراً فى مجال التحضر، فأصابهم الترهل بسبب المدنية، فكان الأتراك أقوى عوداً، وأشد بأساً، ومن هنا كانت سيطرتهم السريعة على هذه البلاد، وكانوا صفراً من ناحية الفكر والحضارة، فهم وإن كانوا هزموا العالم الإسلامى عسكرياً، ولكن العالم الإسلامى هزمهم حضارياً، فاعتنقوا الإسلام، وتخلقوا بتقاليد أهله وعاداته.

وتشمل تركستان الغربية على خمس جمهوريات، بالإضافة إلى واحدة بالقوقاز، وهى وعواصمها: أوزبكستان (طشقند)، وكازاخستان (ألماأتا)، وتركمانستان (عشق آباد)، وطاجيكستان (دوشنبى)، وفيرغيزيا وعاصمتها (فرونزى)، أذربيجان وعاصمتها (باكو)، وهذه الجمهوريات كانت داخل الاتحاد السوفيتى المنحل، لاقت الأمرين من الحكم الشيوعى الإلحادى، الذى لم يثمر بعد سبعين سنة، سوى الجوع لهذه الشعوب، فاضطرت روسيا المفلسة، إلى أن تنفض يدها من مسئوليات هذه الشعوب، التى حاصرها فقر الشيوعية، وبدأت تستجدى الغرب وهى راكعة.

وبدأت هذه الدول الست تبحث فى هذا الجو الخانق عن هويتها الإسلامية، والدول الغربية وروسيا الاتحادية المفلسة ترصد تحركها، والكل لا يريد لها هداية إلى الإسلام، فكل شىء فى هذه

(١) د.محمد عبدالهادى شعيره، المختار من عالم الفكر، رقم ١، ١٩٨٤، ص١٤٨، من بحث لسعد زغلول عبدالحميد، بعنوان «الإسلام والترك فى العصر الإسلامى الوسيط».

الدول بعد الشيوعية مقبول، ماعدا التوجه إلى إسلامها وعقيدتها الأصلية، فالعلمانية Secularism(١) على الطريقة التركية مباحة، حتى القيادة الشيوعية السابقة أفضل عند روسيا والغرب من الإسلام، وهى القيادة الشيوعية التى انقلبت عليها دول أوربا الشرقية، وهلل لها الغرب وساندها، أما فى هذه الدول فاستمرار هذه القيادة وارد، وفى أكثر هذه الدول تم تحويل اللافتة فقط، من الحزب الشيوعى إلى الديمقراطى، والأفراد هم نفس الأفراد الذين استعملهم الحزب الشيوعى.

وبعضهم يعلن العلمانية تهرباً من لفظة شيوعى، ولابد لنا أن نتوقف قليلا عند مفهوم العلمانية التى يريدها الغرب للبلاد الإسلامية.

العلمانية التى يريدها الغرب للعالم الإسلامى، هى وقوف حكومات الدول الإسلامية موقف المواجهة ضد شعوبها المسلمة، والوقوف بكل قوة ضد أى تحرك إسلامى، والتوتر المستمر بين اتجاه الحكومات العلمانى المرضى عنه من الغرب، والشعوب المصرة على اتجاهها الإسلامى، ومنع تكوين الأحزاب الإسلامية، وعدم

(١) العلمانية Secularism، وترجمتها عدم تأسيس الأخلاق والتعليم على العقيدة بل على المادية، لأن كلمة Secular فى معجم أكسفورد تعنى دنيوى أو مادى ليس دينياً، فهى إذن الدنيوية اللادينية، فالعلمانية إذن لفظة لا تمت بصلة إلى العلم، فالعلم فى الإنجليزية والفرنسية Science، والعلمانية تعنى الدنيوية اللادينية، فلا تعنى فصل الدين عن الدولة، وإنما تعنى فصل الدين عن الحياة(١).

(١) محمود رزق ماضى، من كلمة له فى جريدة المسلمين، عدد ٢٧ ربيع آخر.

وصول الإسلاميين إلى الحكم، حتى ولو كان ذلك عن طريق الانتخاب الحر.

وهذا مفهوم جديد للعلمانية كما عرفها الغرب، فالعلمانية فى المفهوم الغربى هى فصل الدين عن الدولة، وهى أرقى بذلك من العلمانية التى يريدها الغرب للمسلمين، لأن الحكومات الأوربية لا تنصب نفسها عنصراً مضاداً للدين، كما هو الحال فى الشرق الإسلامى الآن، وتبيح الحكومات الأوربية تكوين الأحزاب على أساس دينى، فهناك فى إيطاليا الحزب الديمقراطى المسيحى، وفى المانيا أيضاً الحزب الديمقراطى المسيحى، حتى فى إسرائيل.

وثمة تجربة ديمقراطية فريدة فى دول آسيا الوسطى الإسلامية، وهى تجربة قيرغيزستان، الذى استطاع رئيس جمهوريتها أن ينشىء عدة مؤسسات ديمقراطية وحديثة، بخلاف ما يجرى فى تركمانستان وأوزبكستان، حيث مازالت الكوادر الشيوعية تسيطر على الوضع، ولكن يجب انتظار الوقت للحكم على هذه التجربة، وإذا استطاعت قيرغيزستان أن تحقق نجاحاً اقتصادياً وديمقراطياً، فإنها ستكون رائدة، ليس فى وسط آسيا الإسلامية، وإنما للعالم الإسلامى كله، ونموذج جذب لجاراتها (١).

وتروج فى الغرب الآن مقولة الخطر الإسلامى، وتزداد النزعة المعادية للاسلام فى وسائل الإعلام الغربية، إلى درجة تورط البعض بأنه خطر يهدد العالم(٢)، وإن رائحة الحقد والدوافع

(١) مجلة الوسط، عدد ٤٢، فى ١٦/١١/١٩٩٢، ص٢٠.

(٢) المسلمون، عدد ٢٠، ربيع الآخر سنة ١٤١٣هـ/ ١٦ أكتوبر سنة ١٩٩٢م.

الصليبية لتبدو واضحة من الكتابات الغربية على أعلى مستوى، ومنها ما أشرنا إليه سابقاً من كتاب نيكسون، الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية.

وهذا يذكرنا بالحملة على العالم الإسلامى فى مطلع العصور الحديثة، التى قادتها البرتغال وأسبانيا، بتشجيع من البابوية فى روما، لغزو الإسلام فى عقر داره، وتورط بعض البابوات فوصفوا الإسلام فى مراسيمهم بأنه طاعون(١)، وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التى يستولى عليها البرتغاليون، والحيلولة بينهم وبين إصابتهم بالطاعون الإسلامى، وشجعت البابوية عملية الانخراط فى البحرية البرتغالية والأسبانية، وكان البابا يعد المشتركين فى تلك الحملات بالنجاة من النار يوم الحساب.

إذن فالتاريخ الآن يعيد نفسه، والفكرة التى روجت بالأمس، تروج اليوم ظلماً وعدواناً ضد المسلمين فى كل مكان، وأصبح الإسلام والمسلمون مستهدفون فى أوربا وآسيا وأفريقيا، والتصفيات علنية الآن فى البوسنة والهرسك وفلسطين وكشمير وآسيا الوسطى، وفى كل يوم تطير لنا وكالات الأنباء خبراً عن هجوم ضد دعاة العودة إلى إسلامهم فى طاجيكستان وفى أذربيجان، وفى جورجيا (إقليم أفخازية الأباظة)، والمسلمون فى القرم والشاشان وفى اليونان وفى كوسوفو ومقدونيا، وغيرها من الدول التى كانت تحت السيطرة الشيوعية.

---

(١) انظر: د.عبدالعزيز الشناوى، أوربا فى مطلع العصور الحديثة، القاهرة، ١٩٦٩، جـ١، ص٩٤.

وانظر أيضاً كتابنا: العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث والمعاصر، جـ١، ص٢٣.

ولذلك فالمسلمون يخوضون معركة الآن فى مناطق الاتحاد السوفيتى السابقة المنهارة، فى سبيل العودة إلى إسلامهم، بعدما عانوا من اضطهاد تحت الإدارة القيصرية، ومن بعدها الحكم الشيوعى، فقد عمل هؤلاء وهؤلاء على القضاء على زعماء الحركات الإسلامية فى هذه البلاد، والآن فإن زعماء ورؤساء هذه الدول شيوعيون فى الحقيقة، غيروا فقط اللافتة، بدل الشيوعية أعلنوا الديمقراطية أو العلمانية المزيفة، وروسيا من ورائهم تخشى من اندفاعهم إلى أصولهم التاريخية الإسلامية، وكذلك موقف أمريكا ودول أوربا، فعودة الروس إلى المسيحية مطلوبة ويروج لها، أما عودة مسلمى آسيا إلى إسلامهم فمرفوضة.

ولقد حذر المراقبون من تفجر الصراعات العرقية داخل الجمهوريات الإسلامية المستقلة حديثاً عن الكيان السوفيتى السابق، وأشار الباحثون إلى أن حدة هذه الصراعات المتوقفة، قد تكون أكثر عنفاً مما يحدث حالياً لمسلمى البوسنة والهرسك (١٩٩٣م)، بسبب تعقد التركيبة السكانية لهذه البلاد، ومما يصعب مهمة العالم الإسلامى فى مساعدة هذه الدول، أننا نعانى نقصاً شديداً فى المعلومات والجداول والإحصاءات عن هذه الدول، فلا توجد إحصائية رسمية عن عدد المسلمين فى هذه البلاد، والتى تقدر بحوالى ٧٠ مليون مسلم، مما يجعل هذه الدول بمثابة قوة سياسية على وشك الظهور.

ويشير البعض، إلى أن هناك خمسة احتمالات مستقبلية لهذه الجمهوريات:

الاحتمال الأول تفتت كل جمهورية إلى دويلات عرقية، وهذا الاحتمال مستبعد بسبب الرفض الدولى المعلن.

الاحتمال الثانى عودة الهيمنة الروسية من جديد، وهذا مستبعد أيضاً خاصة أن أمريكا وإن كانت تريد لروسيا التماسك والقوة، لكن بقدر لا يهدد أوربا ولا يعيد لها الوضع القديم.

الاحتمال الثالث هو اتحاد تلك الدول الإسلامية فى دولة واحدة، ولاشك أن هذا الاحتمال سيواجه بمقاومة من روسيا والغرب بما فيهم أمريكا.

الاحتمال الرابع هو انضمام بعض تلك الجمهوريات إلى إيران أو تركيا، وهو مستبعد لأن كل القوى الدولية ترفضه.

الاحتمال الخامس هو استمرارالإطار الكونفدرالى الواسع، الذى يكون لروسيا فيه دور أكبر، ويحقق التكامل الاقتصادى، مع احتفاظ كل جمهورية بشخصيتها القومية، وهو الاحتمال الأقوى.

وهناك احتمال بروز كازاخستان أو أوزبكستان، فكل منها يرغب فى الاضطلاع بدور مركزى، الأول لموقعه الجغرافى، ولديه قوة نووية، والثانى لدوره السابق فى آسيا الوسطى، ووجود ٢٠ مليون أوزبكى وهم أكبر دولة فى السكان(١).

ولما كانت الغالبية العظمى فى هذه الجمهوريات من الأتراك السنة، فإن التيار الإسلامى يبدى تخوفه من أن تقوم تركيا، لقرابتها بهم، بتحجيم هذه الصحوة الإسلامية داخل هذه الجمهوريات، وصبغها

(١) مجلة الوسط، عدد ٤٢، نوفمبر ١٩٩٢م.

بالصبغة العلمانية.

وعلى كل حال، فإن المخططات الغربية مازالت تربك الأطراف المختلفة، وتمنعها من وضع سيناريوهات التآمر (١).

وإن كان المشاهد للعلاقات بين تركيا وهذه الدول، يرى تجاوباً من هذه الدول مع تركيا، وأن الغلبة ستكون لها على إيران، وذلك من خلال تصريحات رؤساء هذه الدول، فقد قال رئيس جمهورية أوزبكستان «إسلام كريموف» «إن بلادنا ستقتفى أثر النموذج التركى».

وقال رئيس جمهورية قيرغيزستان «إن تركيا هى نجم الصباح الذى يهدى طريق جمهورياتنا».

ومن ثم تحركت تركيا بسرعة فى الجمهوريات الإسلامية، وتم عقد مؤتمر قمة لرؤسائها، وأرسلت تركيا مئات الخبراء، وآلاف المتطوعين، للعمل فى مجالات التنمية المختلفة، وأنشأت شركة الطيران التركية خطوطاً منتظمة مع كل من تركستان وأوزبكستان، وعقدت تركيا اتفاقاً مع كازاخستان، بخصوص حقول النفط، ومحطات الطاقة بمبلغ ١١,٧ بليون دولار (٢).

ولكن نظراً لقرب (إيران) من هذه الدول، فإن فرصتها فى

---

(١) من مقال عن الاحتمالات المرتقبة فى الجمهوريات الإسلامية، جريدة المسلمين، وهو ملخص للندوة الفكرية بالمركز العربى للدراسات الإسلامية، عدد ٢٧ من ربيع الآخر سنة ١٤١٣هـ/ ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٩٢م.

(٢) الوسط، عدد ٤٥، ٧/١٢/١٩٩٢، ص٢٨.

العلاقات مع هذه الدول كبيرة، فهذه الدول تحتاج إلى طرق توصلها إلى العالم الخارجى، وذلك عن طريق إيران، ومن ثم نشطت إيران فى هذا المجال، وطرحت التعاون فى تقديم منفذ على البحر، لتسهيل التجارة مع الخارج، وأعلنت عن مشروع خط حديدى يربط إيران وتركمانستان ويصل إلى الخليج، بتمويل خليجى، وبالفعل فى آيار / مايو ١٩٩٢ طرحت إيران على دول الخليج فكرة التعاون فى تمويل هذا الخط، وبدأ العمل فى طريق برى مع كازاخستان بتمويل إيرانى، وفتح بنك صادرات إيران فرعاً له فى عدد من العواصم، كما تنظم شركة الطيران الإيرانى خطوطاً منتظمة، وبادر رئيس جمهورية تركمانستان (نيازوف) بزيارة طهران فى أغسطس ١٩٩٢، وعقد عدة اتفاقات للتعاون فى عدة مجالات، على أن تقوم إيران بمساعدة تركمانستان لنقل الغاز إلى أوربا، وتدريب الطيارين، وإقامة معرض دائم لمنتجات تركمانستان فى مدينة مشهد الإيرانية (١).

جهود تركيا

وتحاول تركيا إحياء القومية الطورانية بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وتنادى بتماسك الشعوب التركية المنتشرة من الصين حتى اسطنبول، أو كما يقول آخرون من البوسنة إلى الصين.

ولهذا فهى تتحرك فى كل اتجاه، لتقوية موقفها فى هذه الآفاق، فقد شاركت فى عام ١٩٩٣ فى قمة منظمة التعاون الاقتصادى

---

(١) الوسط، عدد ٤٢، ١٦/١١/١٩٩٢، ص١٣.

التى تضم تركيا وإيران وباكستان وأفغانستان ودول الكومنولث الإسلامية الست، كما وقعت تركيا مع عشر دول على إعلان اسطنبول، لإقامة منظمة تعاون للدول المطلة على البحر الأسود فى عام ١٩٩٣.

ودعت لعقد مؤتمر للدول الناطقة بالتركية، وعقدت القمة الأولى فى أنقرة فى سنة ١٩٩٣، وفى عام ١٩٩٤ دعا وزير خارجية أذربيجان (حسن حسنوف) إلى عقد القمة الثانية لهذه الدول فى «باكو» عاصمة أذربيجان هذا العام ١٩٩٤.

ومن ناحية أخرى، تحاول تركيا أن تربط نفسها بالعرب وأفريقيا، فقد شاركت مؤخراً فى الاجتماعات التمهيدية لمنتدى الشرق الأوسط، الذى دعا إليه الحزب الحاكم فى تونس، والذى ضم ١٥ دولة، وبذلك ستكون شريكاً قوياً فيما يسمى بالسوق الشرق أوسطية، مع كل من إسرائيل ومصر وغيرها من الدول العربية.

وفى فبراير ١٩٩٤ يتم التفاوض على مد أنابيب داخل الأراضى التركية، لنقل بترول دول الكومنولث الإسلامية، وذلك كتعويض لتركيا عن خسائرها التى بلغت ١٥ مليار دولار، بسبب إغلاق خط أنابيب بترول العراق، وتحركت لجذب مصر إلى صفها، لكى لا تناوئها فى اشتراكها فى سوق الشرق الأوسط، وعرضت عليها إنشاء سوق حرة من الدولتين، مصر وتركيا، تضم أكثر من ١٢٠ مليون نسمة هو تعداد الدولتين.

وهكذا فهى تتحرك فى كل اتجاه حتى فى اتجاه إسرائيل، وكانت زيارة رئيس دولة إسرائيل «عيزرا فايتسمان» إلى تركيا فى يناير ١٩٩٤، هذا بالإضافة إلى أنها عضو فى حلف شمال الأطلسى،

ومن هنا نرى أنها تحاول التواجد فى كل التجمعات، فهى دولة أوربية ودولة آسيوية، وإحدى دول الشرق الأوسط، ومن دول البحر المتوسط، ومن دول البحر الأسود، ومن الدول الإسلامية، فهى عضو فى المؤتمر الإسلامى، على الرغم من علمانيتها ومشيها فى ركاب الغرب.

ولاشك أن تركيا ومحاولة تماسكها بالشعوب الإسلامية الممتدة من الصين إلى حدودها، سيكون عامل إضعاف لتنامى القومية الروسية، وإضعاف لمحاولات إعادة الهيمنة الروسية على بلاد وسط آسيا والقوقاز، وستحاول تركيا استغلال نفوذها اللغوى والعرقى فى هذه المناطق، باعتبار أصولها التركية والمغولية، وإيقاف محاولات التوسعة الإيرانية، ودمغها بالأصولية الشيعية المنفرة عند الغرب، ويساعدها الغرب على ذلك.

وفى المقابل، فإن إيران تحاول تحجيم دور تركيا سياسياً ودينياً واقتصادياً، ودمغها بالعلمانية المنفرة للشعوب الإسلامية، وتقول عنها بأنها تمثل حصان طروادة الذى سيدخل النفوذ الغربى الاستعمارى إلى هذه الدول الإسلامية.

وصفوة القول، أن عبر التاريخ الوسيط والحديث لمنطقة وسط آسيا، تقول إن هذه المنطقة لم تعش مستقلة من قبل، وذلك بسبب أنها منطقة داخلية، تحكمت فيها على مر الزمن قوى كبيرة كانت مجاورة لها، وهذه القوى إما دولة الفرس، أو القوى الإسلامية أيام الدولة الأموية والدولة العباسية، ثم دولة المغول والدولة العثمانية، ثم إيران الحديثة، أو روسيا، فنظراً لأنها داخلية، فاتصالها بالخارج يكون صعباً وقت الأزمات، وهذا واضح فى كثير من الأزمات

العسكرية التى حدثت لها، فإنها تقع فريسة لجيرانها الأقوياء أو المهيمنين على الأوضاع، وهذا شاهدناه بعد استقلالها عن الاتحاد السوفيتى، فلما وقعت بعض الأزمات العسكرية لطاجيكستان وأذربيجان، اتضح الدور الروسى الفاعل والقوى والمؤثر فى نتائج الصراع، ولجوء هذه الدول إلى روسيا فى النهاية للدعم والمساندة، وسنرى فى أثناء عرضنا لتاريخ كل دولة على حدة أهمية هذا الدور.

وعلى ذلك، يتحتم على هذه الدول أن تعيش متكتلة، وأن يكون لها تجمع خاص بها، أو وحدة سياسية أو اقتصادية وتحالف، تستطيع به أن تحمى نفسها من الكبار وقت الأزمات.

فالتاريخ يقول إن تركيا ثقافياً ولغوياً مؤهلة لأن تلعب دوراً فى مؤازرة هذه الدول، ولكن الجغرافيا قطعت وسائل الاتصال بين تركيا وهذه الدول تماماً، ومن ثم ضاعت الوحدة التى كانت لهم مع تركيا أيام الدولة العثمانية، وفصلتهم روسيا عنها باستيلائها على القوقاز، ومن ناحية أخرى فإن إيران وهى قوة كبرى فصلت تركيا عنهم جغرافياً، ولا تتصل تركيا بهم إلا بواسطة المرور بأرمينيا أو جورجيا أو إيران.

ومن هنا فإن عبر التاريخ تقول إن الجغرافيا مؤثرة فى قوة هذه المناطق، وأن دور إيران أقوى فى الواقع من دور تركيا، لاتصال إيران المباشر بهم دون واسطة، وإيران لها إمكانية وصلهم بالبحار الخارجية، لاتصالها بهم وبالخليج العربى والبحر العربى والمحيط الهندى، فعن طريقها تؤمن لهم هذا الاتصال.

وهذا يحدث فعلا الآن، وتحدثنا عنه من قبل، عندما عرضت

إيران مشروع إنشاء خط حديدى، يربط إيران بتركمانستان ويصل إلى الخليج، وبدأ العمل فى طريق برى يربط كازاخستان بالخليج مروراً بإيران وتركمانستان، وبذلك توجد الفرصة لهذه الدول للاتصال السريع بالخارج، وتحل مشكلتهم، حيث لا توجد لهم موانى للتصدير.

إلا أنه يعاب على الدور التركى، تركيزه على النعرة القومية التركية، بدلا من تركيزه على الإسلام، وكان الواجب الوعى بأن الإسلام هو نقطة الجذب الرئيسية لمسلمى هذه المناطق، التى تتعطش لهويتها الإسلامية، كما أن تدعيم الغرب لتركيا وارتباطها به، قد يلقى ظلالا على مصداقيتها الإسلامية، بالمقارنة بإيران، التى يعد تحركها فى هذا الإطار تحركاً مدفوعاً بدوافع ذاتية، وليس مدعوماً من قبل الغير، وبذلك تبدو تركيا حليفة للغرب الذى يعتبر أن انتصاره فى الصراع ضد الشيوعية، يجب أن يكلل بالانتصار على «التطرف الدينى» (١).

جهود إيران

هناك عدد من العوامل والمتغيرات الدولية والإقليمية، هيأت لإيران الفرصة المناسبة، للعب دور إقليمى فى هذه الدول، ويمكن أن تحدد هذه العوامل والمتغيرات، على النحو التالى:

(١) د.نيفين عبدالخالق، مستقبل الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز، بحث مقدم إلى مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز، جامعة الأزهر، ١٩٩٣.

- ما ترتب على حرب الخليج الثانية، من تدمير القوى العسكرية للعراق.
- انهيار الاتحاد السوفيتى، واستقلال الجمهوريات الإسلامية.
- ما تتمتع به إيران من ثقل ومكانة إقليمية وعسكرية، يمكنها من أن تشارك بفاعلية فى ترتيبات الأمن الخاصة بمنطقة الخليج.
- الفراغ الفكرى الذى أحدثه انهيار الاتحاد السوفيتى، وسقوط نموذجه التطبيقى فى الاتحاد السوفيتى.

ومن ثم تحاول إيران تكوين كتلة إقليمية، تكون هى فيها بمثابة القلب والمركز، وتضم هذه الكتلة الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز، بالإضافة إلى منطقة الخليج، وبهذا تلعب إيران دوراً هاماً كمركز للتوازن بين منطقة آسيا الوسطى وأفغانستان من جهة، والعالم العربى من جهة أخرى، على أن يكون ذلك مقدمة لنظام إقليمى إسلامى.

ولتحقيق ذلك، اتخذت إيران بالفعل عدة خطوات فى الجبهتين، اللتين تحاول أن تكون مركزاً للتوازن بينها، ففى الجبهة العربية، قامت بمحاولة إحتواء العراق عن طريق التنازلات التى قدمها العراق دون أن تنهى حالة اللاسلم واللاحرب بينها وبينه.

ومن ناحية أخرى، اتخذت عدة خطوات لتحسين علاقاتها بدول الخليج، فى محاولة لإجراء نوع من المصالحة.

وفى جبهة آسيا الوسطى والقوقاز، اتجهت إيران مستغلة مواردها الاقتصادية والسكانية وعقيدتها الإسلامية، وانطلاقاً من الجوار الجغرافى والصلات التاريخية، إلى الجمهوريات الإسلامية،

وبصفة خاصة المناطق التى تغلب عليها الثقافة واللغة الفارسية، وشهدت المنطقة نشاطاً إيرانياً ملحوظاً(١)، من ذلك:

- أن إيران عقدت مع طاجيكستان عدة اتفاقيات تعاون فى يوليو ١٩٩٢.

- فى مطلع عام ١٩٩٢ انعقدت قمة طهران، التى شملت كل إيران وتركيا وباكستان والجمهوريات الإسلامية الست (كازاخستان، أوزبكستان، تركمانستان، وطاجيكستان، قيرغيزستان، أذربيجان)، وكان هذا الحدث، على حد تعبير طهران، «حدث تاريخى»، وبمناسبة عقد هذه القمة الإقليمية أعلن الرئيس الإيرانى هاشمى رفسنجانى عن تكوين «المجلس القزوينى»، الذى يضم إلى جانب إيران، أذربيجان وتركمانستان وكازاخستان وروسيا الاتحادية، وهى الدول التى تطل على بحر قزوين، وقد أعلن الرئيس الإيرانى أن مقر هذا المجلس سيكون فى طهران.

- حاولت إيران تأسيس «منظمة الناطقين باللغة الفارسية»، ضمت إيران وأفغانستان وطاجيكستان، وفى إطار حرص إيران على نشر اللغة الفارسية، واتخاذها عامل تقارب بينها وبين الناطقين بها فى آسيا الوسطى، نذكر الواقعة التى حدثت فى مطلع عام ١٩٩٢، اتفقت مع طاجيكستان على أن تتم محاضر المحادثات

(١) مصطفى دسوقى، مرجع سبق ذكره، ص٢٨٨- ٢٨٩.

وانظر أيضاً: د.نيفين عبدالخالق، مستقبل الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز، بحث مقدم إلى مؤمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز، جامعة الأزهر، ١٩٩٢.

باللغة الفارسية(١).

- قام هاشمى رفسنجانى بإعادة منظمة التعاون الاقتصادى الإسلامى، التى يرجع إنشاؤها إلى عام ١٩٦٥، وكانت تضم كلا من إيران وتركيا وباكستان، والتى حلها الإمام الخمينى عام ١٩٧٩، باعتبار أنها «أداة أمريكية»، وضمت المنظمة بجانب الدول الثلاث، الجمهوريات الإسلامية السوفيتية بعد استقلالها عن الاتحاد السوفيتى، وكانت قمتها المنعقدة بطهران فى مطلع عام ١٩٩٢، حيث تم التركيز على أنها يمكن أن تصبح سوقاً مشتركة، تضم دولا إسلامية عديدة، يبلغ عدد سكانها ٢٥٠ مليون نسمة، وإجمالى ناتجها القومى أكثر من ٣٠٠ مليار دولار سنوياً، ويصف الرئيس رفسنجانى المنظمة بقوله «إنها أسرة إسلامية كبرى»، حيث تأمل إيران أن تتحول منظمة التعاون الاقتصادى إلى قوة عالمية، أما المجلس القزويى السابق الإشارة إليه، فإن إيران ترمى من ورائه إلى الجمع بين التحرك على اليابسة والتعاون على الماء، فى إطار تنشيط التعاون على بحر قزوين(٢).

ويرى البعض، أن النشاط الإيرانى فى هذا الإطار، يعد نشاطاً دفاعياً وليس هجومياً، وذلك بالنظر إلى حاجة إيران للأمن إزاء تفوق النشاط التركى عليها، اعتماداً على غلبة العنصر التركى السنى على الجمهوريات الإسلامية، والذى يبدو واضحاً فى إحاطتها بتركيا غرباً، وبأغلبية سكانية فى آسيا الوسطى من الذين يتكلمون التركية،

(١) د.نيفين عبدالخالق، المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

ويتبعون المذهب السنى، ومن ثم لجأت إيران إلى سياسة دفاعية قوامها:

- محاولة استخدام اللغة الفارسية كعامل توحيد ثقافى بينها وبين طاجيكستان وأفغانستان.

- التعاون الاقتصادى والتجارة المفتوحة بينها وبين جيرانها فى آسيا الوسطى (١).

ومن الناحية الاستراتيجية، تأمل إيران عن طريق نشاطها فى آسيا الوسطى والقوقاز، إلى تعزيز قوتها فى السيطرة على الاختلافات الأثنية والقومية، مخافة أن تمتد هذه النزاعات إلى داخل إيران نفسها، وفى هذا الإطار قامت إيران بالوساطة بين أرمينيا وأذربيجان فى النزاع المسلح الناشب بينهما حول إقليم (ناجورنو - كاراباخ).

ومحاولة الاستفادة بأقصى قدر ممكن من أجل تحديث مؤسساتها العسكرية، وبصفة خاصة فى مجال الأسلحة المتطورة والنووية، وتناقلت وسائل الإعلام العربية أن إيران حصلت على أساحة نووية متطورة من كازاخستان، ونجحت فى استقطاب عدد من علماء وخبراء الذرة، وبصرف النظر عن مدى صحة هذه الأنباء، فإن الفرصة مهيأة لإيران بالفعل للاستفادة وتحديث مؤسساتها العسكرية، وخاصة مع ظهور ما سمى بسوق (المرتزقة النوويين)، وهم علماء وخبراء الطاقة النووية فى الاتحاد السوفيتى السابق، ويقدر الغرب عددهم بثمانية ألف خبير، والتنافس على أشده بين

(١) المرجع السابق.

دول عديدة لاستقطاب هؤلاء العلماء، ولاسيما أن بعضهم كان يعلن عن نفسه من خلال اعلانات فى الصحف.

أعداد السكان فيما بين عامى (١٩٨٣ - ١٩٩١)

لا يقتصر وجود المسلمين على البلدان الستة محل الدراسة، ولكن فيهم أعداداً كبيرة تعيش فى مناطق أخرى داخل أقاليم متعددة، سواء فى روسيا أو فى الجمهوريات الأخرى، غير أنها لا تشكل أغلبية كبيرة فى هذه المناطق، ومع ذلك فالأمر يستدعى أن يوجه الاهتمام إلى المسلمين فى مختلف مناطق العالم، سواء أكانوا أغلبية فى بلادهم أم أكثرية.

ويشير الجدول رقم «١» إلى أعداد السكان للبلدان الستة على النحو التالى(١):

السنة	أذربيجان	أوزبكستان	تركماستان	طاجكستان	قازقستان	قيرغيزستان	مجموع
١٩٨٣	٦,٤٥	١٧,٢٧	٣,٠٨	٤,٣٠	١٥,٥٥	٣,٨٦	٥٠,٥١
١٩٨٤	٦,٥٦	١٧,٧٤	٣,١٥	٤,٤٣	١٥,٧٤	٣,٩٤	٥١,٥٦
١٩٨٥	٦,٦٦	١٨,٢٣	٣,٢٣	٤,٥٧	١٥,٩٣	٤,٠١	٥٢,٦٣
١٩٨٦	٦,٧٦	١٨,٧٦	٣,٣٢	٤,٧٢	١٦,١٤	٤,٠٩	٥٣,٧٣
١٩٨٧	٦,٨٧	١٩,٣٠	٣,٤١	٤,٨٧	١٦,٣٦	٤,١٧	٥٤,٩٨
١٩٨٨	٦,٩٨	٩,٧٤	٣,٤٩	٥,٠٣	١٦,٥٠	٤,٢٥	٥٥,٩٩
١٩٨٩	٧,٠٧	٢٠,١١	٣,٥٨	٥,١٨	١٦,٦١	٤,٣٣	٥٦,٨٩
١٩٩٠	٧,١٥	٢٠,٥٣	٣,٦٧	٥,٣٠	١٦,٧٤	٤,٣٩	٥٧,٧٨
١٩٩١	٧,٢٢	٢٠,٩٦	٣,٧٥	٥,٤٢	١٦,٩٠	٤,٤٩	٥٨,٧٤
٪	١٢,٣	٣٥,٧	٦,٤	٩,٣	٢٨,٨	٧,٧	١٠٠,٠

(١) د.معين محمد عطا رجب، التطورات السكانية للدول الإسلامية فى آسيا الوسطى فى عقدى الثمانينيات والتسعينيات، بحث مقدم إلى مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز، جامعة الأزهر، ١٩٩٢.

المساحة والكثافة السكانية

تبلغ المساحة الكلية لهذه الدول ٤,٠٤٢ مليون كيلومتر مربع، وهذه المساحة تتجاوز ١٨٪ من المساحة الكلية للاتحاد السوفيتى السابق، البالغ مساحته ٢٢,٤٠٢ مليون كيلومتر مربع، كما تبلغ مساحة هذه البلاد ٢,٨٪ من مجموع مساحة بلدان العالم أجمع، البالغة ١٤٢,٦٨ مليون كيلومتر مربع، وهى تتاخم حدود الصين شرقاً، وروسيا شمالا، وجورجيا وأرمينيا غرباً، وأفغانستان وإيران جنوباً، وهى بلاد داخلية، لا تطل على بحار مفتوحة على العالم.

وتعتبر كازاخستان أكبر الدول الستة من حيث المساحة، إذ تبلغ مساحتها ٢,٧١٧,٣٠٠ مليون كيلومتر مربع، وبنسبة ٦٧,٣٪ من مساحة هذه الدولة الكلية وعاصمتها «ألماأتا»، تليها فى الترتيب تركمانستان، وتبلغ مساحتها ٤٨٨,١٠٠ كيلومتر مربع، وبنسبة ١٢,١٪، أما عاصمتها فهى «عشق آباد»، ثم أوزبكستان، وتبلغ مساحتها ٤٠٨,٩٨٠ كلومتر مربع، بنسبة ١٠,١٪، وعاصمتها «طشقند»، ثم قيرغيزستان، وتبلغ ممساتها ١٩٦,٨٤٠ كيلومتر مربع، بنسبة ٤,٩٪، وعاصمتها «فرونزى»، ثم طاجيكستان، وتبلغ مساحتها ١٤٣,١٠٠ كيلومتر مربع، بنسبة ٣,٥٪، وعاصمتها «دوشنبه»، وأخيراً أذربيجان، وهى أصغر البلدان الستة من حيث المساحة، وتبلغ مساحتها ٨٦,٦٠٠ كيلومتر مربع، أى بنسبة ٢,٢٪، وعاصمتها «باكو».

أما كثافة السكان فى الكيلومتر المربع، فهى كالآتى:

الدولة	الكثافة فى كم٢
كازاخستان	٦,٢ نسمة
تركمانستانن	٧,٧ نسمة
أوزبكستان	٥١,٣ نسمة
قيرغيزستان	٢٢,٨ نسمة
طاجيكستان	٣٧,٩ نسمة
أذربيجان	٨٣,٤ نسمة

(١)

المشكلات العرقية

وأهم المشاكل التى ورثتها الدول الإسلامية، التى كانت فى حوزة الاتحاد السوفيتى، هى المشكلات العرقية، فقد مارس الزعماء الروس سواء فى العهد القيصرى، أو فى العهد الشيوعى، نوعاً من خلخلة السكان، لتغيير البنية السكانية لهذه البلاد، وكانوا يقومون بالترحيل الإجبارى للسكان من مواطنهم الأصلية إلى أماكن أخرى، ثم إحلال العناصر الروسية والأوكرانية فى هذه البلاد، ومن ثم فهناك مشكلة أقليات موجودة داخل هذه البلاد، يمكن أن تنفجر فى أى وقت من الأوقات.

---

(١) المرجع السابق.

وقد بدأ أول انفجار فى إقليم صغير، تقطنه أغلبية أرمنية داخل جمهورية أذربيجان المسلمة، وهو إقليم (ناجورنو - كاراباخ)، كما أن حدود هذه الجمهوريات مزقت الشعوب، فالطاجيك قسمت أراضيهم بين أفغانستان وجمهورية طاجيكستان، والأذربيجانيين جزء منهم فى شمال إيران، والجزء الآخر فى جمهوريتهم التى تحمل اسمهم، ومن ثم تقع الاشتباكات الحدودية بين أفغانستان وطاجيكستان بين الحين والآخر، وتغذيها روسيا الاتحادية الآن كما سنرى عند عرضنا لهذه الدولة، وترابط قوات روسية على حدودها مع أفغانستان، خوفاً من تسرب النفوذ الإسلامى من أفغانستان إليها.

وفى كازاخستان يشكل سكان البلاد أقلية فى وطنهم، حيث بلغت نسبتهم إلى مجموع السكان ٣٦٪ فى عام ١٩٧٩، بينما بلغت نسبة الروس والأوكرانيين فيها ٤٨٪، ويرجع هذا إلى سياسة الروس الاستيطانية، التى قامت على طرد السكان المسلمين، وإحلال الروس والأوكرانيين محلهم(١).

ويوضح الجدول الآتى نسب الروس والأوكرانيين فى الجمهوريات الإسلامية.

---

(١) د.مصطفى كسبة، مرجع سبق ذكره، ص٢٥٠- ٢٥٣.

الجمهورية	القومية	النسبة
كازاخستان	كازاخستانيون	٣٦ ٪
	روس	٤١ ٪
	أوكرانيون	٦ ٪
	تتار	٢ ٪
تركمانستان	تركمانستانيون	٦٨ ٪
	روس	١٣ ٪
	أوزبك	٩ ٪
	كازاخستانيون	٣ ٪
أوزبكستان	أوزبك	٦٩ ٪
	روس	١١ ٪
	تتار	٤ ٪
	كازاخستانيون	٤ ٪
	طاجيك	٤ ٪
طاجيكستان	طاجيك	٥٩ ٪
	أوزبك	٢٣ ٪
	روس	١٠ ٪
قيرغيزستان	قيرغيز	٤٨ ٪
	روس	٢٦ ٪
	أوزبك	١٢ ٪
	أوكران	٣ ٪
	تتار	٢ ٪
أذربيجان	أذربيجانيون	٧٨ ٪
	روس	٨ ٪
	أرمن	٨ ٪

(١)

(١) المرجع السابق، ص٢٥٤، د.عبدالمنعم البدرى، الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز، من أبحاث المؤتمر سالف الذكر

أفغانستان المجاهدة

تعتبر عملية غزو الاتحاد السوفيتى لأفغانستان المسلمة فى مطلع عام ١٩٨٠، هى قاصمة الظهر للاتحاد السوفيتى، فقد اشتعل الجهاد الإسلامى فى هذه البلاد الغنية، التى قال عنها المؤرخ شكيب أرسلان «لعمرى لو لم يبق للإسلام فى الدنيا عرق ينبض، لرأيت عرقه بين سكان جبال الهيملايا والهندكوش نابضاً، وعزمه هناك ناهضاً».

ثم قال عنها أيضاً «إن تلك الجبال، كانت ولم تزل على ما يعلوها من الثلوج، مستوقد حماسة، ومثار حمية، وموطن فتوة، ومعدن فروسية»(١).

وعلى الرغم من أن أمريكا شاركت فى جريمة الاجتياح السوفيتى لأفغانستان، بالصمت الرهيب والنفاق الأمريكى المعهود، إلا أن أمريكا راعها الجهاد الإسلامى البطولى لأفغانستان ضد الشيوعية، فوجدتها فرصتها السانحة لركوب موجة الجهاد الإسلامى فى أفغانستان ضد الشيوعية، للقضاء على الاتحاد السوفيتى، فأمدت المجاهدين الأفغان بالسلاح، ولم تكتف بذلك، وإنما شجعت المتطوعين من العالم الإسلامى للجهاد فى أفغانستان، وشجعت كل من

(١) حاضر العالم الإسلامى، المجلد الأول، جـ٢، ص١٩٧- ١٩٨.

السعودية وباكستان على أيام ضياء الحق، ومصر على أيام السادات، على أن يقوموا بدعم حركة الجهاد الإسلامى فى أفغانستان، ويتركوا الفرصة لمن يريد الجهاد من المسلمين، للسفر إلى أفغانستان، وبدأت باكستان فى استقبال أعداد ضخمة من المتطوعين، من شتى بقاع العالم الإسلامى، وبدأت فى إعدادهم فى مناطق باكستانية، على الحدود مع أفغانستان، ثم بعد ذلك ينخرطون فى صفوف المجاهدين، وقيل إن عددهم وصل إلى ما يقرب من ربع مليون مقاتل، فاشتعلت حركة الجهاد ضد الشيوعية، وكان الاتحاد السوفيتى يخسر كل يوم فى هذه البلاد، وتدهورت أوضاعه الاقتصادية الهشة، وأدى ذلك إلى سقوطه السريع سنة ١٩٩١.

وهذا ما دعى الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» إلى أن يقول فى كتابه «الفرصة السانحة» Seize the Moment «وقف الإسلام بصلابة ضد الشيوعية، أقوى مما وقفت المسيحية ضدها»(١).

وقال فى مكان آخر من هذا الكتاب «تمكنت المقاومة الأفغانية -رغم ضعف تسليحها- من وقف النفوذ الشيوعى، وأجبرت موسكو على الانسحاب المهين من البلاد»(٢).

ومن ثم فإننا سنتناول أفغانستان فى تاريخها الحديث، إلى أن ...ل إلى فترة الجهاد ضد الشيوعية، لأن تاريخ أفغانستان وجهادها ضد الاتحاد السوفيتى والشيوعية، كان مقدمة لسقوط الاتحاد السوفيتى.

(١) مرجع سبق ذكره، ص١٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٢.

ولاشك أن الجهاد الأفغانى، جزء من اليقظة الإسلامية فى العصر الحديث، وقد سبقته الثورة الإسلامية فى إيران، على حكم امبراطور إيران، عميل أمريكا والغرب الرأسمالى فى منطقة الخليج العربى.

ولهذا فإننا سنتناول أيضاً تاريخ الثورة الإسلامية فى إيران ومقدماتها، لأنها أحدثت ومازالت تحدث تأثيراً قوياً فى العالم الإسلامى بدرجات متفاوتة فى آسيا وأفريقيا.

الفصل الأول

إيران فوق بركان

إيران فوق بركان

منذ عام ١٩٧٧م والشعب الإيرانى يملأ الأسماع والأبصار فى أجهزة الإعلام العالمية بثورته الإسلامية، التى نجحت فى القضاء على الأسرة البهلوية الحاكمة فى إيران منذ عام ١٩٢٥م، والذى أسسها رضا خان فى تلك السنة، وثورة إيران أول ثورة إسلامية شعبية فى العالم الإسلامى، تواجه جيشاً مدججاً بالسلاح فى عنفوان قوته، كان يخدم نظام الامبراطور محمد رضا بهلوى، ومن وراء هذا الجيش كانت أقوى الدول فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية، التى استشرى نفوذها كالسرطان فى جميع قطاعات إيران فى الجيش والوزارات المختلفة، ومع هذا تنجح هذه الثورة ضد القوى الداخلية والخارجية، وتقيم جمهورية إسلامية فى عام ١٩٧٩م.

وعلينا إذا أردنا أن نفهم هذه الثورة، أن نرجع إلى تاريخ الشعب الإيرانى فى فترة التاريخ الحديث والمعاصر، وكنا فى الجزء الأول قد تناولنا تاريخ الانقلاب الشيعى فى فارس، على يد الأسرة الصفوية فى مطلع القرن العاشر الهجرى، إلى أن تم لها توحيد غالبية بلاد فارس، مما أثار عليها القوى السنية المجاورة لها، فى أفغانستان شرقاً، والأناضول غرباً، وعلى الرغم من هزيمة الصفويين -كما ذكرنا- أمام الدولة العثمانية أيام الشاه إسماعيل الصفوى عام ٩٢٠هـ، إلا أنهم عادوا مرة أخرى إلى تجميع صفوفهم حول إسماعيل الصفوى، ولم يستطع العثمانيون القضاء على الحركة الصفوية الشيعية فى فارس نهائياً، كما قضوا على الدولة المملوكية فى

مصر والشام والجزيرة العربية سنة ٩٢٣هـ، وذلك لأن دولة المماليك كانت مؤسسة عسكرية منفصلة عن الشعب العربى فى المناطق التى حكمتها، وبمجرد القضاء عليها فى ميادين القتال، استسلمت الشعوب العزلاء من السلاح فى مناطق حكمها، وكانت الدولة العثمانية دولة سنية مثل دولة المماليك، فلم يكن من الصعب استمرار حكم هذه المنطقة بعد الدولة المملوكية، أما الدولة الصفوية فكانت بجانب أنها حركة فكرية شيعية مسلمة، كانت حركة قومية فارسية يشترك فيها الشعب الفارسى كله لبعث القومية الفارسية، وليس من السهل القضاء على الحركات الفكرية الشيعية فى جولة أو جولات، لأن الأفكار تظل كامنة فى أذهان الشعب، ويتجمع الناس حولها مرة أخرى، وهذا ما حدث فى فارس، فقد ظلت نحو خمسة قرون منذ أن أسسها الشاه إسماعيل الصفوى سنة ٩٠٧هـ، تواجه أخطار الأوزبك السنة من الشرق فى أفغانستان والعثمانيون السنة أيضاً فى الغرب، وظلت أيضاً منذ أن تأسست فيها الأسرة الصفوية، وكأنها فوق بركان، يهدأ أحياناً ويثور أحياناً أخرى، فيحدث الانقلاب والعنف فى حياة الناس، لتغيير الأوضاع الجائرة، والحكام المستبدين الخاضعين لأطماعهم أحياناً، وللاستعمار أحياناً أخرى، وفى غضون ذلك أصبح علماء المذهب الشيعى الجعفرى فى فارس قوة سياسية قادرة على أن تعلن تمردها وثورتها على السلطة القائمة، وكانت ثورتهم ومازالت ذات مضمون اجتماعى، لأنها تحارب فساد الحكم القائم والأطماع الأجنبية فى بلادهم، ومن ثم فإن تاريخ إيران الحديث والمعاصر ملىء بالثورات العنيفة والمقاومة الضارية ضد الحكام والدخلاء.

ويجب علينا أن نتناول بشيء من التفصيل، التعاليم التى ساعدت على ظهور هذه المقاومة المتصلة، التى أصبح يمتاز بها الشعب الإيرانى، لكى نستعين بها على فهم الأوضاع الحاضرة.

ويتلخص مذهب هذه الجماعة الشيعة، فى أنهم يقولون بأن النبى عليه الصلاة والسلام قد اختار قبل وفاته على بن أبى طالب خليفة له، لكن أبا بكر وعمر وعثمان تمكنوا من الوصول إلى الخلافة قبله، وعلى الرغم من وصول على إلى الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان، إلا أن الأمويين ظلوا يناوئون خلافة على مناوأة انتهت باستشهاده واستشهاد ابنه الحسين بن على عام ٦١هـ، عند كربلاء بالعراق، وتم الأمر للأمويين، ونقلوا عاصمة الخلافة الإسلامية إلى دمشق فى سنة ٤١هـ.

ويقول شيعة إيران أن سلطة الخلافة الأموية (٤١-١٣٢هـ)، والخلافة العباسية بعد ذلك (١٣٢- ٦٥٦هـ)، ليست شرعية، إذ أن السلطة الشرعية على المسلمين فى هاتين الفترتين كان من المفروض أن تكون فى أيدى الأئمة من نسل على بن أبى طالب، عن طريق ابنته فاطمة الزهراء الذين هم أولى بالخلافة، ويبلغ عدد هؤلاء الأئمة اثنى عشر أولهم على بن أبى طالب، ويدعى الشيعة بأن الإمام الثانى عشر، وهو محمد المهدى ٢٧٠هـ (٨٨٣م)، قد اختفى وسوف يعود فى الوقت المناسب، وتلت اختفاء الإمام فترة كان فيها نواب الأئمة يمثلونهم(١)، وعرف هذا العهد بعهد الوكالة عن الأئمة،

(١) محمد حسنين هيكل، مدافع آيات الله، الطبعة الأولى، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٢هـ، ص١٠٩.

وبعد وفاة الوكيل الرابع بدأ عهد الاحتجاب الكبير، والوكالة العامة أى وكالة جميع علماء الدين عن الإمام المختفى، إعمالا بقول جعفر الصادق، الإمام السادس (٨١- ١٣٩هـ)، أن كل من يتولى القضاء بين المسلمين والاجتهاد، يعتبر وكيلا عنه، ولما كان جعفر الصادق هو مؤسس الفقه الشيعى، فإن شيعة فارس يسمون بالجعفرية، وعلى ذلك فإن علماء الشيعة وما يسمون بالمجتهدين، يؤدون دور الوكالة عن الإمام المحتجب حتى يظهر، ومن ثم فهم يقومون بأعمال الإمام نفسه، والإمام فى نظرهم معصوم، وهذه العصمة لا تمتد إلى المجتهدين(١).

وقد تضافرت عدة عوامل لتعميق الخلاف بين السنة والشيعة فى القرون الأولى للإسلام، فبعد مقتل على والحسين، تفرق أبناؤه وأصبحوا عرضة للاضطهاد الشديد، حتى أن الخلفاء الأمويين جعلوا محك الإيمان فى بعض الأحيان، أن يسب المرء علياً وأسرته، والفشل فى هذا الإختبار عقوبته الموت، ولكى يتحاشى الشيعة هذا المصير لجأوا إلى مبدأ (التقية)، والذى يعنى عندهم أنه من الشرعى أن يظهر الإنسان غير ما يبطن إذا ما وقع فى يد العدو، أو إذا وجد حياته فى خطر أكيد، إلى أن أعلن الخمينى مؤخراً أنه لم يعد الشيعى فى حاجة أن يبطن غير ما يظهر، وألغى هذا المبدأ من حياة الشيعة، وأن الإيرانيين وصلوا إلى مرحلة النضوج والاستقلال، تجعل

(١) انظر: ليونارد بايندر، الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط، تعريب خيرى حماد، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٦، ص٦٧- ٧٧.

هذا المبدأ الذى كثيراً ما أساءوا تطبيقه فى الماضى، لا لزوم له على الإطلاق(١)، لأنها لاشك أضعفت معارضتهم، ولعل الذى دفع الخمينى إلى إلغائها هو أن بعض الشيعة غلا فى معناها، حتى أصبحوا يهربون من المسئولية، ومن المجاهرة بقول الحق، خوفاً من السلطان، مما ليس بموجود فى تاريخ نضال الشيعة.

ويقول الأستاذ أحمد محمد شاكر «أما ما نسب إلى الشيعة الإمامية من الغلو فى التقية، فما نظن كله صحيحاً، بل لعل أكثره مما عرى المسلمين من الضعف فى القرون الأخيرة، وبعضه ما لقى متقدموهم من شدائد قد يضعف عن حملها بعضهم، ومن أقدم أقوال أئمتهم فى ذلك قول الشريف الرضى (٤٠٦هـ) «... وقال بعضهم: معنى ذلك أن يكون المؤمن بين الكفار وحيداً، أو فى حكم الوحيد، إذا كان قليل الناصر، غالب المظاهر، والكفار لهم الغلبة والكثرة والدار والحوزة، فمباح له أن يخالقهم بأحسن خلقه، حتى يجعل الله له منهم مخرجاً، ويتيح له فرجاً، ولا تكون التقية بأن يدخل معهم

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص١١١.

وقال أصحاب أبى حنيفة «التقية رخصة من الله تعالى وتركها أفضل، فلو أكره على الكفر فلم يفعل حتى قتل، فهو أفضل من أظهر»، ورفضها ابن حنبل، وقال الرازى «إنما تجوز التقية فيما يتعلق بإظهار الحق والدين، وأما ما يرجع إلى الغير كالقتل والزنا وغصب الأموال وغيره، فغير جائز البته»، انظر: تعليق الأستاذ أحمد محمد شاكر على مادة التقية فى دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية.

فى انتهاك محرم، أو استحلال محرم، بل التقية بالقول والكلام، والقلب عاقد على خلاف ما يظهر اللسان»، ثم قال «وقد ذهب المحققون من العلماء إلى أن من أكره على الكفر فلم يفعل حتى قتل، أنه أفضل ممن أظهر الكفر بلسانه، وإن أضمر الإيمان بقلبه»(١).

فهذا وغيره يؤيد ما ذهبنا إليه من تبرئة الأئمة من الشيعة من عار هذه التهمة التى ألصقت بهم، وإن أخطأ من أخطأ من علمائهم أو من عامتهم، لا يجيز أن ينسب إلى فرقتهم وشيعتهم(٢).

وأخيراً فإن لدى شيعة إيران ارتباط عضوى بالتقاليد الثورية الإسلامية، أى بعنصر العدالة الاجتماعية فى تعاليم الرسول والسعى نحو تحقيقها، حتى لو أدى ذلك إلى معارضة السلطة السياسية والاستشهاد، كما استشهد الحسين بن على فى كربلاء والاقتداء به.

ولقد تحقق لشيعة فارس الأمل الذى ينشدونه فى فارس، وتكونت لهم دولة بفضل كفاح (إسماعيل الصفوى)، وصمدت دولتهم أمام هجمات السنة، من الشرق ومن الغرب كما سلف أن شرحنا، وبعد وفاة الشاه إسماعيل سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٤م)، خلفه ابنه (طهماسب الأول) الذى تولى العرش وهو فى سن العاشرة، وامتد حكمه اثنتين وخمسين سنة (٩٣٠- ٩٨٤هـ/ ١٥٢٤- ١٥٧٦م)، وفى عصره

(١) الشريف الرضى، حقائق التأويل، طبعة النجف، العراق، ١٣٥٥هـ، جـ٥، ص٧٤- ٧٥.

(٢) انظر: تعليق الأستاذ أحمد محمد شاكر على مادة «التقية» فى دائرة المعارف الإسلامية، مرجع سبق ذكره.

سقطت بغداد فى يد العثمانيين سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م)، ودخلها السلطان العثمانى سليمان القانونى فى تلك السنة، ووقعت تبريز أكثر من مرة تحت الاحتلال، وإزاء تعرضها بهذا الشكل لخطر الغزو العثمانى، نقل طهماسب العاصمة إلى (قزوين)(١).

وكادت الدولة الصفوية تعود إلى رحاب أهل السنة والجماعة فى عهد إسماعيل الصفوى الثانى (٩٨٤- ٩٨٥هـ)، الذى لم يدم كثيراً، فقد تولى السلطة بعد وفاة والده طهماسب سنة ٩٨٤هـ (١٥٧٦م)، ونظراً لأن إسماعيل الثانى كان مكروهاً من والده، الذى سجنه زهاء ربع قرن من الزمان، فقد خرج من السجن إلى العرش وقلبه يفيض بالحقد، فشرع يقتل ويسمل عيون كل الذكور من أفراد البيت الصفوى، ممن يحتمل تآمرهم ضده، كما قتل كثير من ضباط وعلماء القزلباش الذين شغلوا مناصب هامة فى عهد والده، وأبعد عن دوائر بلاطه بعض العلماء المتعصبين للمذهب الشيعى، وصادر كتبهم وأبطل عادة لعن أبوبكر وعمر وعثمان على المنابر، وأيقن القزلباشية ميله الشديد إلى السنة، وكراهيته للشيعة، فتآمروا عليه ودسوا له السم فى الشراب فمات فى نوفمبر من سنة ١٥٧٧م (٩٨٥هـ)، أى بعد حوالى عام من توليه السلطة فى فارس(٢).

وأعقبت وفاته فترة من الحرب الأهليـة، استمرت حتى سنة

---

(١) د.بديع جمعة وزميله، تاريخ الصفوية وحضارتهم، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص١٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٤- ١٦٢.

٩٩٧هـ (١٥٨٨م)، وهى السنة التى آل العرش الصفوى فيها إلى عباس الأول حفيد طهماسب، وقد استمر فى الحكم حتى سنة ١٠٣٨هـ(١)، وفى عصر عباس بلغت الدولة الصفوية الذروة فى القوة والتوسع، وتخطى عباس الفترة الصفوية الأولى التى سبقته، والتى كانت الدولة الصفوية تتطور فيها ببطء ومعاناة، وعبر بالفرس إلى عصر قام فيه بتنظيم الدولة على أسس قوية، كان من أهمها إنشاء جيش من الغلمان أو القولار (أى العبيد)، وهم فى الغالب من أسرى إقليم جورجيا الذين تحولوا إلى الإسلام، وكان هدف عباس هو مقاومة القزلباش بهؤلاء الجنود الجدد، لأن القزلباش كثرت مشاغباتهم له وخروجهم عليه.

وأدرك عباس الذى كان يكافح فى الداخل والخارج، أنه يجب أن يهادن العثمانيين، فعقد معهم معاهدة فرهاد باشا عام ٩٩٩هـ (١٥٩٠م)، والتى تنازل بمقتضاها عن مساحات شاسعة من الأراضى الفارسية للعثمانيين، منها أذربيجان وجورجيا وكردستان(٢)، وإزاء هذا التطور نقل عاصمة دولته من قوين إلى الداخل فى أصفهان سنة ١٠٠٧هـ (١٥٩٨م)، ووجه همته إلى مقاومة الأوزبك السنيين فى الشرق، وكانت قبائل الأوزبك تعيش أصلا فى المناطق الشمالية الشرقية من فارس، وتحولت من الوثنية إلى الإسلام على المذهب

(١) ستانلى لين بول، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ترجمة د.أحمد السعيد، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩، جـ٢، ص٥٤٥.

(٢) د.محمود صالح منسى، معالم تاريخ الشرق الإسلامى، ص٥١.

السنى، وبدأت تلعب دوراً هاماً فى منطقة أفغانستان على حساب الدولة التيمورية، وبسطوا سيطرتهم على هيرات وخراسان، ووقفت وجهاً لوجه أمام الصفويين فى فارس، فكان الصراع على الأرض وعلى المذهب، وهدأت الأحوال فى الشرق بوقوع منازعات أسرية بين الأوزبك، وفى سنة ١٠١٤هـ وجه عباس اهتمامه إلى العثمانيين غرباً واسترد العراق منهم.

ولقد زاد النشاط الدبلوماسى والتجارى فى عهد عباس الأول فى فارس، واستفاد عباس من المنافسة الانجليزية والبرتغالية، للسيطرة على الخليج العربى، فطلب من بريطانيا المعونة، للتخلص من نفوذ البرتغاليين فى هرمز، فأمده الانجليز بالمعونة للتخلص من البرتغاليين سنة ١٠٣٢هـ (١٦٢٢م)، ومن هنا بدأت العلاقات مع الانجليز، وبدأ التعاون فى شتى المجالات الاقتصاددية والتجارية مع بريطانيا، كما فتح للهولنديين وكالة تجارية فى بندر عباس.

وبعد موت عباس سنة ١٠٣٨هـ، دخلت إيران فى دور الضعف والتدهور، وتعرضت للغزو من الأوزبك فى أفغانستان، وتمكن الأفغان من القضاء على الدولة الصفوية سنة ١١٣٥هـ.

فترة الحكم الأفغانى

دخلت فارس فى الفترة من سنة ١١٣٥هـ حتى سنة ١٢٠٩هـ، تحت السيطرة الأفغانية، وذلك عندما زحف محمود بن

ويس(١) الأفغانى على فارس ودخل أصفهان وتنازل له الشاه حسين الصفوى عن الحكم، وانتهت بذلك الأسرة الصفوية كحاكمة لفارس، وفى جو من الأطماع العثمانية فى الغرب، والروسية فى الشمال، والانجليز فى الجنوب، والمطالبين بعرش فارس فى داخل البلاد، استطاع الحكم الأفغانى لفارس أن يستمر حتى سنة ١٢٠٩هـ، وحاول الأفغان أن يتغلبوا على أطماع العثمانيين بحكم أنهم سنة مثلهم.

وأهم ما يجب ملاحظته هنا، هو أنه على الرغم من سيطرة الأفغان السنية على إيران هذه الفترة، إلا أن وجه إيران الشيعى الذى تكون على يد الصفويين لم يتغير، وظلت إيران دولة شيعية.

عهد الأسرة القجارية ١٢٠٩ - ١٣٤٤هـ

أصل الأسرة القجارية من (جرجان)، من قبائل التركمان فى شمال شرق إيران، وبدأ نفوذهم فى الظهور عندما حاولوا احتضان ورثة العرش الصفوى فى فترة الحكم الأفغانى، وشيئاً فشيئاً تمكنوا من السيطرة على الأمور ففى فارس لصالحهم فى سنة ١٢٠٩هـ، وطردوا الأفغانيين من البلاد، وفى عصرهم نقلوا عاصمة إيران إلى (طهران)، شأنهم فى ذلك شأن كل الحكام الجدد، يميلون لاختيار عواصم جديدة لهم، بالإضافة إلى أن طهران كانت قريبة من (جرجان) موطنهم الأصلى، ومنه يأتى العون والمدد لهم، وطهران أيضاً موقعها مناسب من حيث أنها تتوسط المقاطعات والأقاليم

(١) هو من عائلة الأفغان التى تسمى أحياناً غلجيلر والتى تنتمى إلى أصل تركى، ستانلى لين بول، مرجع سبق ذكره، ص٥٤٦.

الشمالية، أكثر مناطق فارس خصوبة ومن ناحية كثافة السكان.

ولقد صادفت فارس فى عصر القجار كثيراً من المشاكل والأزمات الخارجية والداخلية، أما بالنسبة للمشاكل الداخلية فتتمثل فى ثورات أغاخان والبابية والبهائية، وحركات زعماء القبائل والأمراء الطامعين فى العرش.

أما ثورة أغا خان (١٨٣٨- ١٨٣٩م) التى قام بها فى كرمان متزعماً طائفة الاسماعيلية، الذين كانوا يعتقدون أنهم يستحقون أن يلعبوا الدور الرئيسى فى إدارة شئون البلاد وليس القجار، إلا أن أغا خان لم يستطع أن يحقق هدفه من الثورة، ففر إلى كراتشى سنة ١٨٤٣م، وإن كان الاسماعيلية استمروا فى الاعتداء على الأراضى الفارسية من قواعدهم فى الهند.

البابية والبهائية

وشهد النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى، انشقاقاً داخل الحركة الشيعية الإيرانية، ففى عام ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م) ادعى رجل يسمى (ميرزا على محمد الشيرازى) أنه على صلة مباشرة مع آخر إمام من أئمة الشيعة الاثنى عشر، الذى اختفى قبل ألف عام (٢٧٠هـ)، وادعى أيضاً أن عودة الإمام منتظرة، وأنه يمهد له الطريق، ولقب نفسه بالباب (باب الله)(*)، وتبعته بعض الأتباع

(*) لفظة الباب لفظة متداولة عند الصوفية بمعنى الوسيلة الموصلة إلى معرفة الحقيقة الإلهية، فيقال أنت بابى ومقصدى، وتبع الباب أناس تلقبوا بالبابيين.

سموا أنفسهم بالبابية، وكثر أتباع هذا الباب، وتملكتهم العصبية الدينية، واستولى عليهم شعور العقيدة المتوهج، فأصبحوا خطراً على الفكر الشيعى، ورأى فيهم رجال السلطة القجارية خطراً يهدد المجتمع الشيعى الإيرانى بالانقسام، فبدأوا فى تعقبهم ومحاولة القضاء عليهم.

وعارضها المجتمع الشيعى الإيرانى فى مجمله، لأنها ربطت تعاليمها -بطريقة ملتوية- باتجاهات الحضارة الغربية، فرفضت مشروعية (الجهاد)، وهذا أبان عن تبعيتها للاستعمار الذى يجاهد من أجل إبطال الجهاد، وعارضت الحدود التى شرعها الإسلام، وحرم الباب الختان (الطهارة)، ومنع المرأة من لبس الحجاب، ودعا إلى تحريم تعدد الزوجات، وبدأ فى إنشاء مدارس لنشر دعوته وحمل لوائها (١).

وزاد من تعقب السلطة لها أنها أخذت ترمى إلى أهداف سياسية، وفكر البابيون فى القضاء على الأسرة الحاكمة فى إيران، وإقامة مملكة بابية على أنقاضها، يكون على رأسها الباب، وبذلك تشابكت الأهداف الدينية والسياسية مع بعضها، وتقاربت تقارباً يشبه الالتحام، وألقت السلطات القبض على الباب فى أوائل عام ١٨٥٠م، وأعدمته مع بعض أتباعه فى ٨ يوليو عام ١٨٥٠م(٢).

(١) باول شمتز، الإسلام قوة الغد العالمية، ص١٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٧.

ذكر د.عبدالصبور مرزوق أن إعدامه تم فى سنة ١٨٤٩م (١٢٦٥هـ)، انظر: الغزو الفكرى أهدافه ووسائله، ص٧٨.

واستمرت الحركة بعد مقتل الباب فى خليفته الذى عينه قبل إعدامه، وهو ميرزا يحيى، واستمرت قوتها أيضاً فى مناوأة السلطة، ودبروا مؤامرة فى سنة ١٨٥٢م لقتل الشاه ناصرالدين غير أنها فشلت، مما جعل السلطة تزداد فى تعقبهم فى كل مكان للقضاء عليهم، وخرج (ميرزا يحيى) وأخوه غير الشقيق وهو (ميرزا حسين على المازندرانى)، وهو أكبر أولاد الميرزا عباس نورى وزير الدولة الإيرانية، خرج الاثنان خارج إيران عندما اشتدت الحملة عليهما، واستقرا فى بغداد وكانا على اتصال بأتباعهما فى إيران، وعندما شعر الشاه بقوة البابية المهاجرة وتأثيرها فى داخل المجتمع الإيرانى، اتصل بالباب العالى لإخراجهم من العراق، فاستدعاهم السلطان إلى استانبول ونفاعم فى أدريانوبل فى غرب تركيا.

وفى المنفى حدث انشقاق فى البابية، فقد أعلن ميرزا حسين على المازندرانى أن الإمام الثانى عشر عاد فى شخصه، وروح الإمام حلت فى جسمه، حتى أصبح الإمام نفسه، وصدقه الناس واتبعوه، ووقعت بينه وبين أخيه مشاحنات وصلت إلى العداوة، فتدخلت الدولة العثمانية فى حسم النزاع، فأرسلت ميرزا يحيى الذى سمى نفسه «صبح أزل» يعنى «الفجر الخالد» هو وأتباعه إلى قبرص، بينما رحل أخوه حسين الذى أطلق على نفسه (بهاءالله) مع أتباعه إلى فلسطين، واتخذ من مدينة عكا مستقراً له.

ومات ميرزا يحيى فى قبرص صغير السن، وتفرق أتباعه،

أما (بهاءالله) فقد مكن لنفسه فى منفاه، وظل على اتصال بأتباعه فى إيران حتى وافته المنية فى سنة ١٨٩٢م، ويقدر (باول) أتباعه فى إيران عند وفاته بحوالى مليون(١).

وبعد وفاة بهاءالله (حسين على) حمل ولده الأكبر (عبدالبهاء) مهمة الدعوة، وزاد فى مبادىء البهائية، ووسع فى دائرتها عالمياً، ودعا إلى اعتبار الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) مصدر توجيه بجانب القرآن، وأسس طائفة عالمية تدعو إلى التسامح بين الأديان الثلاثة، ومركزهم الرئيسى فى أمريكا، وأقيمت مراكز للطائفة فى فرنسا وانجلترا والمانيا، ونالت هذه الحركة عطف أوربا وأمريكا.

ومن العجب أن تجد عطفاً من الأسرة البهلوية فى عصر رضا بهلوى وعصر ابنه محمد رضا، فأصبح لها نفوذ كبير فى الحكومة والجيش، وخصوم البهائية فى إيران يتهمونهم بالارتداد عن الإسلام واتصالهم بالصهيونية العالمية والاستعمار، ويقولون أن بهاءالله أنقذه من الموت شنقاً فى إيران قنصل روسيا القيصرية وقنصل انجلترا فى ذلك الوقت، وأحد أسباب ثورة الخمينى وشيعة إيران على الشاه، حمايته للبهائية ونفوذهم الواسع فى الجيش والإدارة والحكم، ويقولون بأن (أمير عباس هويدا) رئيس وزراء الشاه لنحو ١٣ سنة ينحدر من أسرة بهائية، وأنه هو شخصياً بهائى والبهائيون لا ينكرون بهائيته(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٩.

(٢) انظر: الحوادث، عدد ١١٥٩، ١٩ من يناير سنة ١٩٧٩م.

ولعل أكبر دليل على انحراف البابية والبهائية موقف المبشرين والمؤتمرات التبشيرية منهما، ففى مؤتمر لكنو بالهند سنة ١٩١١م أعد تقرير عن أوضاع فارس الإسلامية، وتلى فى المؤتمر، وكان الذى أعده القسيس أسلسيتن الذى مضى عليه ٢٣ سنة فى فارس، فوصف الحالة فى فارس، وقال «إن عصر الحرية الدينية سيزيد من عدد البابيين والبهائيين، وأنه يوجد ألوف من الفارسيين ينبذون الإسلام» (١).

وبجانب الانشقاقات الدينية والمذهبية فى فارس زادت الأطماع الاستعمارية فى فارس، وخاصة الروسية والانجليزية، وأصبحت على عهد الأسرة القجارية تهدد استقلال البلاد، فقد كان لروسيا أطماعها فى شمال فارس، وتدخلت بريطانيا ليكون لها مركزها فى فارس الجنوبية، بحجة الدفاع عن الهند فى وجه روسيا التى تحسدها على امتلاك الهند، وفى القرن الثالث عشر الهجرى (١٩م) حقق الروس كثيراً من الانتصارات فى فارس، ففى سنة ١٢٢٨هـ (١٨١٣م) تنازل الفرس لهم عن عدة مقاطعات منها (جورجيا)، كما تعهد الفرس بعدم الاحتفاظ بسفن لهم فى بحر قزوين (الخزر)، وتعهد الشاه فى سنة ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م) بألا يسمح لشركات أجنبية بمد خطوط حديدية أو شق قنوات إلا بعد الحصول على موافقة الروس(٢).

(١) الغارة على العالم الإسلامى، ص٧٥.

(٢) محمود صالح منسى، معالم تاريخ الشرق الإسلامى، ص٦٠.

وفى نهاية عصر الأسرة القجارية، قويت تنظيمات رجال الدين ضد الدولة، وطالبت بإصلاحات شتى، وهم الذين اعتمدت عليهم الدولة فى بدايتها، وتوجد ست مراتب لرجال الدين: **المرتبة الأولى** هى مرحلة طالب العلم، **والمرتبة الثانية** مرتبة المجتهد عندما ينهى فترة الدراسة ويتخرج، وهى تعنى حرفياً شخص أجهد نفسه كى يكون رأياً، **والمرتبة الثالثة** مبلغ الرسالة، **والمرتبة الرابعة** حجة الإسلام، **والمرتبة الخامسة** «آية الله»، **والمرتبة السادسة** والأخيرة «آية الله العظمى»، الذى يصبح بشكل آلى «مرجعية» أى شخصاً يرجع إليه فى كل شيء(١)، وحسب التقاليد ليس هناك أكثر من خمسة أشخاص فى مرتبة «آية الله العظمى» فى نفس الوقت، ولا يمكن القبض عليهم طبقاً لدستور عام ١٩٠٦م.

ورجال الدين فى فارس لهم موارد مالية ضخمة تأتيهم من الشعب، فعلى الشيعى أن يدفع مبلغاً كبيراً من المال من دخله السنوى أو الشهرى، يصل إلى خمس الدخل إلى آية الله أو من يمثله فى مدينته أو قريته، لينفق منها رجال الدين على المساجد والفقراء، وما يراه رجال الدين من أمور، ويعتقد الشيعى فى إيران أن رزقه مرهون بأداء هذه الضريبة، فإن شح بها أجدبت عليه السبل أو أصابه المرض أو حلت به الرزايا، تلك عقيدة أساسية عند الشيعة فى إيران، وهذه إحدى نقاط الخلاف الهامة بين رجال الدين الشيعة

---

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص١١٢.

والسنيين، وأعنى بها وضع الشيعة المالى المستقل عن الدولة، ففى البلاد السنية تستولى الدولة على الأوقاف والهبات من الناس، وتدفع لرجال الدين والعلماء مرتبات(١).

وفرق شاسع بين الوضعين، فى النظام الشيعى لا تستطيع الدولة أن تمنع عن رجال الدين هذه الأموال التى تأتيهم رغداً من كل مكان، ومن ثم يتمتعون بحرية الرأى، ولا يخشون صولة الحكام وتخويفهم فى مجال الرزق بقطع مرتباتهم، وعلى العكس من ذلك، فإن الحكام فى البلاد السنية بما لهم من هيمنة على الأوقاف والخيرات، فإنهم يستطيعون أن يرهبوا رجال الدين، ويمنعوا عنهم مرتباتهم، وسوف نرى فيما يلى أثر هذه القاعدة الاقتصادية لرجال الدين فى مجال نجاح الثورة الإسلامية مؤخراً.

وكان أهم حكام الأسرة القجارية ناصر الدين شاه (١٢٦٥- ١٣١٤هـ)، وفى نهاية عصره قويت حركة المعارضة الدينية ضده، وطالبت بإصلاحات دستورية، وقوى هذه الحركة وأعطاها قبساً من نوره ثائر الشرق الأول جمال الدين الأفغانى، فقد أثار جمال الدين الرأى العام فى فارس ضد ناصر الدين شاه، لأنه فتح بلاده للانجليز والرووس ويخضع لهم، ومع أن الشاه طرده من البلاد، إلا أن حركة المعارضة استمرت ضده، إلى أن قتله شاب من رجال الدين سنة ١٣١٤هـ، ومن أشياع جمال الدين الأفغانى، وكان جمال الدين يقيم فى تركيا فى هذه اللحظة، وعندما اعترف الجانى بأنه تلميذ جمال

(١) المرجع السابق، ص١١٢- ١١٣.

الدين، طلبت الحكومة الفارسية من السلطان عبدالحميد تسليم جمال الدين إليها لأنها اعتبرته الفاعل غير المباشر، إذ أن أفكار الجانى مستمدة منه، وعلى الرغم من أن عبدالحميد كان متبرماً من جرأة الأفغانى وضاق به ذرعاً فى عاصمة دولته، إلا أنه لم يسلمه وظلت المفاوضات مستمرة، غير أن أعوان عبدالحميد دسوا للأفغانى السم فمات قبل أن تنتهى محادثات تسليمه، وسلمت الدولة العثمانية ثلاثة من تلاميذه بدلا منه إلى إيران وتم إعدامهم(١).

وانتصر رجال الدين فى أول مواجهة بينهم وبين الشاه فى العصر الحديث، وكان مصرع ناصرالدين الذى حكم من سنة ١٢٦٥هـ حتى سنة ١٣١٤هـ، أى نحو خمسين سنة، سبباً فى انهيار قواعد حكم الأسرة القجارية، وعلى الرغم من أن خلفاء ناصرالدين حاولوا عدة محاولات يائسة لإنقاذ عرشهم، إلا أن ذلك لم يجد، فقد أصدروا دستوراً فى سنة ١٩٠٦م (١٣٢٥هـ) اضطر إلى وضعه شاه إيران «مظفرالدين» (١٣١٣ - ١٣٢٥هـ)، أحد ملوك القجار بعد ثورة عارمة ضد استبداد الأسرة وبذخها وترفها، ونقمة على التدخل الأجنبى بها، الذى قسم البلاد إلى منطقة نفوذ روسية فى الشمال، ومنطقة نفوذ انجليزية فى الجنوب، واضطر الشاه فى سنة ١٣٢٥هـ إلى الرضوخ لمطالب الشعب ومنح البلاد دستوراً، واجتمع أول مجلس نيابى فى السنة نفسها، التى قامت فيها الثورة وهى سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٦م)، ورغم هذا الرضوخ للثوار، إلا أن الفوضى

(١) باول شمتز، الإسلام قوة الغد العالمية، ص١١١.

استمرت حتى نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣هـ (١٩١٤)(١)، وأهم ما فى دستور سنة ١٣٢٥هـ هو أنه نص على تكوين لجنة مراقبة التشريعات، للمحافظة على الطابع الإسلامى لإيران، ومهمة اللجنة مراقبة القوانين فى البلاد، ومدى مطابقتها للشريعة الإسلامية، وهى أشبه بالمحكمة الدستورية العليا التى تراقب انطباق القوانين على دستور البلاد وفلسفتها العامة، وهى موجودة فى كل النظم الديمقراطية الحقيقية فى أوربا وامريكا.

ومما هو جدير بالذكر، أن هذا الإنجاز يعد الأول من نوعه فى العالم الإسلامى على حد علمنا، فلم يحدث أن تكونت مثل هذه اللجنة فى أى قطر من أقطار العالم الإسلامى، مما سمح للقوانين الوضعية الدخيلة بالتسرب إلى النظام القانونى والقضائى فى البلاد الإسلامية، فى غفلة من شعوبها.

وقد حاول الشاه محمد على (١٣٢٥- ١٣٢٦هـ) إلغاء هذا الدستور بمعاونة روسيا، وبالاعتماد على الفرقة القوقازية التى يقودها ضباط روس، إلا أن المحاولة باءت بالفشل، وتنازل الشاه عن العرش فى سنة ١٣٢٦هـ، واستمر الضغط الانجليزى والروسى يتزايد فى البلاد، ورفض رجال الدين أن يرضخوا، وحرضوا الشعب على استمرار المقاومة، وحاول الألمان الاستفادة من هذه الأوضاع، وكانت إيران ميداناً للصدام بين الألمان والأتراك من جهة، والروس

(١) محمد شاكر، إيران، من مطبوعات مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م)، ص٥٦- ٥٧.

والانجليز من جهة أخرى، وخرجت فارس من الحرب مرهقة، وفى حالة سيئة من الفوضى فى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية، وحاول الانجليز تكبيلها بمعاهدة فى سنة ١٢٣٨هـ (١٩١٩م)، تجعلها تحت حمايتهم، ولكن المجلس النيابى رفضها، ورفضتها الوزارة التى كان يرأسها ضياءالدين الطباطبائى فى سنة ١٩٢١م(١).

أما الروس الذين كانوا فى وضع غير حسن، بعد قيام الثورة الشيوعية، وحركات الانفصال والتمرد، التى قامت فى كل مكان من بلادهم، فقد رغبوا أن يحسنوا علاقاتهم بجيرانهم، حتى لا يلقى الانفصاليون أى تأييد منهم، وحتى لا يلقى الناقمون على الشيوعيين أية مساعدة، وهذا ما جعلهم يتنازلون عن ديونهم وامتيازاتهم التى كانت لهم، وإن كانوا قد احتفظوا بالمصايد فى بحر الخزر.

ورضى الشاه أحمد بن محمد على (١٣٢٦- ١٣٤٣هـ) بالمعاهدة الانجليزية السالفة، وبقيت موافقة المجلس عليها معلقة، مما زاد من معارضة رجال الدين فى إيران، وسعوا للقضاء عليه، وحاولت روسيا فى هذا الجو أن تستفيد من العداء.

الثورة الشيوعية فى روسيا تلوح بالحرية للفرس

كانت روسيا بعد قيام الانقلاب الشيوعى بها، قد وجهت بياناً إلى العالم الإسلامى للتحريض ضد الدخلاء الأجانب والاستعمار

(١) د.محمود صالح منسى، مرجع سبق ذكره، ص٦٤.

الغربى فى العالم الإسلامى، ومما جاء فى نداء الحكومة الروسية بتاريخ ٢٤ من نوفمبر سنة ١٩١٧م:

«لقد سقطت ممالك المغتصبين والقراصنة الرأسماليين، وأن الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين الاستعماريين، يا مسلمو روسيا، يا من ضربت مساجدكم، وهدمت بيوت عبادتكم، نعلن لكم أن عقائدكم الدينية وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ستصبح ابتداء من اليوم مصونة، لن تمتد إليها يد آثمة، أقيموا حياتكم القوية فى جو الحرية دون أن يعوقها عائق، فلكم الحق فى ذلك».

ثم خاطب الروس المسلمين خارج روسيا، بقولهم:

«يا مسلمو الشرق، يا إيرانيون، يا أتراك، يا عرب، يا من مارس المغتصبون الاستعماريون القادمون من أوربا، التجارة قروناً بأرواحكم وأموالكم وحرياتكم وأوطانكم، يا من قسم دياركم، هؤلاء النهاب الذين أشعلوا الحرب العالمية، نعلن لكم:

- أن معاهدات القيصر المخلوع السرية، التى نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة، قد مزقت ومحيت من الوجود، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضى دولة أجنبية.
- إن معاهدة تقسيم إيران قد مزقت وأزيلت من الوجود، فبعد أن تنتهى العمليات العسكرية، سنسحب القوات الروسية مباشرة من إيران، وستكفل الحرية للشعب الإيرانى، ليقرر مصيره السياسى

عن طريق استفتاء شعبى حر.

- إن معاهدة تقسيم تركيا واغتصاب أرمينية قد مزقت ومحيت من الوجود، وبعد أن تنتهى العمليات الحربية ستكفل الحرية أيضاً لشعب أرمينيا ليقرر مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر (١).

وبهذا الأسلوب الماهر البارع الخداع، خاطب الشيوعيون العالم الإسلامى، فى وقت كانت انجلترا وفرنسا تقتسمانه، وتحاول دول أوربا فرض الوصاية على كثير من أجزائه، وكان الهدف من وراء هذا النداء ليس حرية الشعوب الإسلامية، بقدر ما ترغب روسيا أن تثور هذه الشعوب ضد الدول الغربية، التى وقفت ضد الثورة الروسية الشيوعية وناصبتها العداء، وقد أراد الروس بذلك عقد تحالف مع المسلمين لمقاومة الدول الرأسمالية.

وقد نشرت جريدة «أزفستيا» فى ١٠ من ديسمبر عام ١٩١٧م، أى بعد فترة وجيزة من نشر البيان السالف، برنامجاً مجدداً لسياسة الحكومة السوفيتية تجاه فارس، وعزز هذا البرنامج بخطاب من «تروتسكى» إلى السفير الفارسى فى بطرسبرج، ومما ذكره «تروتسكى» فى هذا الخطاب: التأكيد مرة أخرى على تنازل روسيا عن حقها فى المعاهدة الانجليزية الروسية التى عقدت فى ١٨ أغسطس عام ١٩٠٧م، والتى نص فيها على تقسيم فارس إلى منطقة نفوذ انجليزية وأخرى روسية.

---

(١) باول شمتز، مرجع سبق ذكره، ص٢٤١- ٢٤٢.

ولقد كان للبيان الروسى أثر قوى فى العالم الإسلامى، ففى تركيا وفارس وصف البيان بأنه (وثيقة الحرية)، إذا ما تحقق ما جاء فيه، وأثر النداء الروسى فى الفكر السياسى للعالم الإسلامى، وفتح الطريق أمام الروس فى هذه البلاد، وعلى إثر ذلك وضع الإيرانيون خطة لقيام اتحاد بينهم وبين تركيا، بهدف عمل رباط ثورى بين كل المسلمين، سواء كانوا فى مستعمرات انجليزية أو فرنسية أو إيطالية أو المانية أو هولندية أو غيرها(١).

وبدأت مرحلة جديدة من العلاقات الفارسية الروسية، وقد قوبل دخول الجيش الأحمر فى فارس بالترحيب فى بادىء الأمر، لأنهم اعتبروه مساعداً لهم ضد الانجليز، وفهموا أنه صديق وحليف يقف معهم ضد الاستعمار الانجليزى، ولكن اتضح للفرس أن هذا الجيش يحاول إشعال نار الثورة الشيوعية وبلشفة فارس، وبدأت مقاومة الروس.

وعليه فقد اعترف الروس بهذا الفشل، فكتبت صحيفة أزفستيا لسان الثورة الشيوعية تقول فى عام ١٩٢٠م:

«إن من الضلال أن نعتقد أن الثوار الفارسيين شيوعيون، وأنهم النموذج الذى يلتزم بقواعد ثورتنا الاشتراكية، فليس فى فارس عمال مصانع بل بلد زراعى متخلف، ولا ينبغى أن نحاول القيام بثورة لم توجد بعد الافتراضات المقدرة لقيامها، ولم يهيأ الجو لمثل هذا العمل، فنحن نحتاج إلى صداقة فارس لأن وراء هذا البلد تمتد مناطق

(١) المرجع السابق، ص٢٤٤.

نفوذ انجلترا، وازدياد النفوذ الروسى طبقاً لهذا المفهوم يعنى بالنسبة لرأس المال الانجليزى إجباره على مسالمتنا»(١).

وصول رضا خان إلى حكم فارس

ولقد اكتفت موسكو بتقديم المساعدات العسكرية إلى الثوار الفرس، وخاصة إلى الفرق القوقازية التى رعاها الروس من قبل، والتى أضحت فى عام ١٩٢٠م بقيادة (رضا خان) بعد انسحاب الضباط الروس منها، وأصبحت فى أيدى ضباط الصف الذى كان رضا خان أكثرهم طموحاً وذكاءاً، وكان فى درجة رقيب فى سنة ١٩١٧م، وقد عين وكيلا لقائد فرقة القوقاز عن طريق تدخل قائد القوات البريطانية فى إيران الجنرال «أدموند إيرونسايد»، لأن البريطانيين كانوا مهتمين بملء الفراغ الذى تركه الروس(٢).

وكان رضا خان من أصل ريفى(٣) وأمياً تماماً، وإن كان علم نفسه فيما بعد القراءة والكتابة بعد أن أصبح من كبار الضباط، وكان المجلس النيابى ورجال الدين مازالوا يعارضون الشاه والانجليز فى

(١) المرجع السابق، ص٢٥١.

(٢) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٤٦.

(٣) ولد رضا خان فى سنة ١٨٧٨م فى قرية «ألاشت» من إقليم مازندران شمال إيران، وكان جده مراد ممن عملوا فى جيش القجار، ووالده عباس كان رقيباً فى الجيش، وتوفى فى سنة ميلاد ابنه رضا، وأوصى بأن ينخرط ابنه فى الجندية أيضاً، انظر: د.عبدالسلام عبدالعزيز فهمى، تاريخ إيران السياسى فى القرن العشرين، القاهرة، ١٩٧٢، ص٤٢.

فرض المعاهدة الانجليزية التى سبق أن أشرنا إليها، وكان رضا خان قد صار قائداً للفرقة القوقازية (الحرس الامبراطورى)، فتحالف مع رجال الدين ونال رضاهم، ومن ناحية أخرى رتب أموره مع الانجليز من وراء رجال الدين للقضاء على آخر شاه من أسرة القجار، وتحرك رضا خان سنة ١٣٤٠هـ بفرقته العسكرية، وغير الحكومة فى طهران، ونصب نفسه وزيراً للدفاع وقائداً أعلى للجيش، ثم بعد ذلك رئيساً للوزراء، وألغى المعاهدة الانجليزية، وفى سنة ١٣٤٤هـ قرر المجلس النيابى إقصاء أحمد شاه قاجار عن الحكم، وفى نفس العام قررت جمعية تأسيسية بأن يعهد بالملك إلى رضا خان باسم رضا شاه بهلوى(١).

وسار رضا بهلوى على نهج كمال أتاتورك، وقد أقر فى السنوات الأولى من حكمه النظام والأمن، وألغى الامتيازات الأجنبية والاتفاق مع شركة البترول الانجليزية، وعقد اتفاقاً جديداً معها حصل فيه على شروط أفضل من السابقة، وأخضع القبائل، وعمل على توطين البدو، وافتتح كثيراً من المدارس، وأنشأ جامعة طهران سنة ١٣٥٤هـ، ووفق فى هذه الأشياء والأعمال السالفة(٢).

ولكنه أراد محاكاة كمال أتاتورك فى بعض الإجراءات

---

(١) اتخذ لقب «بهلوى» للأسرة التى كان يأمل تأسيسها، و«بهلوى» هو اسم اللغة التى كانت سائدة فى إيران قبل الإسلام.

(٢) محمد شاكر، إيران، مرجع سبق ذكره، ص٥٨- ٥٩.

انظر: عبدالسلام عبدالعزيز فهمى، مرجع سبق ذكره، ص٦٥- ٩٤.

العلمانية، ومنها إلغاء حجاب المرأة ودعوة النساء إلى الخروج سافرات إلى الشوارع، وألغى الأوقاف الإسلامية، كل هذه الأعمال فرضها ودعا إليها بقوة، وكان يقدم على كتابة الفارسية بالحروف اللاتينية ونبذ الحروف العربية، كما فعل مصطفى كمال بالتركية لكن عارضه رجل الدين بشدة، واستدعى بعض الخبراء الألمان فى هذا المجال، وسألهم عما إذا كان الشعب الفارسى سيتمكن فيما بعد من قراءة «الشاهنامة» للفردوسى، و«نهج البلاغة» للإمام على بن أبى طالب، وشعر «الشيرازى»، وغير ذلك من الكتب التى تشد قلوب الشيعة فى فارس ومن أعلى وأرقى آداب اللغة الفارسية، فرد عليه الخبراء الألمان بصدق لن يستطيع الشعب قراءة هذه الروائع فيما بعد إذا كتبت الفارسية بالحروف اللاتينية، لأن الشعب الفارسى سينفصل عن ماضيه وتراثه، كما انفصل الشعب التركى عن تراثه عندما كتب التركية بحروف لاتينية، وعند ذلك كف عن محاولته.

وانقلب حكمه إلى نظام استبدادى على الرغم من أنه احتفظ بالمجلس النيابى من الناحية المظهرية، كما أصبح يملك مساحات شاسعة من الأراضى، وكانت الهضبة الإيرانية تسمى حتى سنة ١٢٤٤هـ باسم فارس نسبة إلى ذلك الإقليم الواقع فى الجنوب الغربى منها، وفى تلك السنة أطلق عليها رضا بهلوى اسم إيران نسبة إلى الشعوب الآرية، التى سكنت الهضبة منذ أقدم العصور، وإبعاداً لها عن المسمى الذى يربطها بالإسلام والتراث الإسلامى.

وكان جشع رضا بهلوى أسوأ من جشع الحكام القجار الذين

سبقوه، فالتفت إلى ضياعهم واستولى عليها وعلى ثرواتهم، حتى زادت ثروته بطريقة واضحة وسريعة، وقد قدرت ممتلكاته عندما تنازل عن العرش سنة ١٩٤١ بألفى قرية يعمل فيها ربع مليون من الشعب الإيرانى.

وعندما وصل ابنه محمد إلى سن الزواج، عمد إلى مصاهرة أعظم الأسر الملكية فى البلاد العربية، وهى أسرة (محمد على) فى مصر، كوسيلة يثبت بها أن عائلته مقبولة ضمن مجموعة العائلات المالكة فى المنطقة(١)، وكان من اللازم تغيير الدستور الذى ينص على أن تكون زوجة الشاه إيرانية المولد، وتم الاتصال بالقاهرة فى هذا الشأن، ولعب على ماهر رئيس الديوان الملكى دوراً فى هذا المجال، ورحب بالفكرة ورأى فيها على ماهر وسيلة لنشر نفوذ مصر فى المنطقة كلها، ورحب الملك فاروق بالفكرة، وفى أوائل عام ١٩٣٨م وصل محمد رضا إلى القاهرة، واختيرت له أخت فاروق الأميرة فوزية لتكون زوجة له، ولكن هذا الزواج فشل فشلا ذريعاً، وفى سنة ١٩٤٨م تم الفراق بسبب مضايقات والدة الشاه محمد وأخته الشقيقة التوأم «الأميرة أشرف»، والتى كانت أقوى شخصية من أخيها الشاه، ولعبت فى عصر أخيها دوراً هاماً فى السياسة، وكان والدها رضا معجباً بشخصيتها الجادة وصلابتها، وكان يعتقد أنها

(١) محمد حسنين هيكل: مرجع سبق ذكره، ص٤٧.

تشبه شخصيته إلى حد كبير(١).

وعلى الرغم من أن رضا بهلوى استعان برجال الدين فى الوصول إلى الحكم، بيد أنه بطش بهم فى قسوة وعتف، فألقى بهم فى غيابات السجون، وفرق جموعهم فى بطون الريف وسفوح الجبال، وحاول أن يجردهم من سلاح المال الذى يعتمدون عليه فى معارضتهم للشاه، وحاول أن يمنع عنهم المال الطائل الذى يدفعه الشيعة لهم، ونجح جزئياً فى ذلك، وزادت نقمته عليهم لأنهم رفضوا تنصيبه ملكاً على البلاد(٢)، وظلوا يعارضونه وينقدون إجراءاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى إيران.

لكن حكم رضا بهلوى لم يسلم من القوى الكبرى، فلما قامت الحرب العالمية الثانية تقرب إلى المانيا لكى يخفف من أطماع روسيا وبريطانيا فى إيران، وصار لديه بعض الخبراء الألمان، فطلب الانجليز والروس من الشاه إقصاء هؤلاء الألمان باعتبارهم مصدر خطر كبير للحلفاء، وأيدت أمريكا هذا الطلب ولكنه رفض، فدخلت القوات الروسية البلاد من الشمال، والانجليز من الجنوب،

(١) يذكر محمد حسنين هيكل أنه التقى بها فى قصرها سنة ١٩٥١، وفى حديث طويل معها قالت: أنها سمعت والدها بنفسها يردد محتجاً على المقادير «بأن الطبيعة لابد وأن تكون قد خلطت الأمور فى رحم زوجته إذ كان يجب أن تكون أشرف هى الولد، ومحمد رضا هو البنت»، المرجع السابق، ص٤٩.

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمى، مرجع سبق ذكره، ص٥٥.

واحتلتا البلاد، وأيدت الولايات المتحدة الأمريكية هذا الاحتلال، وطلب الحلفاء من رضا بهلوى التنازل عن العرش لابنه محمد، وتم ذلك فى يونيو عام ١٩٤١م، وطلبوا منه مغادرة البلاد(١).

وطلب الشاه مقابلة ابنه قبل رحيله (إلى جنوب أفريقيا لكى يظل فى قبضة الحلفاء)، وكانت الدموع فى عينى رضا بهلوى وهو يقول لابنه «هل تستطيع الاحتفاظ بالعرش؟»، ولم يقل الابن شيئاً، واستمر الأب فى كلامه «أنا لم أفشل فى الاحتفاظ بالعرش، لكن قوى أقوى منى أحكمت الحصار حولى، لقد احتفظت لك بالعرش، فهل تستطيع أن تحتفظ به؟»، ولم يملك الابن إلا أن يومىء برأسه موافقاً.

وأهم شىء قاله رضا بهلوى لابنه عندما خاطبه بكلمات تدل على أنه هو وغيره من الحكام صنيعة الدول الاستعمارية لا حول لهم ولا قوة فى بلادهم، ومن الأفضل عدم مقاومة الاستعمار، وطلب منه إحناء الرأس له عندما قال «انصت يا بنى، لا تقاوم فنحن والعالم أجمع نواجه عاصفة أقوى منا جميعاً، فاحن رأسك لها إلى أن تمر».

كان فى استطاعة محمد رضا أن ينفذ وصية والده، فيما يتعلق بطاعة الدول الاستعمارية، غير أنه لم يكن فى مقدوره تنفيذ طلبه

(١) غادر بندر عباس فى سفينة انجليزية متوجهاً إلى جزيرة موريشيس الانجليزية فى المحيط الهندى، وبعد فترة انتقل إلى جنوب أفريقيا، ولم تطل حياته بها حيث مات سنة ١٩٤٤م، انظر: عبدالسلام عبدالعزيز فهمى، مرجع سبق ذكره، ص٩٧- ٩٨.

الأخير منه، عندما قال له «انجب ابناً»، وكرر له هذا الطلب فى صيغة الأمر، لأن ذلك فى يد الله سبحانه وتعالى، وكان ذلك طلب الحريص على دوام ملكه فى أسرته، وعلى الرغم من أن المقادير ساعدت محمد رضا فيما بعد بإنجاب الإبن(١)، إلا أنه لم يكن فى مقدوره أن يحتفظ بالملك لهذا الابن، لأن رياح السياسة الدولية، ومعارضة رجال الدين، قضت على ملكه، كما سنذكر بعد قليل.

حكم محمد رضا بهلوى

كان عمر (محمد رضا بهلوى) عندما خلف والده فى الحكم ٢٣ عاماً، وكان يعانى من انخفاض روحه المعنوية، بسبب سوء تربية والده له، الذى كان يضغط عليه كثيراً فى مرحلة شبابه، ويصفه بأنه أبله، مما جعل محمد رضا قليل الثقة بنفسه، ولقد صدم محمد رضا صدمة عميقة بما حدث لأبيه، وأحس بالرهبة من المسئوليات التى ألقيت على كاهله، وانتابته الحيرة بسبب كل المشاكل المحيطة به، وكان مدركاً بأنه لا يتميز بصفات خارقة يواجه بها الموقف الذى أطاح بوالده.

ودخلت القوات الروسية والبريطانية إيران فى أغسطس عام ١٩٤١م، وأصبحت إيران بمثابة جسر لعبور السلاح والمؤن إلى

(١) تزوج محمد رضا مرتين ولم ينجب أولاداً. فتزوج للمرة الثالثة ابنة أحد الضباط، وهى فرح ديبا، فأنجبت له أكبر أبنائه وهو رضا بهلوى وقد ولد عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، وله ابن آخر وابنتان، وهم على رضا وفرح وليلى، انظر: محمد شاكر، مرجع سبق ذكره، ص٨٤.

الجبهة الروسية، وأصبحت مصدراً رئيسياً للبترول يمد الحلفاء فى الحرب، وبعد دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب بجانب الحلفاء أصبح يوجد ٢٨ ألف جندى أمريكى فى إيران، أغلبهم كان يقوم بتوصيل المعدات العسكرية للجبهة الروسية، على حين كان آخرون يشكلون شبكة واسعة من الخدمات الإضافية، من الإشارة وتعبيد الطرق والخدمات الطبية وغيرها، مع وجود كثير من رجال المخابرات بطبيعة الحال، وعين الدكتور الأمريكى «ميلزبو» مديراً للشئون المالية الإيرانية، وأعطى سلطات تنفيذية على الحياة الاقتصادية بأسرها.

كما شغل الجنرال «كليرنس ريدلى» الأمريكى منصب رئيس البعثة العسكرية فى الجيش الإيرانى، وعين الكولونيل الأمريكى «نورمان» مستشاراً للحكومة الإيرانية، وأصبح بعد ذلك مديراً لبوليس الأقاليم، كما عين الأمريكيون الجنرال «دونالد كونولى» رئيساً لقيادة الخليج الفارسى المستقلة ومقر قيادتها فى عبدان، والجنرال «باتريك بورلى» ممثلا شخصياً للرئيس الأمريكى روزفلت فى إيران، ولم يقتصر الأمر على هؤلاء المسئولين، الذين كان لهم سلطات واسعة، بل كان هناك من الموظفين الأمريكان فى إيران، وكان هناك قبول فى البداية للأمريكيين فى إيران من الشعب(١)، وشيئاً فشيئاً اتضح للإيرانيين أنهم لا يقلون سوءاً عن الانجليز والروس.

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٥٨.

واستمرت قوات الحلفاء فى إيران طيلة الحرب، وكان لابد من إظهار حسن النوايا للشعب الإيرانى، وعقب اجتماع الثلاثة الكبار (روزفلت وتشرشل وستالين) فى مؤتمر القمة بطهران فى أول ديسمبر عام ١٩٤٣م، صدر إعلان إيران بتوقيعهم، ونظم عملية انسحاب القوات المتحالفة من إيران، وأشار إلى تضحيات إيران فى الحرب، وتعهد الحلفاء بتقديم العون لإيران أثناء الحرب وبعدها، كما وعد بانسحاب كل القوات الأجنبية من إيران خلال ستة أشهر بعد توقف القتال مع المانيا وشركائها.

وفى ٢١ مايو عام ١٩٤٥م بادرت الحكومة الإيرانية بإرسال مذكرة إلى حكومات روسيا وأمريكا وبريطانيا، تطلب فيها بدء جلاء قواتها، غير أن السفير الإيرانى فى واشنطن ذكر للمسئولين فى وزارة الخارجية الأمريكية أن المذكرة الإيرانية عن انسحاب القوات «لم تكن بطبيعة الحال موجهة للقوات الأمريكية، وكان من الضرورى ذكر هذه القوات حتى لا تتضايق الحكومتان السوفيتية والانجليزية» (١).

وبهذا الوضع المتميز، تمتعت القوات الأمريكية فى إيران بنفوذ كبير، وتم الاتفاق فى واشنطن أن تأخذ إيران الأولوية فى إمدادها بالأسلحة.

وساهمت هذه الحالة فى زيادة التأييد الشعبى للجبهة الوطنية التى يتزعمها محمد مصدق (١٨٨١ - ١٩٦٧م)، وخاصة عندما أعلنت

(١) المرجع السابق، ص٦٠.

أذربيجان الإيرانية انفصالها عن إيران بعاصمتها (تبريز)، وذلك بدعم من الاتحاد السوفيتى، الأمر الذى ألهب الشعور القومى(١).

أما موقف إيران من المانيا الهتلرية ودول المحور، فإنها قامت فى ربيع عام ١٩٤٢م بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع كل من المانيا وإيطاليا واليابان، وطردت جاليات هذه الدول من إيران، ثم أعلنت فى ٩ سبتمبر عام ١٩٤٣م الحرب على المانيا تضامناً مع الحلفاء(٢).

والتزم الأمريكيون بما قدموه لإيران من وعود، وغادرت جيوشهم الأراضى الإيرانية فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٥م، أى بعد انتهاء الحرب مباشرة، وتدخلوا بالطرق الدبلوماسية لدى حلفائهم البريطانيين والروس للاقتداء بهم وتنفيذ قرارات ونصوص معاهدة التحالف الثلاثى «مؤتمر طهران»، وفعلا بدأ الانجليز فى الانسحاب تدريجياً صوب الجنوب، وطالب الروس بامتيازات بترولية، فوعدهم بذلك رئيس الوزراء (أحمد قوام السلطنة) الماكر ولاينهم حتى يخرجوا من البلاد، وعين أحد الوزراء من (حزب توده) الشيوعى الإيرانى لإرضاء الروس، وسمح بنشاط متزايد للعناصر الموالية

---

(١) كما أعلنت منطقة كردستان الإيرانية فى أوائل شهر يناير سنة ١٩٤٦م قيام جمهورية كردية مستقلة هى «جمهورية مها باد»، تحت رياسة القاضى محمد ومشاركة الملا مصطفى البرزانى، وتدعيم من روسيا، انظر: عبدالسلام عبدالعزيز فهمى: مرجع سبق ذكره، ص١١٦.

(٢) د.عبدالسلام عبدالعزيز فهمى، المرجع السابق، ص١٠٦.

لروسيا فى البلاد، ورفع الحظر على اجتماعات حزب توده، وصادر بعض الصحف المعادية للسوفيت، وأمر بالقبض على بعض الشخصيات المعروفة بعدائها للسوفيت، وفى مقابل ذلك نجح فى أواخر مارس عام ١٩٤٦م فى الحصول على تاريخ محدد لانسحاب القوات الروسية من بلاده(١)، فى غضون شهر ونصف ابتداء من ٢٤ مارس عام ١٩٤٦(٢).

ونجح رئيس الوزراء فى خداع الروس، فدعا إلى إجراء انتخابات جديدة، بعد أن اقتنع الروس وحزب توده، أن مثل هذه الانتخابات ستؤدى إلى تشكيل مجلس متعاطف مع فكرة منح الروس امتيازات تنقيب عن البترول فى شمال إيران، وفى منتصف ديسمبر عام ١٩٤٦م دخلت قوات الشاه (تبريز) عاصمة أذربيجان، بحجة أنه لا يمكن إجراء انتخابات دون أن يكون للحكومة سلطة فعلية على كل أنحاء إيران، وتم إسقاط النظام العميل لروسيا فى تبريز(٣)، لكن حينما اجتمع المجلس الجديد فى نهاية الأمر صوت بالإجماع تقريباً ضد منح الروس أية امتيازات بترولية، ولم يكن أمام الاتحاد السوفيتى سوى أن يوجه اللوم لحكومة إيران واتهامها بخيانة

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٦٩.

(٢) د.عبدالسلام عبدالعزيز فهمى، مرجع سبق ذكره، ص١١٤.

(٣) وفى نفس الوقت نجحت القوات الإيرانية فى القضاء على «جمهورية مها باد» الكردية وتحطيم الأكراد كعنصر بشرى متماسك، والقضاء على أملهم فى الاستقلال.

تعهداتها(١).

وعلى الرغم من ذلك، فقد نجحت إيران فى إجلاء القوات المحتلة لأراضيها، وأعلن رئيس الوزراء الإيرانى فى ٩ من مايو عام ١٩٤٦م إتمام جلاء القوات السوفيتية عن البلاد(٢)، وتفرغ رئيس الوزراء لمشاكل إيران الداخلية، فقضى على الحركات الانفصالية فى البلاد للأذربيجانيين والأكراد وقبائل البختيارية فى إقليم أصفهان، وقبائل بنى كعب العربية فى إقليم عربستان، وفر زعماء هذه الحركات خارج إيران.

وبرز اسم «قوام السلطنة» فى إيران، وأصبح نجمه لامعاً بدرجة أقلقت الشاه نفسه، وكون قوام السلطنة حزباً سياسياً جديداً هو «الحزب الديمقراطى الإيريانى»، وفاز بأغلبية ساحقة فى انتخابات سنة ١٩٤٧م، غير أنه استقال فى العاشر من ديسمبر عام ١٩٤٧م، عقب اقتراع المجلس عدم الثقة بحكومته، وذلك بعد أن رفض المجلس اتفاقية سنة ١٩٤٦م، التى وقعها قوام السلطنة مع الاتحاد السوفيتى، بشأن وعود امتيازات التنقيب عن البترول التى سلف ذكرها، لكن قوام السلطنة قد أدى دوره كاملا فى خداع الروس خدمة لبلاده حتى تم جلاء القوات الأجنبية عنها، وبدأت مرحلة أخرى من تاريخ إيران تتمثل فى المناداة بتأميم البترول، وتزعم هذه الحركة (محمد مصدق)، وتحالف مع رجال الدين، وفى غضون ذلك

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٧٢.

(٢) د.عبدالسلام عبدالعزيز فهمى، مرجع سبق ذكره، ص١١٥.

قوى النفوذ الأمريكى فى البلاد على حساب الروس والانجليز.

ونظرت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الرأسماليين فى أوربا إلى إيران على أنها مكان مناسب لخلق قوة حربية تساعد على إيقاف المد الشيوعى فى المنطقة، ورأت تهيئة إيران لزعامة الدول الآسيوية الإسلامية، وإحياء الجامعة الإسلامية لخدمة أغراض المعسكر الرأسمالى، للقضاء على الدعاية الشيوعية، ورأت ضرورة السيطرة على اقتصاد إيران وإغراقها فى سيل من المعونات الغربية، لربطها فى النهاية بالكتلة الغربية، وبالفعل تم تزويد إيران بكثير من عتاد الحرب المتبقى من الحرب العالمية، وكان مكدساً فى مخازن السلاح الأمريكية فى آسيا وأفريقيا وأوربا، كما أرسلت مع هذا السلاح كثير من الخبرَاء والمستشارين الأمريكيين، وشيئاً فشيئاً كثر الأمريكان فى إيران، وكان هناك جانب طيب فى مجال العلاقات الأمريكية الإيرانية، وهو تقديم المعونات الاقتصادية والغذاء للشعب الإيرانى، فى وقت كانت فيه إيران مفلسة بسبب ما حدث لها إبان الحرب العالمية الثانية.

أزمة البترول فى إيران

زاد التنافس بين انجلترا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية على بترول إيران، ورأت كل دولة أن لها الحق فى الحصول على النصيب الأوفر من هذا البترول، انجلترا بحكم تركتها قبل الحرب وامتيازاتها المرعبة، وروسيا بحكم الجار القوى الذى يهدد بإثارة الأقليات فى إيران، وأمريكا بحكم كونها الحليف القوى الذى

ساعد على قهر النازية بمساعداته العسكرية الفعالة أثناء الحرب، ونسيت هذه الأطراف فى غمرة تنازعها الطرف الأصلى صاحب الحق الشرعى فى هذا البترول وهو إيران، وظهر الدكتور محمد مصدق(١)، زعيم الكتلة الوطنية ورئيس لجنة البترول فى المجلس النيابى، وقد بدأت الأزمة البترولية عندما نظرت بريطانيا إلى حليفتها الولايات المتحدة الأمريكية وهى تحاول أن تستحوذ على النصيب الأوفر من بترول إيران، وخشيت أن تستولى فى النهاية على البترول الإيرانى، فعرضت بريطانيا على إيران عقد اتفاق إضافى بشأن امتيازاتها، وبدأت المفاوضات بشأن هذا الاتفاق فى يوليو

(١) اسمه الحقيقى «محمد ميرزا هدايت» وأطلق عليه مصدق لصدقه وأمانته، وقد ولد فى عام ١٨٨١م، وكان والده وزيراً للمالية لمدة ثلاثين عاماً، ينتمى إلى أسرة ثرية، ووالدته من القجار، ومع ذلك فكان ميالا لصالح الفئات الكادحة فى إيران، بدأ حياته موظفاً بوزارة المالية فى أقاليم إيران بعيداً عن العاصمة لمدة عشر سنوات، ثم اتجه إلى العمل السياسى، وبدأ يخطب فى الجماهير فى فترات الاضطراب السياسى فى إيران، فأبعدته الدولة إلى باريس فدرس بها الاقتصاد لمدة ثلاث سنوات وحصل على الدكتوراه فى القانون من جامعة السربون، وعين وزيراً للمالية سنة ١٩٢١م، فأعلن على الفور تخفيض مرتبات جميع كبار الموظفين فى الدولة إلى النصف، فتم عزله وانتخبه الشعب ممثلا له فى البرلمان، وعارض تنصيب رضا بهلوى ملكاً، فأدخله السجن سنة ١٩٤٠م، ثم أصبح زعيماً للبرلمان فى سنة ١٩٥١م. انظر: جريدة الأخبار القاهرية، عدد ١٩٦٧/٢/٦.

سنة ١٩٤٩م، وتعثرت بسبب معارضة مجلس النواب بزعامة محمد مصدق، وذلك على الرغم من مناصرة (ساعد محمد ساعد) رئيس الوزراء الإيرانى.

وكتب رئيس لجنة البترول (مصدق) تقريراً يقول فيه «إن اللجنة ترى خير عمل تقوم به هو تأميم البترول»، وكان هذا التقرير سبباً فى سقوط الوزارة، وخلفتها وزارة الجنرال «على رزم آراه» أقوى رجل فى إيران والعسكرى الذى قاد القوات الإيرانية فى حروبها ضد الانفصاليين وحقق الوحدة، وطلب من الشاه أن يكون صدور القرار بتعيينه يحمل لقب (الحاج على رزم آراه) وليس الجنرال، وخلع ملابسه العسكرية وارتدى الملابس المدنية، ودخل مبنى البرلمان فى اليوم التالى ليواجه النواب الثائرين بزى جديد(١)، واعتقد رئيس الوزراء أنه يستطيع إرهاب النواب والشعب بماضيه العسكرى، وظهر ضعف إيمانه بفكرة تأميم البترول، وأراد المماطلة والمناورة ليكسب الوقت، لكن المجلس كان متحداً على مسألة تأميم البترول.

وكان الشاه غير مبال بمسألة التأميم، وكان يخشى من الغرب إذا هو أقدم على ذلك، ولكنه أراد استعمال قوة الجنرال «رزم»، وكان عمر الجنرال ٤٩ عاماً، وواجه موقفاً صعباً بزعامة مصدق الذى قال له «أنت لست بحاج فلماذا تحاول خداعنا؟.. أنت جنرال، ثعلب فى ثياب قط، عد إلى الشخص الذى أرسلك إلى هنا».

---

(١) د.عبدالسلام عبدالعزيز فهمى، مرجع سبق ذكره، ص١٢٥.

وكان مصدق يتمتع بقدرة فائقة فى الخطابة المؤثرة فى الجماهير، وقد حضر له محمد حسنين هيكل (الكاتب الصحفى المرموق فى مصر) عدة مناقشات فى البرلمان الإيرانى فى تلك الفترة، فيذكر عنه بأنه على الرغم من أنه قد بلغ السبعين من عمره، إلا أنه كان قادراً على تحريك العواطف، فعادة ما كان يبدأ «بالتحدث إلى النواب عن آلام الشعب الإيرانى، إلى أن يتملكه التأثر من بلاغته شخصياً فينفجر باكياً، ثم يتحول البكاء إلى نوبة سعال، ثم ينهار تماماً فيندفع إليه النواب يقدمون إليه أكواب الماء والكولونيا والمنعشات ليشمها، وبعد قليل ينجحون فى إعادة مصدق للوقوف على قدميه، ويشرع فى مواصلة خطبته، ليغلبه التأثر بنفس الطريقة مرة أخرى بعد خمس دقائق، كان الجميع يتعجبون من صدق عواطفه»(١).

وفى تلك الفترة قوى جناح رجال الدين، وتعاهد مع مصدق، وكان رجال الدين بزعامة «آية الله أبوالقاسم كاشانى»(٢)، وتشكلت جماعة ثورية فدائية من بين رجال الدين بزعامة (نواب صفوى) وصادق خلخالى، تدعى «فدائيان إسلام» أى الفدائيون المسلمون، وكان نواب صفوى قد قرأ ذات مرة مقالة كتبها صحفى يسمى «كسروى» تهاجم الإسلام، فاستشار أحد آيات الله فى مدينة «قم»

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٧٨- ٧٩.

(٢) كان كاشانى منفياً فى لبنان، نفاه رضا بهلوى، وعاد إلى إيران إبان الحرب.

عن عقوبة من يهين الإسلام، فقيل له الموت، وهنا قرر أن يكون جماعة لتحمل مهمة تنفيذ هذه العقوبة، وقامت باغتيال «كسروى» سنة ١٩٤٩م، الذى كان يعمل محامياً بجانب عمله فى الصحافة، وأرسل آية الله كاشانى لهم يبارك عملهم.

وارتفعت شعبية كاشانى، وكان كاشانى من الزعماء الذين لديهم رغبة فى إزالة الفوارق المؤسفة بين الطوائف المسلمة، وعلى الأخص بين الشيعة والسنة، فيذكر الصحفى الأمريكى «روبير جاكسون» أن آية الله كاشانى التقى بـ(حسن البنا) زعيم جماعة الأخوان المسلمين فى موسم حج عام ١٩٤٨م، «ويبدو أنهما تفاهما ووصلا إلى نقطة رئيسية لولا أن عوجل حسن البنا بالاغتيال»(١).

وقامت جمعية فدائيان إسلام باغتيال رئيس الوزراء الإيرانى «رزم آراه» فى ٢٠ من فبراير عام ١٩٥١م، وأعلن «نواب صفوى» بياناً يقول فيه «إن البطل(٢) الذى قتل رزم آراه الخائن أدى واجبه»، وأصدر آية الله كاشانى بياناً آخر يقول فيه «إن الرصاصات التى أردت رزم آراه قتيلا كانت رصاصات مباركة مصحوبة بالتوفيق، لقد كسبنا معركة البترول رغم أنف الخائن المضرج فى دمه»، وقبض على قاتله وهو مازال يصيح «الله أكبر»، وعندما سألوه عن اسمه لم يكن يجيب إلا بقوله «عبدالله»، وعندما ضغطوا عليه ليقر باسمه

(١) عبدالعال الجبرى، لماذا أغتيل الشهيد حسن البنا؟، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٧، ص٣٢.

(٢) كان هذا البطل هو خليل طهماسب، عضو جمعية فدائيان إسلام.

الثانى، كان يقول «موحدى» أى مؤمن بالله الواحد.

ووجه «صفوى» بياناً إلى الشاه دون ذكر لأى من ألقابه مخاطباً إياه بقوله «بسر بهلوى»(١)، أى «يا ابن بهلوى»، أخبره فيه بلهجة قاطعة أنه يتحتم عليه أن يصدر أمراً بالإفراج فوراً عن القاتل، وأن يقدم له الاعتذار عما لحقه من ضيق بسبب استجواب البوليس له، وفشلت الحكومة فى إحضار إمام واحد يكون مستعداً لإقامة شعائر صلاة الجنازة على «رزم آراه» وعرضت الحكومة ثلاثة آلاف جنه على أحد الأئمة ليقوم بشعائر الصلاة، لكن الإمام أخبرهم أنه يرى حياته أغلى من هذا بكثير.

وحاول الشاه محمد رضا تعييين بعض المخلصين له مثل خليل فهمى نائب رئيس الوزراء المقتول، وعلى سهيلى السفير الإيرانى فى لندن، وحسين علاء وزير بلاط الشاه، ولكن المجلس رفضهم جميعاً، وتعيين حسين علاء لعدة أيام تحت وطأة الإحساس بالخطر الخارجى، وتوقف أعمال الدولة، وما كاد يوافق كاشانى ومصدق عليه حت بدأ يشق طريقه وسط الظلام، فأعلن الأحكام العرفية وعين حاكماً عسكرياً على طهران وضواحيها، فأقاله مجلس النواب، وعين مكانه محمد مصدق فى ٢٦ أبريل سنة ١٩٥١م.

---

(١) يلاحظ أن لفظة «بسر» تستعمل فى الجزيرة العربية وعلى الأخص فى السعودية ويحرفونها إلى «بزر» ويجمعونها على «بزور» الأولاد، ويطلقون كلمة «بزور» هذه المحرفة عن الأصل الفارسى على الصغار بصفة عامة بنين وبنات.

لم تمض عدة أيام على تأليف وزارة مصدق حتى وافق المجلس على قانون تأميم البترول، وصدق عليه الشاه فى اليوم التالى، وعهد إلى لجنة تؤلف من نواب الشعب لإنشاء شركة وطنية إيرانية للبترول، يحل فيها الخبراء الوطنيون محل الأجانب، وترسل البعثات إلى الخارج لتعلم صناعة البترول.

والواقع أن شركة البترول الانجليزية الإيرانية، التى قامت هذه الجهود ضدها، كانت تشكل دولة داخل الدولة الإيرانية، وتشكل كابوساً جاثماً فوق صدر الشعب، وهى سبب كل الشرور والبلاء، فكانت الشركة بما لها من إمكانيات مالية جبارة تشترى زمم الناس فى إيران، فتعين الوزراء وتقيل الوزارات وتسبغ عضوية المجلس النيابى على من تشاء، وكان لها هيمنة على رؤساء القبائل فى جنوب إيران كالبختيارية الإيرانيين وبنى كعب العربية، وكان زعماء هذه القبائل يملكون ثلاثة فى المائة من أسهم الشركة، حيث قدمت هدية لهم ليبذلوا نفوذهم وجهودهم لحماية مصالح الشركة وحراسة أنابيبها الممتدة عبر الصحارى وآبارها ومنشآتها من أى اعتداء أو تدمير، وكان تأميم هذه الشركة أملا راود الإيرانيين خلال نصف قرن من أجل تحرير الإرادة الإيرانية، وقد عبر محمد مصدق عن هذا فى رسالة له إلى ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا، بقوله:

«إن إيران تسعى إلى بتر النفوذ الأجنبى والعملاء الأجانب وأى سلطان أجنبى من البلاد، وأن تتولى مصائرها بنفسها وتضمن استقلالها السياسى متعاونة مع الشعوب المحبة للسلام فى المحافظة

على السلم والأمن الدوليين، وأنه خلال نصف قرن سيطرت فيه الشركة على إيران، لم يكن ممكناً للحكومة الإيرانية أن تتخذ قراراً بمحض إرادتها سواء فى شئونها الداخلية أو فى سياستها الخارجية »(١).

لكن مشاكل اقتصادية كثيرة واجهت مصدق، كان من أهمها تدبير المال اللازم لدفع مرتبات الموظفين المتأخرة، فقد توقفت شركة البترول عن دفع التزاماتها المالية للحكومة الإيرانية، وزاد من حدة الأزمة توقف الشركة عن تكرير البترول فى ٣١ يوليو، وشهد عام ١٩٥٢م عرض القضية على هيئة الأمم ومحكمة العدل الدولية، وقيام إيران بقطع العلاقات مع بريطانيا، وقامت بريطانيا بتأليب حلفائها ضد إيران، فوجد مصدق نفسه عاجزاً عن عمل أى شىء، وهكذا وقف مصدق بمفرده يحارب وخزانته خاوية، وفرضت بريطانيا على إيران حصاراً بحرياً محكماً زاد من عزلة إيران.

واختلف الشاه مع مصدق، واستغلت بريطانيا هذا الخلاف، وكانت أمريكا تود أن ترث نفوذ بريطانيا، ولعبوا دور الوساطة ولكن مصدق رفض وساطتهم، وفى الوقت نفسه رفض معونة الاتحاد السوفيتى، ولم يسلم مصدق من هجوم الشيوعيين عليه، لأنه كان يكرههم كراهية مطلقة، واتهمه سكرتير الحزب الشيوعى الإيرانى (توده) بأنه عميل أمريكى يسعى لانتزاع البترول من الانجليز،

---

(١) د.عبدالسلام عبدالعزيز فهمى، مرجع سبق ذكره، ص١٣١.

وإعطائه للأمريكيين (١).

وعندما رفض الشاه طلب مصدق فى إسناده وزارة الدفاع إليه، قدم استقالته فى ١٦ يوليو عام ١٩٥٢، وكلف الشاه (قوام السلطنة) بتأليف الوزارة، فهاجت الجماهير بزعامة آية الله كاشانى، الذى نزل إلى شوارع طهران، وقاد مظاهرة مرعبة واجه بها وحدات من الجيش الإيرانى، التى نزلت إلى شوارع طهران لقمع الشعب، وأصبح المتظاهرون أمام مدفعية الجيش، وأراد آية الله كاشانى أن يزيد من حماسة الجماهير، فارتدى كفناً ورفعه المتظاهرون على أكفهم، وكان ذلك إشارة لاستعداده للموت، فألهب حماس الجماهير الذين يعدون بمئات الآلاف وقرروا الموت، وتحول الموقف إلى مواجهة خطيرة بين جيش مدجج بالسلاح وبين جماهير غفيرة تؤمن بالاستشهاد فى سبيل الله، فأصدر الشاه أوامره بانسحاب الجيش من الشوارع بعيداً عن المتظاهرين.

وكانت نتيجة هذه المظاهرة خوف (قوام السلطنة) على نفسه، فقدم استقالته واختفى عن الأنظار، خوفاً على حياته، واضطر الشاه إلى تكليف مصدق بالوزارة من جديد، وكان مصدق قد بعث من قبل رسالة إلى أيزنهاور الرئيس الأمريكى، يطلب فيها قرضاً من الولايات المتحدة الأمريكية، وهدد إذا لم يحصل على قرض منهم فإنه سيلجأ إلى أى مصدر آخر، وكان معنى ذلك أنه

(١) قدرى قلعجى، من مقال له فى مجلة الحوادث، حول تاريخ حياة الشاه محمد رضا بهلوى، عدد ١٢٢٤، فى ١٨/٤/١٩٨٠.

يعنى الاتحاد السوفيتى، فرد عليه أيزنهاور برسالة ضمنها هى الأخرى تهديداً مفاده: إذا لم تدخل إيران فى محادثات فورية مع الشركة البريطانية بشأن تسوية المشكلة، فلن تقدم لها أمريكا أى قرض، فغضب مصدق واتجه على الفور إلى الاستعانة بالشيوعيين، وأطلق العنان لحزب (توده) وصحفه، وكانت تلك غلطة كبرى منه، أفقدته أنصاره من رجال الدين، وعلى رأسهم كاشانى صاحب الفضل الأكبر فى النجاح الذى حققه مصدق، وانتخب كاشانى رئيساً للبرلمان برغم معارضة مصدق، وانطلقت الصحف الشيوعية المتطرفة تهاجم آية الله كاشانى، وتهيأ الشاه للخروج من البلاد، لكى يتيح الفرصة لانقلاب مضاد، ولكن آية الله كاشانى رفض، حتى لا ينفرد مصدق بالسلطة، ويستغل الشيوعيون والمستعمرون خروج الشاه.

فعمد الشاه إلى حل المجلس النيابى، وأجرى استفتاء سنة ١٩٥٣م لمنحه السلطة المطلقة للقيام بالإجراءات اللازمة للدفاع عن البلاد، وجاء الاستفتاء مؤيداً له على الرغم من معارضة كاشانى ورجال الدين، وهنا استعمل الشاه حقه الدستورى فأصدر أمراً بإقالة مصدق فى غيبة مجلس النواب الذى يستمد مصدق شرعيته منه، وتدخل الجيش وقام بانقلاب وغادر الشاه البلاد لفترة وجيزة حتى يستتب الأمن، وكان قد عين الجنرال «زاهدى» رئيساً للوزراء، وقدم مصدق إلى المحاكمة، وحكمت عليه المحكمة بالسجن ثلاث سنوات(١).

(١) وبعد خروجه من السجن حددت إقامته فى منزله حتى وافته المنية فى سنة ١٩٦٧، الأخبار القاهرية، عدد ١٩٦٧/٢/٦.

أما زاهدى فقد أعاد العلاقات مع بريطانيا، وسوى مسألة البترول بتكوين اتحاد من شركات الاحتكار البترولية، للاشراف على بترول إيران، ووافق البرلمان على ذلك، وعاد الشاه إلى إيران منتصراً، واستقبله الجيش وعلى راسهم الجنرال زاهدى، الذى اعترف له بالفضل فى كل ما حدث، غير أنه ادعى أن الفضل الأول لإمام الزمان «فهو الذى حمانى وهو الذى أعادنى سالماً منتصراً»(١)، وألقى الجنرال «دفترى» رئيس الشرطة بنفسه على قدمى الشاه وقبل حذاءه، ونشرت الصحف هذه الصورة، التى سيكون لها أعظم الأثر فى حياة الشاه وحياة إيران، وشعر محمد رضا بأن الشعب الإيرانى هو الذى يسجد أمامه مكفراً عن موقفه، معرباً عن عبوديته ومذلته، فامتلأ زهواً وكبرياء، وخيل إليه أن سلطانه مستمد حقاً من الله، وكثر من حوله بعد ذلك المنافقون الذين يأكلون من فتات مائدته، فازداد مع الأيام استعلاء وخيلاء، وكان أول ما قام به بعدما استعاد ملكه، أنه ألغى الحريات الديمقراطية، وقضى على كل شكل من أشكال المعارضة، وجاء ينفذ السياسة الأمريكية، لأنها هى التى رتبت لكل شىء.

فالأمريكيون وشركة النفط الانجليزية يرغبون فى التخلص من مصدق، والأمريكيون يخشون التهديد الروسى للاستيلاء على إيران، و«جون فوستر دالاس» وزير الخارجية الأمريكى يومئذ يقول «إن التهديد السوفيتى لإيران هو تهديد حقيقى خطير

(١) الحوادث، عدد ١٢٢٤، بتاريخ ١٨ أبريل ١٩٨٠.

ووشيك الوقوع»، وقال «لو تمكن الروس من السيطرة على إيران فإنهم سيتحكمون فى الخليج الفارسى»(١)، وكانت السلطة الحقيقية فى طهران فى تلك الأيام فى يد السفارة الأمريكية، فهى التى خططت ونفذت.

وتمت مطاردة رجال الدين، وقبض على الكثيرين منهم وأعدموا، وقضى على كثير منهم فى السجون والمعتقلات، وأن عدداً آخر منهم رمى فى بحيرة «ساوة» وهم أحياء، وكانت هذه العملية تتم بواسطة طائرات الهيلووكبتر، التى كانت ترمى بهم فى قاع تلك البحيرة المالحة، وتم إعدام نواب صفوى زعيم «فدائيان إسلام»، وقام الجيش والبوليس بإنزال عقوبات خاصة بالمدن التى اظهرت تأييداً واضحاً لمصدق والجبهة الوطنية، أو تلك المدن التى أبدى رجال الدين فيها عداء واضحاً فى نقدهم للشاه، فكانت مدن «قم» و«شيراز» و«تبريز» و«أصفهان» مسرحاً لعمليات تفتيش واعتقال على نطاق واسع، وفى طهران أزيل بيت مصدق بالجرافات حتى لا يتحول إلى رمز وقبلة للمعارضة، وتم قتل حسين فاطمى وزير خارجية مصدق.

وتصرف الشاه بطريقة مختلفة مع حزب توده الشيوعى، فقد قبض على خمسين من أعضائه وأودعهم السجن، ثم أخلى سبيلهم بعد قليل بأمر من روسيا، وهكذا كان الغضب ينصب على التنظيمات الإسلامية بشكل أقوى مما ينصب على الفئات الأخرى العميلة، أما

---

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٨٨.

الجنرال زاهدى فإنه استطاع أن يرهب الشعب ويقلم أظافره.

وبعد أن اطمأن محمد رضا بهلوى إلى أنه قضى على المعارضة، أخذ يؤسس نظاماً يقوى من سلطانه ويدعم نفوذه، فأنشأ نظاماً للتجسس على الشعب، سماه (المنظمة الوطنية للأمن والمعلومات)، وهى تعنى بالفارسية (سازمانى اطلاعات فاامجينات أى كيشغار)، وتلخص فى كلمة واحدة هى (السافاك).

والسافاك جهاز للحفاظ على نظام الشاه وتبعيته للغرب، بقصد الكشف عن الخلايا الثورية التى تعمل ضد نظامه وضد النفوذ الأجنبى الذى يحمى الشاه، ويعين الشاه رئيس السافاك برتبة نائب رئيس الوزراء، وكانت هذه المنظمة تعمل فى كل مكان، وفى كل وزارة يعين أحد ضباطها على الأقل فى منصب مدير عام، وفى كل قسم يوجد أحد عملائها المدربين، وذلك بالإضافة إلى أعداد هائلة من عملائها فى الفنادق والمقاهى، ومعظمهم يقدم المعلومات للسافاك دون مقابل، سوى النجاة من قبضة السافاك، وأضحى رئيس السافاك من أقوى الشخصيات فى البلاد، وكان هذا الجهاز يتعاون مع المخابرات الأمريكية والمخابرات الإسرائيلية، وكان يعمل فيه وينتسب إليه عدد كبير، قدرته الجهات المطلعة بين ٣٠ ألف و٦٠ ألف، فى حين ذهبت مجلة أمريكية إلى أنه حوال ٣ ملايين(١)، وتخطى هذا الجهاز الرهيب مهمة القمع التى أنشىء من أجلها، إلى أنه عمل على إلغاء

(١) مجلة نيوزويك الأمريكية، نقلا عن الحوادث، عدد ١٢٢٥، فى ١٩٨٠/٤/٢٥.

حرية التعبير عن الرأى، لدرجة جعلت الشخص يشك بأمر من يعلن رأيه بصراحة عن معارضته للحكومة، خوفاً من أن يكون عميلا للسافاك، وقد زادت جرائم السافاك ففى المجتمع الإيرانى فى مجال قتل المعارضين أو سجنهم أو نفيهم، وراح ضحية ذلك كثير من الأبرياء، وهجر المعارضون إيران إلى العراق ودول الخليج العربى وإلى أوربا وأمريكا.

ولقد اعترضت المنظمة الدولية لحقوق الإنسان وهى أوربية، على هذا النظام الذى لا يوجد فى العالم أجرأ منه على انتهاك حقوق الإنسان، وتقول مجلة «الشهيد» الإيرانية «وقد استطاع السافاك إنزال ضربات عنيفة بحركة التحرير الإسلامية الوطنية فى إيران، وإرهاقها المتواصل بالتصفيات والإعدامات والاعتقالات، وخصوصاً حينما استعدت قيادات حزب توده الشيوعى بعد اعتقالهم، للتعاون مع السافاك لضرب الحركات الثورية، فلقد انهار قادة حزب توده تحت التعذيب، واعترفوا بكل شىء، ووضعوا كل إمكانياتهم فى خدمة السافاك، ودون أن يعلن السافاك كعادته عن الاعتراف فى الإذاعة والتليفزيون، أخرجهم بعد مدة من الزمن من السجن، وكأنهم لايزالون صامدين فى وجه إرهاب السلطة، وبدأوا فى العمل السرى من جديد، وحاولوا أن يتسللوا إلى داخل المنظمات والحركات الثورية، ويكشفوا كثيراً من جوانبها وقيادتها وخططها، عن طريق التسلل، أو إنشاء العلاقات الحركية الخاصة، وكانت كل المعلومات التى يحصلون عليها، تتحول إلى أيدى السافاك، وفى فترة قصيرة من

الزمن، وفى عام ١٩٧١ شن السافاك حملة تصفية واسعة ضد كل الحركات الثورية والمنظمات المناضلة، واعتقل كل القيادات والكثير من العناصر، وكانت هذه ضربة مؤلمة جداً، تلقتها حركة التحرير الإسلامية الوطنية فى إيران، بفضل تعاون حزب توده الشيوعى مع السافاك» (١).

ووضعت خطة أمريكية للسياسة التى يجب على الشاه أن يحاول اتباعها، وقد اتضحت هذه الخطة من خلال وثيقة وجدتها حكومة الثورة الإيرانية فى أرشيف «قصر المرمر»، أحد قصور الشاه، واشتملت الوثيقة على سبع توصيات أساسية، هى:

(١) ينبغى القيام بحملة مركزة، لتقديم الشاه بمثابة الأب للعائلة الإيرانية كلها (فرماندة)، كما يقول التعبير القديم، مقتدين فى ذلك بأفضل التقاليد الإيرانية الراسخة.

(٢) ينبغى استخدام كل أساليب الدعاية الممكنة، لتدعيم مكانة العرش وسمعة الشاه شخصياً، وقد ذكر بهذا الخصوص أنه يوجد فى إيران مجموعة جاهزة تقريباً لتأييد الشاه، يمكنه أن يخطب ودها، وهى النساء، فنصف سكان إيران تقريباً من النساء، وإذا كانت المفاهيم القديمة تتحكم فى الرجال، فإن النساء أكثر تأثراً بالمفاهيم الجديدة، لذا فإن العمل على تحرير النساء سيعطى الشاه قاعدة فى كل منزل.

(١) مجلة الشهيد الإيرانية، عدد ١٩٧٩/١١/١٧، نقلا عن الحوادث، العدد السابق.

(٣) ينبغى على الشاه وحكومته الجديدة أن يبذلوا قصارى جهدهم لأن يزيدوا من حجم الطبقة المتوسطة ويدعموها، فعلى الرغم من قلة قاعدة هذه الطبقة، إلا أنها كانت تمثل أكثر أشكال المعارضة الفعالة لمصدق، فالطبقة المتوسطة بحكم غرائزها ومصالحها تخشى المغامرة، وتتبنى رؤية علمانية، لذا يمكن أن تصبح هذه القاعدة الطبيعية للنظام.

(٤) ينبغى أن تظهر وجوه سياسية جديدة، فالساسة القدامى أمثال أحمد قوام السلطنة، والسيد ضياءالدين الطباطبائى، قد نالت الشيخوخة منهم، وأصبحوا غير قادرين على مواجهة المستقبل.

(٥) من المستحسن جداً أن يلعب الشاه دوراً بارزاً فى الشئون الدولية، على مستوى الشرق الأوسط، والمستوى العالمى الواسع، إذ أنه ثبت أن كثيراً من رؤساء الدول الصغرى استفادوا كثيراً من الصورة التى خلقوها لأنفسهم فى الخارج.

(٦) ينبغى أن يهتم الشاه اهتماماً بالغاً بالشئون الدينية، فيعمل جاهداً على انتزاع القيادة الدينية للبلاد من آيات الله فى «قم»، فيجب عليه على سبيل المثال أن يصر على الذهاب للصلاة كل أسبوع فى مسجد مختلف.

(٧) ينبغى وضع دراسة واعية لتنظيم المخابرات، والسيطرة عليها، ويراعى الاهتمام بشكل خاص بمطالب القوات الجوية، لأنها إذا احتفظت بولائها فستكون بحكم مقدرتها على الحركة، فى موقف يسمح لها بالقضاء على أى تهديد من قبل وحدات الجيش

هذا بالإضافة إلى أنها تتكون من أعداد قليلة من الضباط والأفراد، يتمتعون بإمكانية قتال مركزة، ويسهل إحكام القبضة عليهم أكثر مما هو الحال مع الجيش(١)، وزاد الاعتماد على أمريكا بصفة مزعجة فى مجال الإدارة والجيش، وتم إرسال كل الضباط من رتبة كولونيل فصاعداً تقريباً، لقضاء فترة تدريب فى الولايات المتحدة، تتراوح بين سنتين وثلاث سنوات، وخلال فترة حكم الشاه التى دامت ٣٨ سنة، أرسل ما لا يقل عن ١٥ ألف ضابط لتلقى تدريبهم فى أمريكا، خلال هذه الفترة من الارتباط الطويل، هذا بخلاف عدة آلاف من صغار الضباط وضباط الصف، قضوا فترات أقصر، وتم عزل أسلحة الجيش بعضها عن بعض وعن «السافاك»، ومنع الشاه أى نوع من التنسيق بين هذه الأجهزة، الذى يؤدى إلى النقد، ويؤدى بدوره إلى التمرد، وهذا هو الذى جعل قواد الجيش مشلولين، عن أن ينسقوا مواقفهم عندما قامت الثورة، لأنه لم يكن لديهم الوسيلة التى تمكنهم من ذلك.

ومن ناحية أخرى مدت الولايات المتحدة الأمريكية إيران بالمساعدات الاقتصادية والفنية، إلا أنها كانت فى حرج دائماً أمام جماعات المطالبين بحقوق الإنسان فى الغرب، فكانت التقارير عن «السافاك» التى تنشر فى الغرب مزعجة، فأعلنت أمريكا إزاء هذا مضطرة فى عهد الرئيس كنيدى، أن المساعدات الأمريكية يجب أن

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٩٢- ٩٣.

تقترن بإصلاحات داخلية تقوم بها إيران فى مرافقها العامة، ولاسيما فى حقلى الإدارة والزراعة، ودخلت البلاد ابتداء من سنة ١٩٦٠ فى طور التنمية الرأسمالية والإصلاح الزراعى، وأطلق الشاه على ذلك فى ٢٦ يناير ١٩٦٣ ما عرف باسم «الثورة البيضاء» (انقلاب سفيد)، وتقوم هذه الثورة على الأركان الستة التالية:

(١) إلغاء النظام الاقطاعى.

(٢) تأميم أراضى الغابات.

(٣) بيع الشركات الصناعية التى تملكها الدولة إلى مصالح خاصة.

(٤) مشاركة العمال فى الأرباح المتأتية عن الصناعة.

(٥) حق التصويت للنساء، (ويلاحظ هنا أن ما فى المذكرة السابقة بدأ ينفذ).

(٦) تأسيس جهاز للتعليم بنتقل إلى القرى.

ثم ألحقت بها ستة مبادىء أخرى:

(١) تأسيس جيش الصحة من الأطباء وأطباء الأسنان والصيادلة ومساعدى الأطباء، لتقديم كافة الخدمات الصحية والوقائية فى القرى والأرياف.

(٢) تأسيس جيش الإعمار والإرشاد من المهندسين والفنيين، لتقديم كافة الخدمات الهندسية والإنشائية والإرشادات الزراعية فى القرى والأرياف.

(٣) إقامة بيوت العدل والإنصاف فى القرى والأرياف لحل المنازعات

التى تنشأ فى الريف بالطرق الحبية وبطريقة التراضى بين الطرفين.

(٤) تأميم مصادر المياه الجوفية وجعلها ملكاً للقطاع العام.

(٥) إعمار وتجديد بناء البلاد على أساس مخططات عصرية صحية، لتطوير وتوسيع المدن وحل أزمة السكن وتأمين كافة الخدمات البلدية والمشاريع الإنشائية.

(٦) الإصلاح الإدارى والثورة التعليمية، بهدف القضاء على الروتين الإدارى، وتغيير أسس التعليم ليكون منسجماً مع متطلبات العصر ومنطق التطور العلمى.

ثم أضيف بندان آخران إلى بنود هذه الثورة الاثنى عشر.

البند الأول يقضى بعرض أسهم المعامل والمصانع الحكومية والأهلية على المواطنين لشرائها تلافياً لكل احتكار يمكن أن ينشأ فى القطاع الصناعى.

البند الثانى يقضى بتحديد الأسعار الحقيقية للسلع من أجل مكافحة الغلاء.

وزعم الشاه أن هذه الثورة للقضاء على الفساد، الذى ينخر فى المجتمع الإيرانى وجهاز الدولة، وطغيان الإقطاع الزراعى، والقضاء على ما يعانيه الشعب الكادح من جور وبؤس، وذكر أن التناقضات والمظالم الاجتماعية، كانت خلال السنوات المائة الماضية عوامل للثورة والانقلابات والتغييرات المفاجئة التى أدت إلى استبدال

أنظمة الحكم فى كثير من البلدان بأنظمة أخرى، وادعى أيضاً أنه يهتم فى ثورته هذه بالروحانيات والدين، وصيانة الحريات الفردية والجماعية، وعندما طرح الشاه مبادىء هذه الثورة على الاستفتاء الشعبى، كان التصويت عليها بنسبة ٩٩,٩٩٪ بالقبول والإيجاب!(١).

ومن ناحية أخرى زادت عائدات البترول زيادة مضطردة، بعد أن تسلمت شركة البترول الإيرانية الوطنية إدارة إخراج البترول من الشركات البريطانية والأمريكية والفرنسية والهولندية فى يوليو عام ١٩٧٣، بموجب اتفاق يعطى لها سيادة على الثروة البترولية والمؤسسات التابعة لها فى إيران، وزادت عائدات البترول من خمس مليارات دولار فى سنة ١٩٧٣ إلى ١٨ ملياراً فى سنة ١٩٧٤، و١٨ ملياراً فى سنة ١٩٧٥، و٢٠ ملياراً فى سنة ١٩٧٦، و٢٠ ملياراً فى سنة ١٩٧٧، وواحد وعشرين ملياراً فى سنة ١٩٧٨(٢).

والحق أن إيران قد حققت تقدماً ملحوظاً فى مجال التنمية والتصنيع وفى مجال الزراعة، ولكن كل ذلك كان فى إطار تدعيم حكم الشاه الدكتاتورى المتسلط، وأنشأ الشاه حزباً لمساندته «حزب البعث القومى»، أو ما يسمى بالفارسية (راستاخيز)، وقد أتاح هذا الحزب المجال للمنتفعين من ذلك الإصلاح والعاملين فى المؤسسات الحكومية للإعراب عن ولائهم للشاه، وكان الشاه يستطيع أن يسقط

(١) محمد رضا بهلوى، الثورة البيضاء، ص١٦- ٢١.

(٢) الحوادث، عدد ١٢٢٥، فى ٢٥ أبريل ١٩٨٠.

فى الانتخابات أى مرشح لا يريده، أو يضمن النجاح للمنافقين.

وقد اطلع العالم كله فى عام ١٩٧١ على مدى ما وصل إليه الشاه من تجبر وطغيان فى الاحتفالات الأسطورية التى أقامها بمناسبة مرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس حكم (قورش) بانى امبراطورية فارس، للتأكيد على تجدد الروح القومية الآرية المتعصبة، وارتباطها بتعاليم (زرادشت)، أكثر من ارتباطها بتعاليم الإسلام، وإظهار الفتح الإسلامى بمظهر الهجرة البربرية على الحضارة الفارسية، التى أوقفت مسيرتها، والتقليل من أهمية الفترة الإسلامية فى تاريخ إيران وربط عظمة إيران بذلك الملك القوى، الذى ابتدأ من (قورش) الكبير إلى محمد رضا الذى توج أثناء هذه الاحتفالات امبراطوراً باسم (الشاهنشاه)، أى ملك الملوك، ونعوذ بالله من دلالة هذا اللقب، ومنافسته للمولى عز وجل الذى هو بحق ملك الملوك، كما أسبغ على نفسه لقباً آخر (آريامهر)، ومعناه نور الآريين، وكان معنى ذلك هو نزع الهوية الإسلامية عن إيران، والعودة بها إلى النزعة الشعوبية الفارسية الآرية، تماماً كما فعل مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا، عندما ألغى الخلافة الإسلامية وتعصب للتركية، وهى مثل الفرعونية فى مصر، والفينيقية فى الشام، والبابلية فى العراق، والقومية العربية فى ديار العرب.

وقد ألغى الشاه التقويم الهجرى، واتبع التقويم الفارسى القديم، وظهرت على الشاه أعراض التأله، أو على الأقل أنه مبعوث العناية الإلهية التى تدعمه فى خطواته، فيذكر فى مقدمة كتابه «نحو الحضارة الكبرى»:

«وأنا كربان سفينة بلادى المصيرية الضاربة فى عرض المحيط الهائج لعالمنا اليوم، كان اتكالى على العناية الإلهية، أساس جميع قراراتى وجهادى ومنطلقها، لذلك فإن تقدمنا محتوم مادمت مؤمناً بأن مشيئتى هى من مشيئته تعالى».

«وأشعر قلبياً أن هذه المشيئة، التى لولاها ما تجاوزت طاقتى طاقة إنسان عادى، فوضعتنى كزعيم لهذه الأمة لتأدية هذه الرسالة، فمادامت هذه مشيئته، فليس بمقدور كائن من كان أن يحول دون إنجاز هذه الرسالة، سواء كان المعيق قوة سياسية أو اقتصادية أو حتى أية عوامل فردية أو ذاتية».

«وإيمانى هذا جزء من روحى، وإن كان لا يتماشى مع أى شكل من أشكال الديالكتيك أو الاستدلال المادى والعلمى، ذلك أن الأحداث المتباينة والمدهشة فى حياتى، أزالت لدى أدنى شك فى أن هناك قوة خارقة هى ما وراء الإنسان، رسمت قدرى ومصيرى وشعبى، أنا أستوحى جميع أعمالى من هذه القوة الخارقة، فهى سر نجاحى وموجهة دفة قيادتى»(١).

وفى مجال محاولة الشاه تدعيم حكمه، اعتمد على الأقليات الدينية المنشقة عن الشيعة كالبهائية، وأخذ يشجعهم وعينهم فى كل وسائل الاتصال العسكرى مثل الرادار واللاسلكى وغيرها، وكانت إحدى نتائج هذه الخطوة، عندما قامت الثورة الإسلامية وبرزت

(١) مقدمة كتاب «نحو الحضارة الكبرى» لمحمد رضا بهلوى، نقلا عن الحوادث اللبنانية، العدد السابق.

شكوكها تجاه البهائية، أن تعطلت وسائل الاتصال فى الجيش.

كما تعاونت إيران الشاه مع إسرائيل إلى أبعد الحدود، وتحدت شعور العرب، وأمدت إسرائيل بأغلبية ما تحتاجه من بترول، ووصل التعاون إلى درجة أن «السافاك» والمخابرات الإسرائيلية «الموساد» تعاونتا إلى أبعد الحدود، كما تعاونت السافاك مع المخابرات المركزية الأمريكية، واختارت حكومة الشاه بعض الضباط، ومنهم ضباط من أفراد الحرس الجمهورى، وأرسلتهم للتدريب فى إسرائيل، وكانت إحدى نتائج هذه الخطوة هى تشجيع العرب للمعارضة الإيرانية، كما سنرى فيما بعد عند قيام الثورة الإسلامية.

وقد قامت أجهزة الإعلام الغربية والصهيونية بحملة ترويج واسعة النطاق لحكم الشاه، على أنه النموذج الذى يجب على دول العالم الثالث أن تقتفى أثره، وخاصة فى الإعلام الأمريكى المسيطر عليه اليهود، فهو فى نظرهم الحكم المستقر القوى المصلح المتفتح غير المتعصب المسلم، صديق الولايات المتحدة وإسرائيل، وكان ذلك بسبب أن الصهيونية راضية على نظام حكم الشاه، وسياسته المعترفة بإسرائيل، وعلاقته السياسية والاقتصادية الوطيدة بها، وإنقاذه إياها من الحصار الاقتصادى العربى المفروض حولها من العرب، ولما كان اليهود يتحكمون فى الإعلام العالمى والأمريكى بصفة خاصة، فقد عملوا له هذه الدعاية الجبارة مدفوعة الثمن بطبيعة الحال، وظهر أخيراً ما هو أدهى وأمر، أن هذه الدعاية الإعلامية للشاه كانت

مدفوعة الثمن للصحفيين بعملة غالية، يسيل لها لعاب الصحفيين، وهى السجاد العجمى الفاخر، الذى كان يقدمه القصر لهم، وشهدعلى ذلك شاهد من أهلها أخيراً، وهو مساعد مدير الشئون الصحفية الإيرانى، كما أعلن ذلك مؤخراً(١).

---

(١) الحوادث، عدد ١١٥٨، بتاريخ الجمعة ١٢ من يناير ١٩٧٩.

الفصل الثانى

الثورة الإسلامية فى إيران

الثورة الإسلامية فى إيران

على الرغم من أن الشاه محمد رضا بهلوى، حاول فى العقود الثلاثة الأخيرة من حكمه أن يجعل من إيران قوة كبرى، بالاعتماد على موارد البترول الضخمة، إلا أن معارضة رجال الدين له ظلت قائمة، وزادها اشتعالا تلك العوامل التى سبق أن أشرنا إليها فى الفصل السابق، وهى تكميم الأفواه بجهاز السافاك، ومحاولة الشاه ربط النهضة الإيرانية الأخيرة بإحياء الفارسية القديمة والعلمانية الأوربية، والتعاون مع الصهيونية العالمية، رغم تعاطف الشعب الإيرانى مع أخوانهم العرب ومناصرتهم لقضية فلسطين.

وبدأت المعارضة تحلل أسباب فشلها على أيام حركة مصدق وآية الله كاشانى، فاستخلصت أن الفشل يرجع إلى اعتماد الثوار على الجهاز الحكومى القائم، وعلى العملية الديمقراطية فى انتخاب رئيس الوزراء عن طريق مجلس النواب، فعلى الرغم من أن رجال الدين احتلوا أغلبية المقاعد فى أيام مصدق، وكان آية الله كاشانى رئيساً لمجلس النواب، إلا أن ذلك لم ينقذ البلاد، وقررت المعارضة السرية فى إيران أن لابد من مواجهة العنف بالعنف، فذلك هو السلاح القوى لمن يريدون تغييراً، وبدأت الجمعيات السرية فى الانتشار، وكان من أهمها:

(١) **مجاهدى خلق** التى تأسست فى أواخر الخمسينيات، وتشكلت من بعض عناصر الجبهة القومية التى تم حلها وحظر نشاطها، وكانت ذات ملامح إسلامية، وتبنت العديد من الأفكار

التقدمية الشائعة فى العالم الثالث.

(٢) **فدائيان خلق** وهى جماعة ماركسية الاتجاه بشكل واضح، وتعد الوريث لحزب توده الذى تلاشى تقريباً وقتلته الحكومة قتلا، كما سلف أن ذكرنا.

وسلكت هاتان المنظمتان مسلكاً إرهابياً كسلاح ضد إرهاب السافاك للمعارضة، وتمكنتا من البقاء على الرغم من اختراق السافاك لصفوفهما، وأصبحت فدائيان خلق أكثر فاعلية، عندما اتصلت بمنظمة فلسطينية هى «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، التى يشرف عليها جورج حبشى، وقامت الجبهة الشعبية بتدريب أعضاء «فدائيان خلق» فى لبنان.

واتصلت بعض الجماعات من المعارضة(١) الإيرانية بحكومة

---

(١) كان فى إيران بجانب (مجاهدى خلق و(فدائيان خلق) عدة أحزاب علمانية أهمها: ١- حزب إيران ٢- حزب الأمة الإيرانى

٣- حزب الشعب الإيرانى

٤- حركة تحرير إيران التى كان يقودها مهدى بازرجان وآية الله طلقانى وانفصلت الحركة الأخيرة عام ١٩٦١ عن الجبهة الوطنية لأنها طالبت بالتأكيد على القيم الإسلامية.

وهناك أحزاب إقليمية فى إيران، مثل:

١- رابطة شعب بلوشستان ٢- جمهورى خلق مسلمان أذربيجان

٣- جبهة تحرير الأهواز ٤- الحزب الديمقراطى الكردستانى

انظر: قدرى قلعجى، الشاه الطريد، الحوادث، عدد ١٢٢٦، بتاريخ ٢/٥/١٩٨٠.

الثورة المصرية حوالى خمسين فرداً، على رأسهم إبراهيم يزدى وصادق قطب زاده الذى تولى وزارة خارجية إيران فى حكومة الثورة، ومصطفى الشمرانى ممن تقلدوا مناصب قيادية بعد الثورة، وقد حضر هؤلاء إلى القاهرة للتدريب على السلاح، وتم إرسالهم إلى معسكر أنشاص خارج القاهرة، وهى ضيعة كانت للملك فاروق، وقد أعدتها حكومة الثورة لكى يتلقى فيها جماعات جبهات التحرير المختلفة تدريبهم، وهناك التقوا بجماعات من الفلسطينيين والأرتريين وغيرهم من الأفارقة، كما أرسلت مصر أيام عبدالناصر مساعدات مالية لأسر الذين قتلهم الشاه، وتجاوب عبدالناصر مع رسالة بعثها إليه آية الله الخمينى، يطلب منه مساعدة هذه الأسر (١).

المعارضة الإسلامية فى قم

ونظراً للمراقبة الشديدة التى يتعرض لها المعارضون لحكم الشاه فى طهران، واستمرار الضغط عليهم، فقد هجروا المدينة تماماً، وتمركزوا فى مدينة «قم»، وعلى الأخص المعارضة الإسلامية، وهى القوة الرئيسية (٢)، ومدينة قم هى العاصمة الدينية فى إيران، وهى التى دفنت فيها أخت الإمام جعفر الرضا، فاطمة

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٩٨.

(٢) المعارضة الإسلامية قديمة فى إيران من أيام أسرة القجار كما سلف أن أوضحنا.

المعصومة، سنة ٢٠١هـ (٨١٦م)، وقد اهتم الصفويون بهذه المدينة منذ أن أسسوا دولة شيعية فى فارس فى القرن العاشر الهجرى، فأحاط الشاه عباس الأول (٩٩٨- ١٠٣٩هـ) قبر فاطمة المعصومة بآيات من فن العمارة الإسلامى، وأصبحت المدينة مركزاً للدراسات الإسلامية، وملتقى العلماء ومثوى الأتقياء الذين يفضلون أن يدفنوا فيها، ويشعر الزائر للمدينة بهالة من القداسة تحيط بالمكان، ولجأ رجال الدين إلى قم ليكونوا بعيداً عن أعين الرقباء من رجال السافاك.

وفى «قم» برز من بين رجال الدين زعيم قوى هو «آية الله روح الله موسوى الخمينى»، الذى يرجع أصله إلى قرية خمين التى تبعد ٨٠ ميلا جنوب غربى مدينة قم، وقد ولد عام ١٩٠٢ من والد يدعى مصطفى موسوى من رجال الدين، وقد مات والده مقتولا بيد بعض الإقطاعيين، لأنه كان يدافع عن حقوق الفلاحين، وذلك بعد ميلاده بأقل من عام، وماتت أمه سنة ١٩١٨، والتحق الخمينى منذ صغره بالمدارس الإسلامية فى مدينة «أراك» وفى مدينة «قم»، وكان فقير الحال لدرجة أنه كان ينام فى المسجد الذى يتلقى فيه دروس العلم، وسرعان ما أتم دراسته، وحصل على شهادة فى الفلسفة الإسلامية والمنطق، وبدأ فى إلقاء دروسه على أيام الشاه رضا بهلوى، ونظراً لأنه كثير التعرض للأمور السياسية، فقد وجد متابعة له من «المخابرات الخاصة برضا بهلوى»، ثم بعده من السافاك التى أنشأها محمد رضا بعد ذلك، وبلغت قمة إيذائه عندما قتلت أحد أبنائه ويسمى مصطفى فيما بعد.

ونظراً لجرأة الخمينى فى حوزته (أى حلقته التى يلقى فيها دروسه)، بدأت السافاك ترصد تحركاته، وعلمت بمبلغ من المال (١٥٠ ألف دولار) أرسله عبدالناصر إلى أسر الأرامل واليتامى(١) من منكوبى حكم الشاه، فأراد الشاه استغلال هذا الحادث فأذاع خطاباً توجه به إلى القيادات الدينية فى إيران، يسألهم عن رأيهم فى زعيم دينى (دون أن يصرح باسم الخمينى) يأخذ مالا من غير الشيعة، ولم يسكت الخمينى، ورد على الشاه فى «حوزته» فى اليوم التالى، قائلا «لقد آن الأوان لأن تنتهى «التقية» وأن نقف ونعلن ما نؤمن به».

ثم اقتبس جزءاً مما قاله الشاه فى الإذاعة وعلق عليه قائلا «أنا لست فى حاجة إلى نقود، فالهبات التى تجىء من حوزتى تغطى كل احتياجاتها، والنقود التى أرسلها الرئيس جمال عبدالناصر لم تكن مرسلة لى، وإنما للجنة المساعدات، لسد احتياجات الأرامل والأيتام، هؤلاء الذين ترملوا وتيتموا من جراء حكم الشاه وحكم أبيه من قبله، وإننى أنتهز هذه الفرصة لأعلن نهاية التقية»(٢).

---

(١) أرسل عبدالناصر هذا المبلغ (كما ذكر محمد حسنين هيكل دون تحديد للسنة التى أرسله فيها) عن طريق عبدالحميد السراج رئيس جهاز المخابرات فى ذلك الوقت. وأخذه شخص لبنانى وغادر مطار بيروت. ولكنه قبض عليه فى مطار طهران ووقع فى يد المخابرات الإيرانية، التى أبلغت الشاه بدورها. محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص١١٥.

(٢) المرجع السابق، ص١١٥- ١١٦.

وبهذا الإعلان أصبح الخمينى أول زعيم شيعى يستنكر التقية، ويهاجم الشاه علناً وبشكل مباشر، وعندما أعلن الشاه ثورته البيضاء سنة ١٩٦٢، التى سبق أن أشرنا إليها، هاجمه الخمينى، فحاولت أجهزة الدعاية الشاهانية إبرازه على أنه معاد لحقوق المرأة لأن الشاه كان يتيح للنساء حق الانتخاب وحق الترشيح، واستعان الخمينى بالعناصر الشابة من رجال الدين، فبدأت تلتف حوله، وكان الخمينى ينظر إلى مفهوم الحضارة الغربية بمنظار يختلف عن الشاه، فهو يقول «إن الكلام عن أن الشاه أراد أن ينقل الحضارة الغربية إلى إيران كذب محض، ولقد خان الشاه بهذا الكذب الشعب الإيرانى، كما أهان الغرب، وما كان يحاول ترويجه باسم الحضارة الغربية ليس إلا إشاعة الفساد، وتفريغ الإنسان من هويته ومقومات وجوده، وضرب المثل والقيم الإنسانية تحت شعار الحضارة الغربية» (١)، كان معنى ذلك أن الخمينى يوضح له أن هناك فرق بين جوهر الحضارة وبعض مظاهر الفساد فيها.

وتقدم الخمينى ومن ورائه الجماهير وخاصة الشباب، خطوة إلى الأمام فى معارضته، فقدم عريضة إلى الشاه وقع عليها معه رجال الدين الشبان، طلب فيها من الشاه تحطيم سلاسل العبودية مع أمريكا، وعدم التضحية بمصالح الشعب من أجل مصالح الصهيونية وأمريكا، وأن يحترم حرية المسلمين، وألا يفرض حكمه بالرصاص،

(١) حسن الزين، الثورة الإيرانية فى أبعادها الفكرية والاجتماعية، ص٢٥، قدرى قلعجى، الشاه الطريد، مرجع سبق ذكره، ص٥١.

وخداع الناس بالانتخابات والثورة البيضاء، وأن يستخدم ثروة البلاد المتزايدة لمكافحة الفقر والجهل، فأرسل الشاه إليه أحد رجال السافاك يصحبه أحد رجال الدين، يخبره أن يكف عن مهاجمة الشاه وإسرائيل وأمريكا، وله أن يخوض فى أى شىء آخر.

ومع ذلك لم يخش الخمينى، ففى اليوم التالى أذاع فى مسجد فاطمة كل ما دار بينه وبين رسول الشاه، ثم تساءل «ما معنى هذا؟ لماذا لا يسمح لى بمهاجمة إسرائيل؟ هل الشاه والد إسرائيل أو أم إسرائيل؟ ولماذا لا يسمح لى بمهاجمته شخصياً؟ هل هو على؟ كلا إنه إنسان يخطىء، وإذا أخطأ نقول له أنه أخطأ، مثلما نقول له أنه أصاب عندما يفعل الصواب، وما كل هذا بخصوص الولايات المتحدة؟ هل من المفروض أن نمجد من يستعبدوننا، ومن حطم احترام أمتنا لنفسها».

هاجم الخمينى غيره من رجال الدين الصامتين، وقال «أما أن ينضم إلينا كل رجال الدين، وإلا فهم أسوأ من المرتدين، وإن لم يتكلموا جهاراً، فمعنى هذا أنهم قد اختاروا جانب الشيطان»، وختم الخمينى حديثه بموعظة متوجهاً للشاه، وقال له «لم أعد قلبى لتقبل إنذارك، وإنما أعددته لتلقى رماحك»(١).

ولقد نجح الخمينى فى خطته ضد الشاه، لأنه كان يعارض العنصرية التى أحياها الشاه، فخطة الشاه هى إحياء الامبراطورية الفارسية التى تصلها بالعرقية الآرية، وتربط البلاد بالنفوذ الأجنبى،

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص١١٧- ١١٨.

أما رجال الدين والخمينى فقد تحدثوا عن الرابطة الإسلامية، التى تربط جميع الأجناس سواء الأكراد او العرب أو التركمان وغيرهم فى إطار واحد، لا فرق لأحدهم على الآخر إلا بالعمل الصالح، ومن ثم تجمعت حوله كل الأقليات غير الفارسية فى إيران، لأنه يحدثهم بلغة معروفة لديهم، وهى الرابطة الإسلامية، التى يكون فيها المسلمون كالجسد الواحد، مهما اختلفت أجناسهم، ولو كانت الثورة الخمينية -كما قالت البرافدا وغيرها من جرائد الغرب- فى بداية الأحداث مجرد حركة رجعية تعارض الإصلاح الزراعى، لأنه شمل الأوقاف الإسلامية الشيعية، التى تؤلف ١٥ فى المائة من أراضى إيران، لما استطاعت أن تحتوى المعارضة الإيرانية كلها بجميع فئاتها، وأن تحشد الأمة بكافة طبقاتها، ولكن هذه الثورة حين طرحت شعار إسقاط النظام، حين تجاوبت البلاد مع هذا الشعار من أقصاها إلى أقصاها، إنما كانت تمثل فى أذهان الناس محاربة خطة الشاه، التى تفرض عليها الاغتراب عن عقيدتها (١).

وفى شهر مارس عام ١٩٦٣ هاجمت قوات الشاه السرية وعملاؤه المدرسة الفيضية التى تعود الخمينى أن يلقى فيها موعظة بمناسبة الذكرى السنوية لموت جعفر الصادق، وقتلت حوالى ٢٢ شخصاً، وقبضت على عدد أكبر، وعندما علم آية الله الحكيم الذى يعيش فى العراق بما حدث لزملائه، اتصل بهم وطلب منهم الحضور إلى كربلاء والنجف بعيداً عن اضطهاد الشاه، وأعلنت السلطات

(١) قدرى قلعجى، الشاه الطريد، الحوادث، عدد ١٢٢٦، بتاريخ ١٩٨٠/٥/٢.

استعدادها لتسهيل مهمة من يريد الرحيل عن البلاد، ولكن الخمينى رد على الشاه بقوله «لن أتخلى عن مسئولياتى بعون الله، وإذا كان لنا أن نموت فسنكون من الشهداء، وإذا كتبت لنا الحياة فسنكون من الظافرين» (١).

وإزاء هذا كان لابد من القبض على الخمينى، وكان الخمينى قد ألقى موعظة فى ٥ يونيو عام ١٩٦٣ بمناسبة مرور أربعين يوماً على استشهاد الشباب بسبب الهجوم على المدرسة الفيضية، وحشدت الحكومة قواتاً كبيرة فى مدينة قم، وألقى الخمينى أعنف كلمات وجهها للشاه حتى هذا التاريخ، فقال «استمع إلى نصحى، استمع إلى أولئك الذين تهمهم مصالح الشعب بشكل حقيقى، استمع أيها البائس العليل، لقد عشت حتى الآن خمساً وأربعين عاماً فى هذه الدنيا، فلتتوقف هنيهة ولتتأمل ماذا قدمت لبلدك، وليكن مصير أبيك درساً تتلقنه، تتهمنا بالرجعية إنما أنت الرجعى الأسود»، وأكمل حديثه وهاجم الشاه فى سياسته تجاه أمريكا وإسرائيل، فتحرك البوليس وقبض على الخمينى، فاندلعت المظاهرات على الفور فى قم وطهران، وامتلأت الشوارع بالدبابات والمدافع، وقتلت عشرات المتظاهرين، وقام أحد طلبة المدرسة الفيضية باغتيال حسن على منصور رئيس الوزراء.

وزادت الأزمة بينما كان الخمينى قد أودع السجن فى طهران، فتحرك آيات الله الآخرين بزعامة شريعة مدارى، وكان الخمينى لم

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٢٠.

يحصل على درجة آية الله العظمى، وكان قد قدم رسالة إلى اللجنة المختصة من العلماء، وكانت قيد الفحص وهى بعنوان «تحرير الوسيلة»، فوافقت اللجنة على الرسالة، وحصل الخمينى على لقب «آية الله العظمى»، وكانت قوانين البلاد تمنع القبض على من يحمل هذا اللقب العلمى والدينى، وأصبح استمرار حبسه قضية حساسة، فقررت السلطات التخلص منه وإخراجه من البلاد، فحملته سيارة ورمته على الحدود التركية فى منطقة مهجورة، لكنه نجح فى عبور الحدود من تركيا إلى النجف، ولحقت ب أسرته فيما بعد.

وتم التخلص من كثير من أنصاره فى قم بالقتل والسجن والتشريد، وخضعت قم إلى حين، ولجأ الشاه إلى إجراء كثير من الاستفتاءات المزيفة لإظهار حكمه بالطابع الديمقراطى أمام العالم الخارجى، لكن التقارير كانت مزعجة لدرجة أحرجت أنصاره فى أمريكا والغرب، واختلفت الآراء حول الأعداد المودعة فى سجون الشاه، فقد اعترف الشاه فى سنة ١٩٧٧ بأن هناك ٢٢٠٠ سجين سياسى، فى حين ذكرت هيئة المحلفين الدولية بأن عدد المسجونين يتراوح بين ٢٥ ألف ومائة ألف سجين(١).

وقبض الشاه بيد من حديد على البلاد، وبدأ الخمينى يتصل بأنصاره وبالشعب عن طريق إرسال الشرائط المسجلة، فكان يهاجم الشاه فى العراق، ثم ترسل الأشرطة إلى إيران وتوزع، فيزداد غضب الجماهير، وكان المريدون يتحلقون لسماع صوته وانضم إليهم غيرهم

(١) الحوادث، عدد ١٢٢٦، بتاريخ ٢ مايو ١٩٨٠، ص٥٣.

وسرعان ما تحولت تلك الرسائل على الكاسيت إلى رسائل سياسية، وطبع منها الآلاف وتم تداولها خارج مدينة قم، وفعلت هذه الرسائل فعلها القوى فى البلاد(١)، ورغب الشاه فى أن يضغط على العراق بشأن نشاط الخمينى فى النجف، لكنه لم يتمكن من ذلك قبل سنة ١٩٧٥، ففى هذه السنة تمت اتفاقية بين العراق وإيران وسويت المشاكل إلى حين، وتعهدت كل من العراق وإيران بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للبلد الآخر.

وفى سنة ١٩٧٧ طلبت السلطات العراقية من الخمينى إما أن يتوقف عن دعوته للثورة أو يرحل عن البلاد، لأن إيران طلبت تنفيذ بنود اتفاقية سنة ١٩٧٥، واستعد الخمينى لمغادرة العراق إلى فرنسا، وبينما هو يستعد للرحيل روعته السافاك فى سبتمبر عام ١٩٧٧ بقتل ابنه مصطفى، الذى كان يقوم بدور رئيسى فى حمل رسائل والده المسجلة إلى إيران، وتمالك الخمينى نفسه وواصل معركته ضد نظام الشاه، وأصدر أربعة تعليمات إلى الإيرانيين:

(١) أن يقاطعوا المؤسسات الحكومية طالما أن الحكومة لا تستطيع أن تزعم أنها حكومة إسلامية.

(٢) أن يسحبوا كل أشكال التعاون مع الحكومة.

---

(١) وبعد نجاح هذا الأسلوب من التوعية الثورية أضحى يدرس فى المعاهد السياسية فى الغرب على أنه مجال جديد وفريد من نوعه وأطلقوا عليه Cassette Revolution أى الثورة عن طريق شرائط الكاسيت، أو الثورة عن طريق الخطابات المسجلة.

(٣) ألا يسهموا فى أى نشاط قد يفيد الحكومة.

(٤) أن يقيموا مؤسسات إسلامية جديدة فى كل المجالات الاقتصادية والمالية والقضائية والثقافية.

الخمينى فى فرنسا

وغادر الخمينى العراق فى ٦ أكتوبر عام ١٩٧٧ إلى باريس، واستقر فى ضاحية «نوفل لى شاتو» التى تبعد ٢٠ ميلا غربى باريس، وقد قامت لجنة الطلبة فى باريس باستئجار فيلا له فى هذه الضاحية على حسابها، وقامت بترتيب رحلته إلى باريس، وقاموا بحراسته خوفاً على حياته أثناء إقامته فى فرنسا.

الثورة تنتقل إلى جميع أنحاء إيران

وسادت إيران فى عام ١٩٧٨ حالة من الفوضى بسبب كثرة المظاهرات، ولم تعد مدينةقم وحدها هى الثائرة، وإنما انتقلت الثورة إلى جميع المدن الإيرانية، وعلى الأخص طهران، وبدأت الاضطرابات فى كثير من المواقع، فزلزلت الأرض من تحت أقدام الشاه وحكومته، وكثر تمرد بعض كتائب الجيش وفرار بعضها، لأن الخمينى عمل على مخاطبة الجيش، وطالبهم فى خطبه بألا يخدموا فى جيش الشاه، وهم جنود الله المستضعفين، وينبغى عليهم ألا يطلقوا النار على أخوانهم من المسلمين «لأن كل رصاصة تصيب قلب مسلم، هى أيضاً رصاصة تصيب قلب القرآن، يجب أن يعودوا إلى قراهم ولأسرهم وأراضيهم، يجب أن يرجعوا إلى المسجد إلى

الله»، وأخذ الخمينى يحثهم على أخذ أسلحتهم معهم عند الهرب، ورسم لهم خطة الهروب، فقال « فلتتركوا الجيش بأعداد صغيرة وأسلحتكم معكم، فهى أسلحة الله».

ودعا الخمينى إلى تكوين لجان ثورية «فليكن كل مسجد لجنة ثورية»، وفى يناير عام ١٩٧٨ كانت مدينتى «قم» و«مشهد» مسرحاً لأحداث دامية، هى بداية الانتفاضة فى إيران، بسبب أن إحدى صحف الحكومة تتهجم على آية الله الخمينى، فثار الناس وخرجوا بعد صلاة الجمعة مستنكرين، فى مظاهرات ملأت شوارع قم ومشهد، وعلى طريقة السافاك واجه الرصاص المتظاهرين وسقط كثيرون، قدرتهم بعض المصادر بسبعين قتيلا، وذكرت مصادر أخرى أن الشرطة منعت الدم عن الجرحى فمات منهم كثيرون(١).

والذى زاد من حدة غضب الجماهير، أن الشاه اتهم المتظاهرين بأنهم شيوعيون سود (نسبة لأردية رجال الدين السوداء)، خرجوا احتجاجاً على تحرير المرأة والإصلاح الزراعى، فتعمد الشاه الكذب على الشعب، والشعب يعرف الحقائق فزادت غضبته، وزاد خوف الشاه بعد أن اطلع على الموقف بنفسه خلال جولاته بالطائرة المروحية فى سماء العصمة طهران، ومعرفته بالأعداد الحقيقية التى كانت تملأ الشوارع، فأصدر أوامره بألا يدخل عليه أحد إلا بعد التفتيش حتى الامبراطورة، ولعل ذلك كان بسبب رغبة الامبراطورة فى أن يتنازل الشاه عن العرش لابنه، خوفاً من عواقب الأمور

(١) عبدالمنعم سليم، مجلة الدعوة المصرية، عدد ذو الحجة ١٣٩٨هـ، مقال بعنوان «الثائرون فى إيران سود ماركسيون أم مسلمون ايرانيون».

المرتقبة، وضياع العرش من الأسرة نهائياً، وكان الشاه له رأى آخر، هو أن يصمد خوفاً من أن يفسر الثوار هذا العمل ضعفاً من جانبه فيضيع كل شيء.

خوف إسرائيل

وكانت أمريكا وإسرائيل فى هلع شديد لأن الثوار إزدادت علاقتهم بمنظمة التحرير الفلسطينية، التى كانت تقوم بتدريبهم وتزويدهم بالأسلحة، وكان بعضهم فى حراسة الخمينى فى باريس وكانت خسارة إسرائيل من جراء سقوط الشاه أفدح من خسارة أى طرف آخر، فقد كان يمدهم بالبترول، ويتبادلون معه المعلومات حول البلاد العربية، وكان حجم التجارة بين البلدين يصل إلى ٤٠٠ مليون دولار سنوياً، وكانت إيران عميلا جيداً فى شراء السلاح من إسرائيل، وكانت سفارة إسرائيل فى طهران عبارة عن قلعة، فكانت محاطة بالمتاريس ومزودة بأبواب حديدية، كما كان يوجد طريق للهرب فى حالة الطوارىء، عبارة عن سلم حديدى يؤدى إلى سطح المبنى، ومنه إلى مبنى مجاور يمكن النزول عن طريقه إلى شارع آخر، وقدم الإسرائيليون بعض التقارير عن الوضع فى إيران، وعن المخاوف التى تساورهم بشأن الأحداث الجارية، ولكن الشاه لم يستمع إليهم، ونصحهم بعدم نشر مثل هذه الشائعات التى تثير الذعر فى الناس(١).

وفى أغسطس عام ١٩٧٨ وقعت حادثة مروعة، فقد شب

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص١٩٧- ١٩٨.

حريق فى سينما مزدحم بالرواد فى (عبدان) مدينة البترول، ومات ٤٢٠ من جراء الحريق، وألقت الحكومة المسئولية على عاتق ما سموه بـ«العناصر الإسلامية الماركسية»، ولكن تذكر بعض المصادر المطلعة أن الحريق من تدبير السافاك لإدخال الرعب فى قلوب الطبقة(١) التى تقف بجانب الشاه، وشهدت عبدان بعد الحريق اضطرابات عنيفة معادية للحكومة، حيث هوجمت المبانى الحكومية، ونادى المتظاهرون بموت الشاه، وتحركت قوات الشاه لاطلاق الرصاص على المتظاهرين.

محاولة التراجع المتأخرة

استقر رأى الشاه على أن يجرى تغييرات تتعلق بالحريات بممارسة نشاطها، ومن أجل ذلك قام بتعيين رئيس جديد للوزراء هو جعفر شريف إمامى فى أول سبتمبر عام ١٩٧٨، وقد اختاره الشاه على أساس أنه يتمتع بعلاقة طيبة برجال الدين، ولكن بعد فوات الأوان.

وعلى الفور أعلن «إمامى» برنامجه لتهدئة الخواطر، وهو:

(١) الإفراج عن المسجونين السياسيين.
(٢) زيادة المرتبات الحكومية بنسبة ٤٠٪.
(٣) السماح للأحزاب السياسية الشرعية بممارسة نشاطها.
(٤) إجراء انتخابات جديدة.

(١) المرجع السابق، ص٢٠٢.

(٥) احترام حقوق الإنسان.

(٦) قيام حملة تطهير لحزب الحكومة ضد الفساد.

وحاولت الحكومة إرضاء رجال الدين، فألغت فى التشكيل الجديد وزارة شئون المرأة التى أقامها الشاه، وتم إلغاء التقويم الامبراطورى الفارسى الجديد والعودة إلى التقويم الهجرى(١).

لكن الوقت كان متأخراً، فقامت مظاهرة عنيفة فى طهران، تطالب بخلع الشاه، وقيام الجمهورية الإسلامية وعودة الخمينى من المنفى، وكانت هذه أول مرة تصل فيها المظاهرات إلى هذه الجرأة، فأعلنت الحكومة الأحكام العرفية فى ١٩٧٨/٩/٧، وزادت المصادمات والمظاهرات لدرجة أزعجت أمريكا وإسرائيل والشاه، فاضطر الشاه إلى اختيار حكومة عسكرية على رأسها الجنرال (غلام رضا أزهوى)، رئيس أركان القوات المسلحة ووافقت أمريكا، واحتلت القوات العسكرية مواقعها فى طهران، ومحطة الإذاعة ودور الصحف فى ٦ نوفمبر عام ١٩٧٨.

وحاول الشاه تهدئة الخواطر، فأعلن على الشعب أنه ينوى محاربة الفساد والظلم، وأن الحكومة العسكرية مؤقتة، لكن هذه المحاولات كاانت بمثابة محاولة لإنقاذ حكمه، بينما هو يهوى بشدة من أعلى القمة، ولا يستطيع أحد إنقاذه إلا بمعجزة، وبدأت أمريكا فى الاتصال بالمعارضة المدنية والدينية، وعمل الشاه نفس الشىء،

(١) عبدالمنعم سليم، مجلة الدعوة المصرية، عدد ذى الحجة ١٣٩٨هـ، مرجع سبق ذكره.

فاتصل بـ(كريم سنجابى) زعيم الجبهة الوطنية ومن أنصار مصدق، وممن سجنوا بعد القضاء على حركته، وطلب منه الشاه تكوين حكومة قومية، فرفضت الجبهة الوطنية أن يكون ذلك فى ظل الأحكام العرفية، وعول عليه الشاه فى الاتصال بالخمينى فى باريس، فلم يتراجع الخمينى، فقبضت الحكومة على سنجابى لأنها شكت فى نواياه عقب عودته من باريس فى ١٠ نوفمبر عام ١٩٧٨ (١).

وبدأت الحكومة تضحى ببعض من كانت تشير إليهم أصابع الاتهام فى مجال الفساد وظلم الشعب، ففى ٧ نوفمبر قبضت على الجنرال ناصرى رئيس السافاك، وبعده قبضت على (أمير عباس) الذى ظل رئيساً للوزراء ويقود مسيرة الظلم ١٢ سنة، وتم القبض على كثير من الموظفين الكبار وعلى عشرة من أصحاب الملايين، وأعلنت السلطات أنه سيتم محاكمة هؤلاء جميعاً بتهمة الفساد، وسيتم التحقيق مع أخوة وأخوات الشاه، فأرسل الخمينى إلى الشعب يحذرهم من ألا يخدعوا بمثل هذه المناورات، وقال لهم «إن الرجل الذى يجب أن يكون موضع التحقيق هو الشاه نفسه وليس أخوته وأخواته أو مؤسسة بهلوى، فلتقدموه للمحاكمة».

وحاولت الحكومة فرض حظر التجول فى البلاد فى أول محرم عام ١٣٩٩هـ، حيث تبدأ احتفالات الشيعة المعروفة فى الثلث

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٢١٢، وانظر أيضاً: إلياس حرفوش، واشنطن فى انتظار شاه إيران، مقال فى مجلة الحوادث، عدد ١١٥٨، ١٩٧٩/١/١٢.

الأول من محرم من كل عام، ويسودها الحزن ويعم الناس نوع من الفدائية، تذكراً لموقف الحسين بن على شهيد كربلاء فيتمنون الموت مثله، فأرادت الحكومة أن تدرأ هذه الموجة قبل وقوعها بفرض حظر التجول، لكن الخمينى أرسل إليهم بأن يتحدوا حظر التجول، فازدحمت الشوارع بالمتظاهرين، وسقط الكثير من القتلى، وتراجعت الحكومة فألغت حظر التجول، فتظاهر فى طهران وحدها يوم عاشوراء (١٠ من محرم عام ١٣٩٩هـ) حوالى مليون متظاهر.

وهنا اطمأن الخمينى إلى حجم الجماهير التى تطيعه، فبدأ يعد العدة لما بعد سقوط الشاه، فطلب من بازرجان الذى كان فى زيارته فى باريس، أن يعد له قائمة بأول وزارة لحكومة الثورة، وتم الاتفاق عليها، وعينه الخمينى ممثلا سياسياً له فى طهران، وطلب منه أن يذهب إلى المناطق البترولية فى الجنوب، وينظم اضراباً من عمال البترول، وتم هذا الاضراب بنجاح، الأمر الذى أحدث بحكومة الشاه ضرراً بليغاً.

موقف الروس والأمريكان

كانت روسيا ترقب الموقف بحذر شديد، وروح ملؤها الصمت والحيرة، لما يحدث من اضطرابات شعبية فى كل مكان، ونرى أمريكا وهى مرتبكة بشأن مصير الشاه، والخوف على ضياع مركزها فى إيران، وخافت روسيا من أى تدخل أمريكى مباشر، فنشرت البرافدا (الجريدة الروسية الناطقة بلسان الحكومة) تحذيراً من بريجنيف بأن أى تدخل من جانب الولايات المتحدة فى شئون

إيران الداخلية، سوف ينظر إليه الاتحاد السوفيتى على أنه يؤثر على مصالحه الأمنية، واستمرت روسيا فى تأييد حزب توده الشيوعى، وكانت ترى أن الحركة الشعبية فى إيران يتزعمها رجال الدين، وهذا لا يسرها، لأن الدين فى نظرها رجعى، فلم تكن راضية بهذه الحركة، على الرغم من أنها شعبية، وهى تدعى أنها تناصر الحركات الشعبية، وهو لاشك تناقض واضح.

وحاول الشاه عندما اشتدت به الأزمة، أن يستعين برأى السفير الروسى فى طهران (فينوجرادوف) فيما يحدث، فأخبر الشاه بأن ذلك هو الصراع الطبقى بين الفقراء والبرجوازية الإيرانية، وازداد نشاط الشيوعيين فى إيران فى تلك الآونة، وأشار البعض إلى خطورة الموقف، فربما يركب الشيوعيون الموجة، ويقطفون ثمرة الثورة من بين أيدى الجماهير الثائرة فى النهاية، وتتعرض بذلك الثورة الإيرانية إلى انتكاسة ثورية عندما يفرض الشيوعيون أنفسهم(١)، وبدأت تظهر على جدران مدينة طهران شعارات «الجمهورية الشعبية» بدلا من «الجمهورية الإسلامية» وهو شعار الخمينى، وزاد توزيع الكتب الماركسية، وبدأت عناصر المخابرات الروسية تدخل إيران عن طريق أفغانستان، لكى ينظموا أتباعهم(٢).

أما أمريكا فإنها كانت ترقب الموقف فى أسى، وتتخبط فى

---

(١) احسان عبدالقدوس، من مقال له بعنوان «حتى نخرج بسلام بين روسيا وأمريكا»، جريدة الشرق الأوسط التى تصدر فى لندن باللغة العربية، عدد ١٨١١٦، ١٩ يناير ١٩٧٩.

(٢) إلياس حرفوش، مجلة الحوادث، عدد ١١٥٨، مرجع سبق ذكره.

نصائحها للشاه، فمرة تنصحه بحكومة دستورية، وإعطاء شيء من الحريات للشعب، ومرة تدفعه إلى تكوين حكومة عسكرية، وفى النهاية عندما اتضح لها قوة الثوار، رأت أن كل هذه الحلول لم تعد مقبولة، وأنه لابد من رحيل الشاه، فأبرق السفير الأمريكى إلى حكومته قائلا «إن الشاه لابد أن يرحل»، وبدأت أمريكا فى الاتصال بالمعارضة المدنية سراً، فاتصلت بـ(مهدى بازرجان) الذى كان ينتمى إلى الجبهة الوطنية، وسبق أن ألقت الحكومة القبض عليه، عندما أعلنت الأحكام العرفية، وكان يتمتع بثقة الخمينى ورجال الدين، لأنه اختلف مع الجبهة الوطنية، وكانت له أفكار إسلامية، تتصل بالإصلاح الإسلامى والحكومة الإسلامية، فأفرجت الحكومة عنه بإيعاز من أمريكا، على أمل أن يتصل بالخمينى، ولكن الخمينى ظل على موقفه، وعاد بازرجان إلى طهران.

وظل الأمريكان على اتصال بـ(مهدى بازرجان)، الذى كان يؤكد لهم أنه لابد أن يختفى الشاه، وأعطى الأمريكان لمهدى بازرجان حرية فى الاتصال برجال الدين لمعرفة مطالبهم، فاتفق مهدى بازرجان مع رجال الدين على نقاط ضرورية، أهمها أن يغادر الشاه البلاد، ويتكون مجلس وصاية، وتشكل حكومة قومية، ويحل مجلس النواب، وتجرى من جديد انتخابات حرة، وعرض بازرجان نتيجة مفاوضاته على الخمينى، ولكنه رفض لعدم ثقته بأمريكا، وقال إن هذه المفاوضات خدعة.

وخافت أمريكا على مصالحها فى إيران، وأضحى الوجود

الأمريكى فى البلاد مهدداً من الطبقة الشعبية، التى تكره الطبقة الرأسمالية فى إيران، لأنها تعتمد على أمريكا، وتعتمد عليها أيضاً أمريكا فى تعاملاتها التجارية(١)، وكانت قمة الخوف الأمريكى هو اتصال رجال السفارة الأمريكية فى باريس بالخمينى نفسه، وذلك بعد فترة طويلة من التكبر الأمريكى الذى انهار وسط موجة من الكراهية، لكل ما هو أمريكى وإسرائيلى فى إيران(٢).

وقدمت السفارة الأمريكية فى باريس تنازلات للخمينى، منها السماح له بالعودة إلى إيران، ومنحه مكاناً رئيسياً فى حكومة، يختار أعضاءها بنفسه، ولكن الخمينى كان يشك فى نوايا أمريكا، فرفض كل حديث عن الإصلاح السياسى فى ظل الامبراطورية القائمة.

وصفوة القول أن الأمريكيين بدأوا يبحثون عن بديل أكثر استقراراً من الشاه، وهم خائفون من الشيوعيين فى إيران، وزيادة النشاط الشيوعى، كما أنهم ليسوا مرتاحين فى الوقت ذاته لمعارضة الخمينى، الذى أعلن عن تصميمه على قطع البترول عن إسرائيل، وهو موردها الأساسى، وتقوم بينه وبين المقاومة الفلسطينية علاقات قوية، كما أن هناك علاقات قوية مع القذافى أيضاً.

والروس ليسوا أكثر ارتياحاً من الأمريكان إلى المعارضة الدينية فى إيران، لأن قوة هذه المعارضة ستغذى المسلمين فى الاتحاد

(١) المرجع السابق، نفس المقال.

(٢) إلياس حرفوش، مجلة الحوادث، عدد ١١٥٨، بتاريخ ١٢/١/١٩٧٩، مرجع سبق ذكره.

السوفيتى الذين يشكلون قوة إسلامية لا يستهان بها، وقيام جمهورية إسلامية على الحدود السوفيتية، ستكون له نتائج تهدد أمن الاتحاد السوفيتى، واستقرار العلاقات الروسية الإيرانية(١).

تعيين حكومة مدنية فى ظل الحكم العسكرى

فشلت الحكومة العسكرية فى قمع حركة التمرد المدنى والمظاهرات المدمرة وموجة الإضراب عن العمل التى عطلت سير الحياة العامة فى إيران، وأدركت الحكومة أنها بشأن إفناء شعب بأسره، وإزاء هذه الخطورة اضطر الجنرال غلام رضا أزهرى إلى تقديم استقالته والخروج من إيران، وفى ٢٩ من ديسمبر عام ١٩٧٨ عين الشاه «شاهبور بختيار» رئيساً للوزراء فى حكومة مدنية فى الظاهر، وحكم عسكرى فى الباطن، وكان بختيار عضواً فى الجبهة الوطنية، وكان مشتركاً فى المفاوضات مع الأمريكان التى يقوم بها بازرجان، وعندما رفض بازرجان المضى فى هذه المفاوضات بأمر من الخمينى لأنها خدعة، استمر بختيار فيها وكان يحظى بإعجاب الأمريكان، وانتهى به الأمر إلى أن قبل تشكيل الوزارة.

وحاول بختيار تنفيذ كل ما كانت الجماهير تنادى به، وطالب به الخمينى، ففى اليوم الأول لتعيينه قال «إن الشاه سيغادر البلاد، وأن «السافاك» ستحل، وأن الصحف ستصدر بدون مراقبة، وأن رجال الدين سيديرون أملاكهم بأنفسهم، وأعلن التوقف عن تزويد إسرائيل وجنوب أفريقيا بالبترول، وتبنى برنامج المعارضة

(١) المرجع السابق، نفس المكان.

الدينية كاملا، غير أن رجال الدين كانوا غير واثقين به، لأنه عمل من ورائهم، ويريد أن يسحب الثورة من أيديهم.

فأعلن الخمينى أنه لن يؤيد بختيار، لأن تعيينه غير شرعى، طالما أن الشاه هو الذى قام بتعيينه، وذكر أن التهديد بانقلاب عسكرى «لن يخيفنا لأن هناك انقلاباً قائماً بالفعل، فحكومة أزهرى كانت انقلاباً عسكرياً، وحكومة بختيار ما هى إلا واجهة لانقلاب عسكرى، وبختيار ألعوبة فى يد الجنرالات، وإذا تدخل الجيش فإن ذلك سيكون تحت قيادة أمريكا، فى هذه الحالة فإننا سنعتبر أنفسنا فى حالة حرب مع أمريكا»(١).

فهاجت الجماهير وهتفت فى شوارع إيران بسقوطه وعدم التعاون معه، وأعلنت أنها لا تعترف بأحد سوى الخمينى، وبذلك أصبح الخمينى هو رجل إيران الأول بلا منافس، ولابد من عودته من باريس، ليقود هذه الجماهير التى لا ترضى عنه بديلا، ومع ذلك ظل الأمريكيون يراهنون على بختيار كورقة أخيرة، وحاول بختيار مجابهة الظروف القاسية لبلاده وسط نار متأججة، وبات من الصعب على أى مسئول أن يهدىء من غلوائها إلا بشق الأنفس، وحاول بختيار أخذ موافقة من مجلس النواب للعمل بحرية، ولكن المعارضة لم تعط له الفرصة، وقررت الجبهة الوطنية طرده بمجرد عدم رضا الخمينى عليه.

وفى منتصف يناير وصل الوضع فى إيران إلى أسوأ حالة من

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٢٢٤.

التردى، ولم تعد مسألة قمع مظاهرات، وإنما بات الوضع ضمان فتح الأفران لإطعام الناس، وتأمين فتح المستشفيات، وتوفير الوقود لكل منزل، إلى هذه الدرجة من البساطة وصل المطلوب من أى رئيس حكومة مؤقت أو دائم، وأسرعت الحكومة الأمريكية تقدم النصيحة للشاه بصورة رسمية لحثه على مغادرة البلاد، وأعلن آية الله الخمينى فى باريس أنه يريد إلقاء القبض على الشاه وتقديمه إلى المحاكمة، وطافت المظاهرات فى شوارع طهران وغيرها من المدن الإيرانية، تتهم بختيار بالخيانة، وذكرت الشعب أنه قريب لبختيار مؤسس السافاك وخادم الشاه، وأعلن بختيار فى بعض أحاديثه الصحفية أن إيران سوف تضطر إلى إلغاء عقود السلاح المبرمة، وهى فى حدود المليارين، كما أعلن أن إيران فى عهد حكومته لن تمارس دور الشرطى فى الخليج(١).

وأعلن الدكتور كريم سنجابى (الذى تم الإفراج عنه مع من أفرج عنهم بختيار) فى مؤتمر صحفى فى ١٢/٢/١٣٩٩هـ أن الشعب لم يعد يألف استمرار الملكية غير الشرعية، وأن الإيرانيين الثائرين على الشاه لا يريدون تغيير الحكومة فقط، ورفض الاشتراك فى مجلس الوصاية على عرش إيران إلى حين عودة الشاه من الخارج، وطلب أن يشكل بدلا منه مجلس وطنى يحكم البلاد

(١) حافظ إبراهيم خيرالله، من مقال له حول الوضع فى إيران، جريدة الشرق الأوسط، عدد الأربعاء والخميس ١٢ و١٣ من صفر ١٣٩٩هـ/ ١٠ و١١ يناير ١٩٧٩م.

بموافقة الإمام الخمينى.

الخروج الأخير للشاه من البلاد

إزاء هذا الوضع المتدهور فى إيران، لم يعد هناك من مخرج سوى أن تسلم أمريكا بخروج الشاه من البلاد، لأنها دافعت عنه كثيراً، وأصبح موقفها مكشوفاً، وهى تريد أن تحافظ على مصالحها فى إيران، حتى ولو على حساب مصلحة بقاء الشاه، فأبلغته قرارها الأخير بضرورة ترك البلاد إلى حين.

فأصدر الشاه قراراً بتحويل جميع ممتلكات العائلة الحاكمة فى إيران والتى لا يمكن نقلها إلى صندوق خاص، وأمر بالإفراج عن السجناء السياسيين، وأعلن أن الصندوق الذى أمر بتحويل هذه الممتلكات إليه يسمى «صندوق بهلوى»، وذلك لاستخدام أرباحها فى الأغراض الدينية والثقافية والاجتماعية والخيرية، وذلك طبقاً للقول القائل «بيدى لا بيد عمرو»، وهى أعمال جاءت متأخرة عند الغرغرة، ومؤسسة بهلوى المزعومة، كانت موجودة، كان الشاه قد أنشأ مؤسسة بهلوى الخيرية فى مطلع الستينيات، حتى يحل مكان رجال الدين فى تقديم المساعدات، ويحول إليها الأوقاف الخيرية، إلا أن هذه المؤسسة انحرفت منذ البداية، وتحولت إلى مصدر لرشوة الأنصار والمحاسيب، وكانت أحد المواقع الرئيسية التى تقوم فيها الأسرة المالكة باصطياد الثروات، وانهمك أعضاء الأسرة المالكة فى نقل أموالهم إلى الخارج، هم وكثير من الأثرياء الخائفين من يوم الحساب، وحاول الشاه أن يأخذ معه مجوهراته المحفوظة فى البنك

المركزى، لكنه لم يتمكن لإضراب موظفى البنك.

وفى صباح يوم ١٩/٢/١٣٩٩هـ/ ١٧/١/١٩٧٩م اضطر محمد رضا بهلوى لقبول مطالب العارضة الدينية، وغادر طهران متوجهاً إلى أسوان بمصر، ولم يتمالك نفسه وهو يصعد سلم الطائرة، فانفجر باكياً على الرغم من جبروته فى سابق أيامه، وغادر أسوان بعد عدة أيام إلى المغرب، ومنها إلى جزر البهاما فالمكسيك فالولايات المتحدة الأمريكية، وأخيراً إلى (بنما)، وكانت أمريكا على استعداد للتخلى عنه، إذا نجحت تجربة بختيار كتسوية وسط بين الامبراطورية المطلقة والجمهورية الإسلامية التى ينادى بها رجال الدين(١).

وعقب انتشار نبأ رحيل الشاه فى إيران، انطلقت مئات الألوف من أبناء الشعب فى طهران يعبرون عن فرحتهم وخرجت السيارات المزينة بالأعلام وصور الإمام الخمينى(٢).

عودة الخمينى إلى إيران

عارض شاهبور بختيار فى البداية عودة الخمينى إلى إيران، وطلب منه إعطاء فرصة لمدة ثلاثة أشهر، ينتهى خلالها من تنفيذ البرنامج الذى كان يرى أن الخمينى يرضى عنه، وذكر له إذا ما عاد فإن الجيش سيقوم بمذبحة لا محالة، لكنه اضطر أخيراً للموافقة على عودته قائلا «إن الإمام الخمينى تحول فى الخارج إلى

(١) الحوادث، عدد ١١٥٨، سنة ١٩٧٩.

(٢) الشرق الأوسط، عدد ١٦٥، الأربعاء والخميس ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٩.

أسطورة، وإذا عاد إلى إيران فستزول الأسطورة»(١).

وصمم الخمينى على العودة إلى إيران، على الرغم من أن كثيراً من مستشاريه كانوا يخشون ذلك، تحسباً لما قد يقوم به الجيش من أعمال مضادة، واقترح بازرجان أن يشكل الخمينى حكومةفى المنفى، ويعلن الجمهورية، ووافق كثيرون من حاشية الخمينى على هذا الرأى، لكن الخمينى رفض وقال «ينبغى أن نذهب جميعاً إلى طهران»، وكان معاونو لخمينى يواجهون صعوبة فى العثور على طائرة تقلهم إلى الوطن، وفى النهاية قام أحد أثرياء الشيعة بإيداع ثلاثة ملايين دولار لتغطية أجر طائرة نفاثة من طراز جامبو تابعة لشركة إيرفرانس، والتأمين المرتفع عليها وعلى طاقمها من الرجال الفرنسيين الذين تطوعوا لهذه المهمة، واستقل الخمينى الطائرة ووصل إلى طهران فى صباح يوم الخميس ٤ من ربيع الأول سنة ١٣٩٩هـ/ أول فبراير ١٩٧٩م، ومنع الخمينى زوجته وزوجات مؤيديه من القيام بالرحلة معهم(٢).

ويصف صحفى مصرى كان على متن الطائرة التى أقلت الخمينى إلى طهران هذه الرحلة، أو قل المغامرة النادرة، فيقول «كان على متن الطائرة مائة وخمسون صحفياً من جميع الجنسيات، قيل أنهم أحد الأسباب التى ضمنت عدم إقدام السلطات الإيرانية على

(١) الحوادث، العدد ١١٦٢، بتاريخ ٩ من فبراير ١٩٧٩، من مقال لجلال كشك بعنوان «آيات الله والشعب ضد الجنرالات».

(٢) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص ص٢٢٩- ٢٣٢.

حماقة ضربها فوق إيران» (١).

وتوجه الخمينى من مطار طهران إلى مقبرة زهرة الفردوس، وألقى خطاباً سياسياً قوياً، هاجم فيه الشاه وشرعيته، قائلا «ملكية الشاه غير شرعية، لأن الجمعية التى أقرتها اتخذت قرارها تحت تهديد الأسنة، ومع ذلك فـ«الملكية الوراثية» مرفوضة، حتى لو أقرت بالتصويت الحر، لأن إقرارها يعنى أن الذين أقروها سيتحكمون فى مصير الناس الذين سيأتون بعدهم بخمسين سنة، فكيف يعطى الناس لأنفسهم هذا الحق أن لكل زمان رجاله، ولهؤلاء الرجال حق تقرير مصيرهم بأنفسهم، فلنفرض أن كل الشعب اختار كاجار ملكاً، فهذا يعنى حق كاجار فى أن يكون ملكاً عليهم، ولكن لا يعنى فرض أسرته والنظام الملكى على المستقبل لأن هذا يعنى أن الذين عاشوا منذ نصف قرن سيتحكمون فى مصيرنا اليوم، وليس من حق أى جيل أن يحرم الأجيال من بعده من حرية الاختيار» (٢).

وقطع الخمينى بذلك الطريق على أى اقتراح بإجراء استفتاء على النظام الامبراطورى، وهو ما يقترحه أنصار الشاه، واستمر الخمينى فى خطابه يسقط شرعية كل المؤسسات القائمة، فمجلس النواب لم ينتخبه أحد والحكومة غير شرعية، وهاجم الولايات المتحدة الأمريكية قائلا «إنهم يعطون نفطنا للولايات المتحدة

(١) محمد جلال كشك، آيات الله والشعب ضد الجنرالات والأمريكان، الحوادث، عدد ١١٦٢، فى ٩ فبراير ١٩٧٩.

(٢) المرجع السابق.

وغيرها ويأخذون مقابله سلاحاً لبناء قواعد للدول التى تبيع لنا هذا السلاح، وبهذه الطريقة تبنى الولايات المتحدة قواعدها بنفطنا ويعطوننا سلاحاً أكثر تقدماً من قدرة جيشنا على استخدامه، وبذلك يبررون وجودهم العسكرى عندنا، ولو استمر ذلك لعدة سنوات لانهارت بلادنا».

وهاجم حكومة بختيار بقوله «أنه يقول إن البلد لا يتحمل حكومتين وأنا أوافق، وعليه هو أن يرحل لأن حكومته غير شرعية وأمريكا وبريطانيا وحدهما يعترفان به ويطالبان الجيش بدعمه».

ثم خاطب القوات المسلحة فدعاها للعودة إلى أحضان الشعب وتحرير نفسها من النفوذ الأجنبى «إيها السيد الجنرال ألا تريد أن تكون حراً؟! وأنت يا سيادة العقيد، أتريد أن تكون دمية؟»، ثم أكد أنه لا نية فى الانتقام من الضباط المرتبطين بالعهد الامبراطورى بل ستحفظ كرامتهم، ثم خاطب الجيش قائلا «نريد جيشاً، لا عصابة يحكمها الأجانب» (١).

وكانت الجماهير والصحافة العاالمية والمحلية تنتظر منه إعلان المجلس الثورى الإسلامى فى خطاب المقبرة، ولكن الإمام فضل الانتظار للتعرف على الواقع، وأخذ فترة يتعرف فيها الموقف السياسى لكى يزن القوى الحقيقية فى الساحة، ولم يعلن المجلس ولم يحدد أسماء، وقضى الخمينى اليوم الأول والثانى فى التشاور مع رجال الدين وأنصاره من رجال السياسة والمعارضين لحكومة الشاه لبختيار.

---

(١) المرجع السابق، نفس المقال.

وفى يوم السبت ٦ من ربيع الأول ١٣٩٩هـ/ ٣ من فبراير ١٩٧٩م، أعلن الخمينى فى مؤتمر صحفى، أنه هو رئيس مجلس الثورة الإسلامى، وأنه قد شكل المجلس، وسيعين المجلس حكومة تطرح دستور الجمهورية الإسلامية للاستفتاء، ثم تجرى انتخابات الجمعية التشريعية، وأن الأقليات ستتمتع بحقوق المواطنين كاملة، وأن الجهاد مشروع إذا استقدمت الحكومة معونة أمريكية أو جنود إسرائيليين، وفى يوم الاثنين ٨ من ربيع الأول عين بازرجان رئيساً للحكومة، وكان قد اتفق معه من قبل وهو فى باريس على أعضائها.

وفى أيام قليلة احتلت صور الخمينى كل مكان كانت به صور الشاه أو تماثيله، وهو الذى كان مجرد ذكر اسمه محرماً منذ خمسة شهور، وأن الثلاثة ملايين الذين خرجوا لاستقبال الخمينى يشكلون تفويضاً شرعياً يخوله لاستلام السلطة وإدارة دفة الأمور فى البلاد، كما قال سنجابى رئيس الجبهة الوطنية «وليس فى العالم الإسلامى رجل تجمعت له محبة الجماهير مثل الخمينى»، والواقع أن الخمينى أعاد الإيرانيين إلى الاعتزاز بالإسلام والكرامة الوطنية، وأصبح يمثل فى نظرهم الإرادة القوية التى نجحت فى تخليص الشعب من القهر، بل وأحيا الأمل لدى كثير من المقهورين المسلمين فى العالم.

وفى اليوم الثالث أذاع راديو طهران لأول مرة فى تاريخه نشرة أنباء باللغة العربية فى الساعة الواحدة بعد ظهر ٣ فبراير، وذلك احتراماً لمشاعر حوالى ٢ مليون عربى فى إيران ومساواتهم ببضعة آلاف من الأمريكيين الذين يذاع لهم برنامج كامل بالانجليـزيـة

فى الإذاعة والتليفزيون.

وأخذت كل السلطات الحكومية التابعة لبختيار تتلاشى، فقد استقال رئيس مجلس الوصاية على العرش «جلال طهرانى»، وقدم استقالته للخمينى قائلا «إن المجلس غير شرعى»، وعمدة طهران «جواد شهرستانى» قدم هو الآخر استقالته قائلا «بإرادة الشعب وإجماع الأمة أنت قائد الثورة التى بنور الإسلام ستنتصر، وبما أن الحكومة الحالية غير شرعية فإنى أقدم استقالتى»، وقد قبل استقالته وعينه من قبله عمدة لطهران، وطلب منه أن يضيف إلى خطاب الاستقالة الذى سيقدمه لبختيار خبر التعيين، واستقال حاكم بلوشستان «حسن إسلامى»، ومجلس النواب استقال منه حوالى ٧٢ من مجموع ٢٦٨ عضواً، واختفى حوالى مائة عضو، ولم يعد مع بختيار سوى حوالى مائة عضو، ولم يستطع أن يجتمع بختيار بهم إلا سراً، هذا بالإضافة إلى أن جميع رجال الدين انضموا إلى الخمينى، وجاء وفد من (كردستان) السنية لمبايعة الإمام، الذى كان يؤكد فى كل أحاديثه على وحدة جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم.

واتخذ الخمينى مقراً له فى طهران فى مدرسة رافع الحسينية فى أحد أكثر أحياء إيران شعبية، وهو حى «جاله»، وتم تركيب أجهزة الاتصال بالعالم الخارجى بهذه المدرسة، عن طريق عمال التلكس والاتصالات الخارجية المضربين، ليستخدمها الصحفيون فى إرسال أخبار الثورة إلى العالم، لأن الشبكة الحكومية معطلة بسبب الإضراب.

وحاولت أمريكا أن تتحرك مع عميلها بختيار، وصدرت الأوامر إلى جنرال أمريكى يسمى «هويزر» ينظم الانقلاب العسكرى فى إيران، بأن لحظة الانقلاب المضاد قد حانت، ولكن لم يكن هناك جيش يمكن أن يقوم بهذه الحركة، لأن جميع قطاعات الجيش كانت قد انضمت إلى الثوار، ولم يعد سوى كبار القادة، ولذلك قرر الجنرال «هويزر» بعد أن أعلم واشنطن بالموقف أن يختفى من سماء إيران(١).

واتصل الجنرال غرياغى قائد الجيش بمهدى بازرجان رئيس وزراء الثورة، وطلب منه أن يرسل مندوباً عنه لكى يتسلم منه الجيش، ولم يكن هناك جيش يمكن أن يسلمه، فقد انتحر أو قتل كثير من القادة الكبار عندما تأكدوا من نجاح الثورة، وقام الخمينى على الفور بتأليف قوات خاصة به تسمى قوات الحرس الوطنى الثورى، وهى التى قامت يوم حضوره إلى طهران بتنظيم ثلاثة ملايين من المستقبلين له على طول الطريق بين مطار طهران ومقبرة زهرة الفردوس (١٨ كيلومتراً)، وبدأ هؤلاء يتلقون تدريبات عسكرية على أيدى ضباط من منظمة التحرير الفلسطينية، ولقد كافأ الخمينى منظمة التحرير على موقفها، فمنحها مقر السفارة الإسرائيلية فى طهران، لكى تكون مقراً لمكتب المنظمة فى طهران.

وفجأة لم يجد بختيار حوله من رجال وزارته أحد، وحتى

(١) محمد حسنين هيكل: مرجع سبق ذكره، ص٢٢٣.

قبيلة بختيار تخلصت منه وتخلت عنه، وأعربت عن تأييدها للخمينى، فلم يجد أمامه إلا الاختفاء عن الأنظار، وبعد فترة ظهر خارج البلاد.

حكومة الثورة ومشكلة ازدواج السلطة

وتولى (مهدى بازرجان) رئاسة الوزرار، وأعلن التشكيل الوزارى لحكومة الثوار، وكانوا فى معظمهم من زملاء بازرجان فى الجبهة الوطنية، ومنهم وزراء ممن كانوا فى المنفى مع الإمام فى باريس، مثل (قطب زاده) الذى ان وزيراً للخارجية، و(إبراهيم يازدى) و(أبوالحسن بنى صدر) وغيرهم، غير أن هذه السلطة الوزارية وجدت نفسها بعد فترة عاجزة عن ممارسة السلطة، أمام السلطة الثورية المتمثلة فى رجال الدين بزعامة الخمينى، وهى التى تتولى الشرعية الثوية، التى تملك التغيير فى البلاد باسم «المجلس الثورى».

أى أنه أصبح فى البلاد ازدواج فى السلطة، فهناك واجهة رسمية للحكم فى البلاد بزعامة رئيس الوزراء، وليس فى يدها سلطة، وهناك سلطة دينية ثورية ترى من صالحها تصفية الأوضاع والقضاء قضاء مبرماً على مراكز القوى القديمة فى كل مكان فى الدولة، وتملك هذه السلطة قوة التغيير فى البلاد باسم المجلس الثورى، وقد حققت نجاحاً كبيراً فى هذا المجال، فقضت على الجيش وعلى الشرطة والبيروقراطية الحكومية، فتخلصت السلطة الثورية من مستويين من الموظفين، واستعانت بالمستوى الثالث الذى لم يدنس فى نظرها.

وكان من الطبيعى أن يتسع التباعد بين حكومة بازرجان ورجال السلطة الثورية، فبازرجان ومعظم وزرائه ساسة ليبراليون يؤمنون بالديمقراطية بشكلها الغربى التقليدى، وهم لا يجيزون منطق الثورة فى التصفيات الجسدية، وأصبح من الصعب إقناع رجال الدين بأن آراءهم ووجهات نظرهم وتصرفاتهم ليست مقدسة أو مثالية، وبدأ جناح من الجبهة الوطنية فى الانسحاب بزعامة كريم سنجابى، وهذا الجناح أكثر عقلانية من الجناح الذى بقى وآثر الانتظار بزعامة بازرجان وهم وطنيون محافظون.

غير أن السلطة التنفيذية بزعامة بازرجان وجدت نفسها فى النهاية عاجزة عن ممارسة السلطة فى جو من الازدواجية بين السلطة التنفيذية والشرعية الثورية، واضطر بازرجان إلى الانسحاب ومعه كثير من جماعته، وليس هذا الانسحاب بسبب الخلاف على إسلامية الحكم والدولة، وإنما بسبب ازدواجية الحكم، فقدم بازرجان استقالته فى نوفمبر ١٩٧٩، وبعث بها إلى الخمينى فى مقره، الذى انتقل إليه فى مدينة «قم»، دون أن يذهب إلى هناك شخصياً، كما تقضى بذلك الأعراف السياسية، وقال فى استقالته ما يلى:

«نتيجة للخلافات المتكررة، ونظراً للمداخلات واختلاف الآراء داخل مجلس الوزراء، وحيث أصبح من المستحيل علينا القيام بواجبنا، ونظراً لأن خلاص الثورة فى هذه المرحلة التاريخية الدقيقة التى تمر بها إيران، يتطلب وجود حكومة متحدة، لذلك أقدم استقالتى لتتمكنوا من اختيار شخص آخر»(١).

(١) مجلة الوطن العربى، العدد ١٤٤، بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٩٧٩، ص٢٧.

وقبل الخمينى الاستقالة فوراً، وأشاد بنزاهة بازرجان وإخلاصه فى عمله، ثم أمر المجلس الثورى بتسلم إدارة شئون البلاد، والتحضير لاستفتاء جديد، وإجراء انتخابات لرئيس الجمهورية، وذلك فى مدة أقصاها شهر فبراير عام ١٩٨٠، أى بعد مرور عام على قيام الثورة.

والواقع أن هناك تنافس بين هؤلاء الذين مكثوا فى إيران طوال الوقت، وتعرضوا لتعذيب السافاك ورصاص الجيش، وبين أولئك الذين نظموا الثورة فى الخارج، وعادوا مع الإمام من باريس، وكان رجال الدين يتمتعون بتأييد محلى قوى، ولهم قاعدة قوية من الجماهير، بينما كان العائدون لا يملكون شيئاً من القواعد الشعبية، وكان الخمينى «يعتقد أنه من المستحسن أن تظهر الخلافات بين هذه المجموعات المختلفة أثناء حياته، لأن لديه القدرة على حسم هذه الخلافات، لما يتمتع به من مكانة خاصة، وهذا أفضل من أن تترك هذه الخلافات إلى أن تتفتح وتنفجر بعد موته»(١)، وحاول الخمينى أن يخلق نوعاً من التوازن بين الرئيس ومجلس النواب، وبين الإدارة الحكومية ورجال الدين.

ويتوزع آيات الله فى قيادات التنظيمات الإسلامية القوية، فآية الله صادق خلخالى يتولى قيادة المحاكم الثورية، ويصدر أحكامه دون عودة إلى أى جهة قضائية، فيتولى رجاله القبض على المتهمين، وتتم محاكمتهم ومعاقبتهم بسرعة، وأحياناً يوسع صادق خلخالى من

(١) محمد حسنين هيكل: مرجع سبق ذكره، ص٢٣٩.

نشاطه فيصرح بتصريحات عنترية، ويهدد بنشر مبادىء الثورة الإيرانية فى كل المنطقة، وذكر فى مقابلة صحفية مع مجلة الحوادث اللبنانية أنه تعرف فى شبابه على (نواب صفوى) مؤسس منظمة فدائيان إسلام، وذلك أيام طلبه للعلم بالمدرسة الفيضية فى مدينة «قم»، وكان زميلا لمصطفى الخمينى بن آية الله الخمينى الذى اغتالته السافاك، وذكر أنه اشترك مع نواب صفوى فى إعداد عملية للاستيلاء على جثمان رضا خان بهلوى وحرقه أثناء الجنازة الرسمية التى أعدت لها الحكومة فى طهران، فيقول «وبعد ما أعددنا البنزين، كشفت العملية، وألقى القبض علينا، وضربنا، وقد بقيت مراقباً منذ ذلك الوقت وحتى آخر عهد الشاه».

وقال صادق خلخالى عن ظروف اختياره رئيساً لمنظمة فدائيان إسلام «حدث أننى بحثت عن قاتل مؤسسها نواب صفوى وهو الفريق محمد تقى مجيدى، فحكمت عليه بالإعدام وسلمته إلى الباقين من أعضاء فدائيان إسلام فنفذوا فيه حكم الإعدام، بعد ذلك قالوا لى نعتمد عليك»، وذكر فى هذه المقابلة الصحفية أيضاً «أن جمعية فدائيان إسلام لها تشكيلاتها ومكاتبها وعلاقاتها مع الحركات الإسلامية لكن قادتها يستشيروننى فى مسألة الإعدام فقط ويأخذون الحكم منى»، وقال «بأن منظمته كان لها علاقات مع حركة الأخوان المسلمين فى مصر أيام حسن البنا»، وقال «بأنه شخصياً له علاقات مع الأخوان المسلمين فى الخليج»(١).

---

(١) الحوادث، عدد ١٢٢٤، الجمعة ٨ من أبريل ١٩٨٠.

وتضم المؤسسات الثورية أيضاً «آية الله مهدى فاكانى» الذى يتولى رئاسة اللجان الثورية، التى تقوم مقام الشرطة فى حفظ الأمن، ويرأس كل لجنة فرعية رجل دين يتخذ القرارات مباشرة، أما الحرس الثورى الذى حل محل الجيش فيتولى « آية الله لاهوتى» الإشراف المباشر عليه، وكان «آية الله الطالقانى» قبل وفاته هو الرئيس الفعلى للمجلس الثورى الذى يتراوح أعضاؤه بين ٢٠ - ٣٠ عضواً من أعوان الخمينى وتلامذته المخلصين، وتتراوح أعمارهم ما بين ٤٠ و٥٠ سنة، ولم يكشف النقاب عن أسماء أعضائه رسمياً، وإن كان من المعروف منهم آية الله حسين منتظرى وآية الله صادق خلخالى وآية الله محمد بهشنى وآية الله مفتح، بالإضافة إلى بعض الشخصيات المدنية منها أبوالحسن بنى صدر قطب زاده ومهدى بازرجان وإبراهيم يزدى(١).

ضرب النفوذ الأمريكى فى إيران

كانت السفارة الأمريكية فى طهران أحد القلاع الاستعمارية القوية فى العالم الإسلامى، إذا لم تكن أقواها على الإطلاق، فقد ركزت عليها أمريكا وجعلتها مركزاً للتجسس فى منطقة الشرق الأوسط، فكان يتجمع فيها يومياً كل المعلومات عن الشرق الأوسط، وكان هناك تنسيق بين هذا المركز وإسرائيل وجهاز المخابرات الإيرانى (السافاك)، وكانت هذه السفارة تشكل حكومة داخل حكومة إيران، وإن شئت فقل هى المركز الفعلى لإدارة البلاد، ولم تكن مهمة

(١) مجلة الوطن العربى، العدد ١٤٤، بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٩٧٩، ص٣٧.

موظفى السفارة مجرد الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية مع حكومة الشاه، وإنما أصبحت حماية نظامه المتعاون معهم على استغلال ثروات إيران، وكان بالسفارة عناصر من المخابرات المركزية الأمريبية.

وعندما اشتدت يد الثورة فى داخل إيران، وهددت الشاه والوجود الأمريكى والصهيونى فى إيران، ازداد نشاط السفارة الأمريكية، وتوجس رجال الثورة خيفة من أعمال السفارة المضادة لثورتهم وتذكروا الانقلاب الأمريكى المضاد الذى دبرته السفارة الأمريكية عام ١٩٥٣، وتم لهم إعادة الشاه وضربوا المعارضة الإيرانية ضربة قاصمة، وتم القضاء على معارضة مصدق ورجال الدين، فصدقت نية رجال الثورة على احتلال مجمع السفارة، التى هى فى عقر دارهم قبل أن تفترسهم وتقضى على ثورتهم، وتجارب الماضى ماثلة أمامهم.

وكانت قد حدثت بعض الصدف الطيبة، التى ساعدت رجال الثورة فى الإقدام على احتلال السفارة، فعندما تم القبض على الجنرال «نعمة الله ناصرى» رئيس جهاز السافاك، حصلت منه الثورة على اعترافات مفيدة، منها أنه كان للسافاك عميل داخل السفارة الأمريكية، اسمه الحركى «حافظ»، فاتصلت به حكومة الثورة سراً، ووعدته بالأمان إذا ما استمر فى نشاطه لصالحهم، وتعاون حافظ فعلا تحت التهديد مع رجال الثورة، وسلمهم عدة وثائق هامة أبانت عن التحركات السرية الأمريكية ضد الثورة، وكانت هذه المعلومات عاملا من عوامل الإسراع فى احتلال السفـارة،

حيث أن بعض الوثائق كانت تدل على أن رحلة الشاه إلى الولايات المتحدة أمر دبر له من قبل الثورة، وعندما ترك الشاه المكسيك إلى نيويورك يوم ٢٢ من أكتوبر عام ١٩٧٩، لم يعد هناك أدنى شك فى أن هناك أمر يدبر ضد الثورة، وتراءت أمام رجال الثورة ذكريات عام ١٩٥٣ المفزعة.

وطلب الخمينى من الطلبة حراس الثورة فى بيان، أن يفتحوا عيونهم ويرقبوا مؤامرة الولايات المتحدة هذا العدو الخبيث، وبناء على ذلك قامت اللجنة الثورية داخل جامعة طهران باعتماد خطة للهجوم على السفارة الأمريكية للاستيلاء على بقية الوثائق، التى كانوا يعلمون أنها ستزودهم بكثير من المعلومات، عن سياسات الشاه واتجاهاته وخطط أمريكا ضدهم.

وفى ٤ نوفمبر عام ١٩٧٩ قامت قوة من الطلبة، حوالى ٤٠٠ طالب من المليشيا الثورية، معززين بمساندة الخمينى سراً، بالهجوم على السفارة الأمريكية، وكان «حافظ» عميل السافاك قد أعطاهم معلومات عن مواقع الحرس ونقاط الضعف، التى كان يتصور وجودها فى سور السفارة، وزودهم بخريطة لكل مبانى السفارة، ولذلك عندما بدأ الهجوم نفذته فرقة مدربة تعرف كل الأماكن، وخلال ثلاث ساعات تم لهم احتلالها، واحتجز الطلاب أعضاء السفارة كرهائن، واشترطوا لاطلاق سراحهم تسليم الشاه السابق إلى إيران لمحاكمته، والأهم من ذلك استولى الطلبة على الوثائق المودعة فى السفارة، واستفادت حكومة الثورة من هذه الوثائق فى مجالات كثيرة.

ورفضت الحكومة الأمريكية تسليم الشاه إلى الثوار، وزاد توتر أمريكا، وفرضت على إيران حصاراً اقتصادياً فعالا، وأوعزت إلى حلفائها بمقاطعة إيران اقتصادياً لإجبارها على الركوع، ولكن الخمينى كان يتعلل بأنه لا يستطيع السيطرة على الطلاب، وينبغى عدم أخذهم بشدة للمحافظة على أرواح الرهائن، وقامت أمريكا باستعمال أوراقها القديمة فى كل بلد إسلامى، فاتصلت بالأقليات فى إيران لتفجير ثورتهم، وأمدتهم بالسلاح، وأوعزت إلى حلفائها بمساعدتهم، فقام عرب إقليم «عربستان» بثورة يريدون الاستقلال، وقام الأكراد فى الشمال الغربى والأتراك على الحدود التركية، وطالب كل هؤلاء بالحكم الذاتى، الذى تعهد به الخمينى إذا نجحت الثورة، وكان رد الحكومة على هؤلاء جميعاً بعمليات قمعية، ولم تستطع إيران أن تقوم بعمل حاسم ضدهم، لأن جيشها قد تم حله، وألف الخمينى بدلا منه قواتالحرس الثورى، والتى لم تستطع وقف تمرد الأقليات فى إيران.

وطالت فترة احتجاز الرهائن فى السفارة الأمريكية حتى أذلت أمريكا، وعبثاً حاولت جهات كثيرة التدخل لاطلاق سراح رجال السفارة الأمريكية، وخاصة بعد أن وصلت الثورة إلى هدفها فى إبطال مفعول السفارة الأمريكية، كمركز للتخطيط للثورة المضادة، وتم الحصول على الوثائق، لكن الخمينى بعدما أدرك عجز أمريكا عن عمل شىء فعال ضدهم، كان يقول لأصدقائه مبرراً هذا العل «اننى أريد أن أعلم المستضعفين فى العالم أن هناك نقاط ضعف

لدى جبابرة العالم يمكن استغلالها لإذلالهم»، وفعلا بدأت صورة أمريكا تهتز فى العالم، وخاصة عندما قامت إيران بنشر المخازى الموجودة فى الوثائق الأمريكية، التى أبانت خطط أمريكا من أجل السيطرة على الدول الضعيفة فى العالم الإسلامى وفى العالم كله.

ولقد أثرت الوثائق فى شعبية بعض رجال الثورة، مثل «أبوالحسن بنى صدر»، فقد وجد رجال الثورة أن اسمه تردد كثيراً فى بعض الوثائق بشأن اتصالات أمريكية به، فانتهى به الأمر إلى أن حاصره رجال الدين والطلبة، وعلى الرغم من أنه تم انتخابه رئيساً للجمهورية فى عام ١٩٨٠ وكان يحظى بتأييد الخمينى، إلا أن كل هذا لم يعفه من المسئولية، نظراً لأن اتصالاته بأمريكا التى أوضحتها الوثائق، لم تتم بعلم الخمينى، ولا بعلم أى فرد من أعوانه بها، ولم يجد مفراً سوى الهروب إلى خارج إيران.

ولقد حظيت وثائق السفارة الأمريكية باهتمام كثير من الدول، وعلى الأخص الاتحاد السوفيتى، الذى تحايل على إيران بشأنها، وسلمت إليه إيران صوراً لمجموعات كبيرة منها من باب المداراة للدب الروسى، وحظيت باهتمام كبير أيضاً بين المعنيين بكتابة التاريخ، لأنها تضع أيدى المؤرخين والكتاب فى مجال السياسة على الوسائل السرية لإخضاع الشعوب.

وحاول كثيرون من مدعى الدفاع عن حقوق الإنسان، التدخل لحل مشكلة الرهائن فى السفارة الأمريكية، باعتبارها مشكلة إنسانية فحسب، بصرف النظر عن الاعتبارات السياسية، فكان رد الخمينى

عليهم عنيفاً يعرفهم فيه بتضاربهم مع أنفسهم إزاء المشاكل الإنسانية فى العالم، وأنهم لا يتحركون لمأساة إسلامية، وإنما يتحركون لمشكلة تتعلق بالغرب فقط، فعندما أرسل بابا الفاتيكان رسالة إلى الخمينى بشأن إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين، رد عليه بقوله «لا تشغل نفسك بما يحدث فى إيران، ولتوجه ناظريك إلى ما يحدث فى أمريكا، لماذا لزمت الصمت عندما احتلت القدس؟».

وعندما قال له أحد الصحفيين، بأن أخذ الرهائن ضد القانون الدولى، رد عليه الخمينى قائلا «وما هى الفوائد التى عادت على إيران من القانون الدولى؟ هل منع الشاه من وضع يده على ثروات البلاد؟ هل منع الأمريكيين من الإطاحة بحكومة إيرانية دستورية وقتل زعمائها؟ إننا لا نرى أن القانون الدولى قد احترم مطلقاً فى حالة إيران، وبالتالى لا نرى أى مبرر يفرض علينا أن نحترمه الآن» (١).

وبقى الخمينى على صموده يتحدى العالم كله، حتى أثرت مسألة الرهائن فى الأوضاع السياسية داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وأثرت فى مصير الرئيس الأمريكى «كارتر»، الذى اعتلى كرسى الرئاسة فى مطلع عام ١٩٧٧، ونزلت شعبيته إلى االحضيض، وخاصة عندما حاول إنقاذ الرهائن بحركة انقضاض عسكرية، بإنزال بعض القوات الأمريكية فى صحراء إيران، وفشلت الطائرات فى هذه العملية، لأنها اصطدمت فى بعضها أثناء نزولها

---

(١) محمد حسنين هيكل: مرجع سبق ذكره، ص٢٤٥، ٢٥٠.

فاحترقت.وشبت النيران فيها، وقضت على قواتها المعدة للحركة، وكانت روسيا تراقب هذه المغامرة، فاتصلت بأمريكا تحذرها من مغبة الاندفاع فى المغامرات اليائسة، وكانت النتيجة هى سقوط «كارتر» فى انتخابات الرئاسة لفترة ثانية، ولم يقبل الإيرانيون حل المشكلة إلا فى مطلع عهد خليفته «ريجان» فى يناير عام ١٩٨١.

قامت الجزائر بدور كبير فى مجال التوسط لفك أسر الرهائن، فقد كانت هى البلد الذى يقوم برعاية المصالح الإيرانية فى أمريكا، وهى بلد إسلامى لها حكومة ثورية تستطيع إقناع إيران، وكان لإيران شروط خاصة بالإفراج عن بعض المدخرات الإيرانية فى بنوك أمريكا، وحكومة الثورة فى أمس الحاجة إليها، بعد أن عضتها أمريكا بناب الحصار الاقتصادى، ولم يكن هناك مجال للتمسك بالشرط القديم، وهو تسليم الشاه لحكومة الثورة، ذلك لأن المقادير كانت قد سبقت الثوار إلى الشاه عقب انتقاله إلى مصر للعلاج فى أحد مستشفياتها فى ٢٤ مارس عام ١٩٨٠، حيث قضى نحبه وهو يعانى من مرض السرطان الخبيث فى ٢٧ من يوليو عام ١٩٨٠، ودفن فى مصر حيث كان أبوه قد دفن من قبل.

ولقد نجا الشاه بأعجوبة من غدر الأمريكيين به فى أخريات حياته، فتذكر بعض الروايات التى نشرت فى مطلع عام ١٩٨٠، أن كارتر حاول أن يجعل من الشاه ثمناً للإفراج عن الرهائن الأمريكيين، فاتفق مع حكومة «بنما» التى استضافت الشاه، على أن توقع من

إيران معاهدة تسليم الرهائن، وتمت اتصالات مع إيران فى هذا الموضوع، وسافر إلى «بنما» ممثل إيران فى التوقيع على هذه المعاهدة، ولكن جهوداً أخرى أنقذت الشاه قبل التوقيع على تلك المعاهدة بوقت قصير، فقد أعلن الرئيس السادات أن طائرة مصرية ستنقل الشاه وأسرته إلى مصر، ولكن هذه الطائرة لم تتمكن من الوصول فى وقت مبكر، الأمر الذى دفع كيسنجر وروكفلر إلى الإسراع فى نقله بطائرة خاصة استؤجرت بثلاثمائة ألف دولار، وكان الشاه متردداً فى أن يدفع هذا المبلغ الكبير لنقل ثمانية أشخاص(١)، وكان يفضل انتظار طائرة السادات، لولا أن كيسنجر وروكفلر حذراه بأن البقاء فى بنما بضع ساعات أخرى معناه القبض عليه ثم تسليمه، لأن ممثل إيران كان فى الطريق إلى بنما ومعه نص معاهدة إيرانية لتسليم الرهائن فى مقابل تسليم الشاه(٢).

ويعتقد البعض أن التقدير النهائى لموضوع الرهائن، يدل على أن خسائر الإيرانيين تفوق أرباحهم، ولا يمكن إنكار أنهم أذلوا أمريكا وهى أكبر أعدائهم، وأن فشل الأمريكيين الحقيقى يتمثل فى سقوط الشاه، ولم يكن هناك ضرورة لإضافة أى شىء لهذا، وأن الاستمرار فى حجز الرهائن ساعد أمريكا على عزل إيران، وإظهار

(١) هو وأفراد أسرته.

(٢) انظر: د.أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء الثامن، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣، ص١٧٨-١٧٩.

حكامها بمظهر القساة والعجزة(١).

غير أننا نعتقد أن عملية الاستيلاء على الوثائق فى السفارة الأمريكية، كانت مهمة جداً لرجال الثورة، بعد أن عرفوا بعضها عن طريق عميلهم المعروف «حافظ»، وتم عن طريقها التعرف على خطط الأمريكيين التى كانوا يعتزمون تنفيذها فى إيران، وفقد الأمريكيون بعدها خطوط الاتصال مع عملائهم فى داخل إيران، وهؤلاء العملاء كانوا يشكلون الرصيد الاحتياطى للانقلاب المضاد، الأمر الذى أدى إلى ارتباك الأمريكيين بعدها تماماً، كما لو كانوا فقدوا البوصلة التى توجههم.

كما أن إيران فتحت بذلك مجالا كبيراً للضعفاء فى العالم الذين تتحكم فى مصائرهم هذه الأوكار التى تسمى بالسفارات، وتنقض على مستقبلهم فى الوقت المناسب، عندما يريدون التخلص من الحكام العملاء والمستبدين الفاسدين، فتقوم هذه السفارات بمساندة هؤلاء الحكام لكى يدوم لدولهم استغلال الشعوب المطحونة.

وعلى الرغم من أن العالم كله تقريباً -وخاصة الغربى- عارض عملية احتلال السفارة واحتجاز أعضائها كرهائن، والتى تمت دون إراقة دماء، ولو كانت هذه السفارة قادت بتخطيطها المعد انقلاباً مضاداً لصالح عميلها الشاه الفاسد ضد شعبه المقهور، وأريقت الدماء فى سبيل ذلك لصفقت دول الغرب كلها لهذا العمل، ويبدو أن هناك قصور ذاتى لدى العالم الغربى، بسبب فعل أجهزة الإعلام

(١) محمد حسنين هيكل، مرجع سبق ذكره، ص٢٥٠.

الغربية، ووكالات الأنباء المضللة، التى سببت خللا فى موازين العدالة لدى الغربيين، ومن لف لفهم الذين يعتبرون الانقلابات المضادة لإرادة الشعوب، وإراقة دماء المقهورين وإعادة الحكام العملاء الفاسدين عملا مشروعاً، بينما الاستيلاء على حصن يدبر المكائد لشعب فى عقر داره وإبطال مفعوله العدائى دون إراقة دماء عملا غير مشروع وغير أخلاقى.

الحرب الإيرانية العراقية

كانت هناك خلافات على الحدود بين العراق وإيران منذ قامت إيران بضم إقليم «عربستان» إليها فى بداية حكم رضا خان سنة ١٩٢٥، وهى العملية التى قضت بها إيران على إمارة المحمرة المستقلة، التى كان يحكمها «الشيخ خزعل الكعبى» آخر أمراء بنى كعب، وتمكنت إيران من ذلك بمعونة بريطانيا، التى أرادت ألا يكون بترول هذه المنطقة الكثير فى يد عربية، فيكون بترول الخليج العربى كله عربياً، فدبرت مؤامرة مع رضا بهلوى للاستيلاء على هذا الإقليم العربى، وفى مقابل هذا أعطاها رضا بهلوى ما أرادت من نفوذ داخل إيران، وكان إقليم عربستان أقرب إلى العراق منه إلى إيران تاريخاً ولغة وتقاليد سائدة فى كلا المنطقتين، كما أنه مكمل لجبهة العراق المطلة على الخليج العربى، والتى أصبحت العراق بدونه تطل على الخليج بجبهة حوالى ١٣ ميلا غير صالحة لرسو السفن، أى أن بريطانيا خنقته بذلك العمل أيضاً.

وبعد أن استوعبت إيران الإقليم تماماً، بقيت بعض المشاكل

على الحدود العراقية الإيرانية معلقة بين البلدين حتى سنة ١٩٧٥، وفى تلك السنة وقعت كل من العراق وإيران اتفاقية فى الجزائر، وأدت هذه الاتفاقية إلى تسوية أهم مشكلة بالنسبة للعراق، وهى مشكلة تمرد الأكراد فى شمال العراق، والتى كانت إيران وراءها، فقد كانت تمد الأكراد بالسلاح وتدعم موقفهم الانفصالى عن عرب العراق، وقدمت العراق لإيران بعض التنازلات فى شط العرب، لكن الاتفاق كان يتضمن إعادة تخطيط كامل للحدود، تحصل العراق من خلاله على مائة كيلومتر مربع من الأرض يستقيم بها خط الحدود العراقية، وتكونت لجان مشتركة لتحديد المناطق التى ستحصل عليها العراق(١).

وعندما قامت الثورة الإيرانية، توقفت أعمال اللجان فجأة، وأحس العراقيون أنهم نفذوا الجزء الخاص بهم فى اتفاقية الجزائر، ولكن إيران لم تعطهم ما التزمت به، ومنذ عودة الخمينى إلى إيران والعلاقات تسوء وتتدهور بين البلدين، وعلى الرغم من أن العراق بادر بمباركة الثورة الإيرانية رسمياً، فأرسل الرئيس أحمد حسن البكر برقية إلى الخمينى يعلن فيها عن سروره للقضاء على حكم الشاه المتعاون مع الصهيونية، وأعلن الرئيس العراقى عن سياسة بلاده التى رحبت بالثورة الإيرانية، التى أبدت تعاطفها مع الثورة الفلسطينية، وبعد أن جرى الاستفتاء على الدستور الإسلامى فى

(١) انظر: نص اتفاقية الجزائر سنة ١٩٧٥ فى نشرة صادرة عن «منشورات العالم العربى» فى باريس سنة ١٩٨١، بعنوان «الصراع العربى الفارسى»، الملحق الثانى عشر، ص٢٢٩- ٢٤٦.

إيران، أرسل الرئيس صدام حسين (الذى خلف الرئيس البكر) برقية تهنئة أخرى بمناسبة تصديق الشعب الإيرانى على هذا الدستور، ولكن رد الخمينى على برقية صدام حسين، فقدم الشكر للشعب العراقى فى عبارات غامضة، ثم أنهى البرقية بقوله «والسلام على من اتبع الهدى»(١)، ومن المعروف تاريخياً أن هذه العبارة كان يختم بها الرسول عليه الصلاة والسلام رسائله إلى الكفار والمشركين، عندما كان يدعوهم إلى الإسلام، وكان معنى ذلك أن الخمينى ينظر إلى صدام حسين باعتباره خارجاً عن الإسلام.

وبذلك بدأ التوتر يزداد فى العراق بسبب هذه الروح العدائية، وصاحب هذا بداية عمليات تخريب فى العراق بفعل بعض العملاء الشيعة فى العراق وما أكثرهم، فاتخذت العراق تدابير حازمة لحماية الدولة من التمزق، وخاصة أنها مرتع لكثير من الشيعة الإيرانيين فى كربلاء والنجف، ففى هاتين المدينتين كثير من المدارس والمعاهد الإيرانية، وتوجد بهما كثرة من المدرسين والطلاب الإيرانيين، ووراءهم أنصار كثيرون من شيعة العراق، الذين يبلغ عددهم ما يقرب من نصف العراق، وقامت العراق بترحيل بعض زعماء الشيعة الذين يعيشون فى المناطق الحساسة، وحملتهم السيارات إلى الحدود الإيرانية وألقت بهم، وشقوا طريقهم إلى طهران، وتصاعد التوتر على الحدود، وصرح أبوالحسن بنى صدر بقوله «إذا استمرت الاستفزازات العراقية، فأنا لا أستطيع أن أمنع جيشى من الزحف

(١) محمد حسنين هيكل: مرجع سبق ذكره، ص٢٦٧.

على بغداد »(١).

وتلقفت أمريكا هذه المشاكل، وكانت تواقة إلى الانتقام من إيران الثورة، فوجدتها فرصة لتنفيذ خطتها المعروفة بالضرب بيد إسلامية، وتكون هى غير ظاهرة فى الصورة، فلعبت دوراً كبيراً فى إذكاء الخلاف بين الطرفين، وخاصة أنها قدرت أن مثل هذا الصدام العراقى الإيرانى سيقضى على أى وفاق عربى إيرانى محتمل بعد تعاون منظمة فتح والفلسطينيين مع الثورة الإيرانية، ويمزق أى إمكانية لالتقاء عربى إيرانى، فضلا عن تحالف عربى إيرانى، يجعل الشرق الأوسط كله منطقة منزوعة النفوذ الأجنبى، ويطرح إمكانية استخدام موحد للنفط فى مواجهة الاحتكارات العالمية، ومواجهة السياسة الأمريكية المنحازة لإسرائيل(٢).

وتصاعدت الاشتباكات على الحدود بين العراق وإيران فى شهرى يوليو وأغسطس عام ١٩٨٠، وفى بداية شهر سبتمبر بدأت معارك محدودة جوية وبحرية، وزادت حشود الطرفين على الحدود، وفى ١٧ من سبتمبرقام صدام حسين بإعلان من جانب واحد بإلغاء اتفاقية الجزائر (١٩٧٥)، بحجة أن حكام إيران قد أخلوا

(١) المرجع السابق، ص٢٦٨.

(٢) انظر: تحليلا للموقف قبل الحرب، كتبه الكاتب الصحفى محمد جلال كشك فى مجلة الحوادث اللبنانية، عدد ١١٨٠، بتاريخ ١٩٧٩/٦/١٥، بعنوان «الخليج يحترق فى الشتاء».

بالاتفاقية منذ بداية عهدهم(١).

وفى ٢٢ من سبتمبر عام ١٩٨٠ اجتاحت القوات العراقية الحدود الإيرانية فى هجوم كاسح على إيران، وتحركت القوات الجوية العراقية وأغارت على عشر قواعد عسكرية وجوية فى عمق الأراضى الإيرانية، وعطلت مدارجها، وشلت العديد من هذه المواقع، وكان أهمها مطار كرمنشاه العسكرى، وقاعدة همدان الجوية، وقاعدة طهران الجوية، وقاعدة أصفهان، ومطار الأحواز، وقاعدة شيراز، وقاعدة تبريز.

وقامت الطائرات الإيرانية بغارات على البصرة وبغداد ونينوى وواسط فى الأراضى العراقية، ووجهت السلطات الإيرانية تحذيراً إلى دول الخليج من أى هجوم برى أو بحرى أو جوى ينطلق من موانيها ضد الأراضى الإيرانية، ولهذا التحذير الإيرانى مغزاه، لأن إيران تدرك أن العراق سيحتاج أثناء الحرب إلى الارتكاز فى بعض الموانى الكويتية، وخاصة حول جزيرة «بوبيان» الكويتية التى تقع فى خليج الكويت، لأن العراق كما سبق أن أوضحنا ليس لديه موانى فى الخليج صالحة لرسو السفن.

وتطورت الحرب، فاتجهت لتخريب أماكن صناعة البترول فى كلا البلدين، وفى الأيام الأولى تمكنت العراق من التغلغل فى داخل لأراضى الإيرانية وعزلت مدينة المحمرة، ودمرت قسماً من مصافى «عبدان» البترولية فى القسم الجنوبى من الجبهة، وحقق

(١) انظر: نشرة «منشورات العالم العربى» سالفة الذكر، ص١٢٨.

العراق بذلك أهدافاً عسكرية داخل الأراضى الإيرانية، وهددت إيران بإغلاق مضيق هرمز، وتفجير منافذه، فأخذت الحرب أبعاداً دولية، وشعرت الدول الصناعية الكبرى فى العالم، أن اقتصادها أصبح مهدداً أمام التهديدات الإيرانية، وذلك لأن مصانعها تعتمد على البترول الذى يرد إليها من الخليج عن طريق هرمز.

ونتج عن هذه الحرب إيقاف تصدير النفط الإيرانى، وتأزمت الأوضاع الاقتصادية فى إيران، وكانت العراق تود أن يكون هذا باعثاً لإيران على طلب المفاوضات لتسوية الخلافات، ولكن ذلك لم يحدث، وتطورت الحرب تطوراً مفزعاً، حيث أقدمت كلا البلدين على تدمير كل ما يمكن تدميره فى داخل الأراضى العراقية والإيرانية، دون تمييز للأهداف المدنية من العسكرية، واريقت دماء إسلامية بسبب العناد الإيرانى.

وتمادى الإيرانيون فى رفض الصلح الذى طلبه صدام حسين أكثر من مرة، ولعبت الدول الكبرى دوراً خبيثاً فى مجال إذكاء وإشعال نار الحرب، لكى تقضى على قوة الدولتين الإسلاميتين، واعتبر الإيرانيون بعد فترة أن الحرب كانت لازمة لهم لتوحيد الجبهة الداخلية فى إيران بعد الثورة، حيث كان الصراع داخل إيران على أشده، فجاءت الحرب مع العراق فوحدت كل هؤلاء ضد العدو الخارجى، وتطهر الجيش الإيرانى، على حد تعبير آيات الله فى إيران، ولكن نسى هؤلاء وهؤلاء أن الدم الإسلامى يراق، وإذا التقى سيفان فى الإسلام فالقاتل والمقتول فى النار، وأن هذه الحرب تعمق

الحقد والكراهية بين الشعوب الإسلامية.

وتقدمت إسرائيل على الرغم من جرحها الذى مازال ينزف من إيران الثورة، تقدمت إلى مساندة إيران فى الحرب، لإضعاف العرب والمسلمين عموماً، فأمدت إيران بالمعدات العسكرية، التى أضحت إيران فى حاجة ماسة إليها من أى مكان، لأن نار الحرب أحرقت كل مخزونها من السلاح، تلك الحرب التى استمرت حوالى تسع سنوات، وقامت الطائرات الإسرائيلية بالهجوم على المفاعل النووى العراقى، الذى تقدم العراق عن طريقه فى مجال الأبحاث النووية، وتم ذلك فى سنة ١٩٨١.

وبدأ الخمينى يوجه رسائله إلى الشعب العراقى، يطالبه فيها بالإطاحة بحكومة صدام حسين، ودعا الجيش العراقى إلى توجيه أسلحته إلى صدور قادته، وإسقاط النظام الحاكم فى بغداد، وبدأت إيران تتلقى أسلحة من كثير من المصادر الروسية والأمريكية والفرنسية وغيرها من المصادر، والهدف واضح من هؤلاء جميعاً، ليس لصالح العالم الإسلامى، وإنما لتدمير البلدين، وتنفست أمريكا الصعداء، واعتلاها ارتياح لما أصاب إيران والعراق على السواء، على الرغم من النفاق الأمريكى المعهود، والإعلانات التليفزيونية بأنها على الحياد.

وفشلت جهود الوساطة الإسلامية، التى انبثقت من مؤتمر القمة الإسلامى بمكة المكرمة سنة ١٤٠١هـ (١٩٨١م)، فقد كون المؤتمر لجنة إسلامية برئاسة الرئيس الغينى أحمد سيكوتورى، لحل

النزاع بالطرق السلمية، وبدأت اللجنة مباشرة مهامها بعد فض المؤتمر مباشرة، وأصدرت اللجنة بعدما قامت بالمفاوضات مع الطرفين بياناً حول مقترحاتها لتحقيق الحل السلمى الشامل للنزاع فى مارس عام ١٩٨١، ويقضى باقتراح وقف إطلاق النار بين الطرفين فى ١٣ مارس عام ١٩٨١، وتقوم لجنة عسكرية إسلامية للإشراف على وقف إطلاق النار، على أساس إعلان كل من العراق وإيران احترام السيادة الوطنية لكل منهما، وعدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة، وعدم تدخل كل منهما فى شئون الآخر الداخلية، وتسوية الخلاف بالطرق السلمية (١).

ومع ذلك لم تلتزم إيران بوقف إطلاق النار، بينما التزمت به العراق لفترة، ثم بدأت ترد على إطلاق النار بإطلاق مثله، وكل يوم تزداد الخسائر بين القطرين المسلمين، ويتحسر العقلاء أسى وأسفاً على هذه الحرب المحرمة، وعلى هذه القدرات التى تهدر فى ساحات الحرب، وكان من الأجدر توفيرها لحاجة المسلمين فى صراعهم ضد أعدائهم المتربصين.

وقف الحرب الإيرانية العراقية

انتهت الحرب الإيرانية العراقية فجأة عام ١٩٨٨، عندما اقتنع «آية الله الخمينى» أن استمرارها لم يعد ممكناً، بسبب استنزافها لموارد بلده المالية والبشرية، وقال «آية الله الخمينى» فى

(١) انظر: نص بيان لجنة المساعى الحميدة، المنشور فى جريدة عكاظ السعودية بتاريخ ٢٠ من ربيع الآخر ١٤٠١هـ/ ٦ من مارس ١٩٨١.

كلمة قصيرة حزينة لشعبه، قال فيها «إنه كان أهون عليه أن يتجرع كأساً من السم ولا يقبل بوقف إطلاق النار ولكنه الآن يقبله» (١).

وأدى الانهيار المفاجىء لإيران، إلى مشاعر متناقضة فى بغداد، وبشكل ما فإن العراق أحس بالفراغ المباشر، نتيجة لتوقف حرب شغلته واستغرقته بالكامل سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ونفسياً، وبتوقف المعارك بدأت قوة العراق تواجه نوعاً من البطالة، قريب الشبه بالفراغ الذى دهم القوات المسلحة الأمريكية بعد سقوط التهديد السوفيتى.

وعقب ذلك حاول «صدام حسين» أن يستثمر انتصاره، بعلاقات طيبة مع الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن الإعلام الأمريكى لم يعطه الفرصة، وبدأ فى سنة ١٩٩٠ يركز على خطورة صدام حسين العسكرية، وقوته التى خرج بها بعد انتصاره على إيران، واشتركت إسرائيل فى الهجوم عليه، وبدأت تهدد العراق بضربة أخرى وقائية، إذا أحست أنه اقترب من إنتاج أسلحة نووية، ورد صدام حسين على إسرائيل بخطابه المشهور، الذى قال فيه «أننا سنرد على إسرائيل، إذا استعملت ضدنا أسلحة نووية»، ثم أقسم بعد ذلك فى خطابه أنه «إذا تعرض العراق لهجوم نووى إسرائيلى، فإنه سوف يستعمل أسلحة متطورة، تحرق بالنار نصف إسرائيل» (٢).

ودخلت العراق فى خلاف مع الكويت، بسبب حصص البترول

(١) محمد حسنين هيكل، حرب الخليج، ص٢٢٥- ٢٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤١.

واتهمت الكويت بأنه السبب فى انخفاض أسعار البترول، لأنه ينتج أكثر من حصته، ويغرق السوق بالبترول، وأن ذلك يضر بالعراق، وتحركت أطماع العراق القديمة فى الكويت، وتحرشت القوات العراقية بها، وشاركت السفيرة الأمريكية فى إغرائه باحتلال الكويت، قائلة بأن أمريكا لا تتدخل فى نزاعات بين العرب، وفى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ احتل العراق الكويت، وادعى أنها جزء من بلاده، وأطلق عليها المحافظة رقم ١٩ من بلاده، وثار العرب فى الخليج والعالم العربى، وأهم من ذلك ثارت أمريكا، ولم تقبل أن يكون فى يد صدام ثلث بترول الخليج، يتحكم فيه ويهدد الباقى.

وتم إرسال قوات أمريكية إلى الخليج، بطلب من الكويت والسعودية، ومعها قوات فرنسية وانجليزية ثم عربية، مصرية وسورية وخليجية، وبعض الدول الإسلامية، وظهرت قوة أمريكا فى السيطرة على الأمم المتحدة، بعد ضعف الاتحاد السوفيتى، الذى أصبح يستجدى المعونات من أمريكا لإطعام الجوعى فى روسيا وغيرها من الدول التى أفقرتها الشيوعية.

وبدأ العراق يشعر بأنه محاصر بقوى معادية، وأغلقت فى وجهه كل السبل، ففكر فى اللجوء إلى إيران فى أزمته، رغم ما جرى بين البلدين من حرب فى عقد الثمانينيات، قضت على الأخضر واليابس، فأعلن «صدام حسين» فجأة استجابته من طرف واحد لكل طلبات إيران، وبعث إلى طهران برسل على مستوى عال، بينهم السيد «طارق عزيز»، وأبدى الإيرانيون استعداداً للتعامل مع

الموقف بمرونة، على الرغم من تحرك أطراف عربية ودولية ضد هذا التقارب، ومنها سوريا.

والذى دفع العراق إلى ذلك هو الحصار البحرى والجوى، الذى أحاط به بطوق من الفولاذ، إلى حد يجلب شعوراً بالاختناق، وبذلك كسبت إيران من العراق كل ما كانت تود أن تأخذه، الأمر الذى جعل الناس يقولون: ولماذا كانت تلك الحرب المهلكة طوال ثمان سنوات؟.

ووقعت الحرب ولم تستفد العراق من هذا التنازل الضخم شيئاً، بل على العكس، خسرت حوالى ١٣٥ طائرة لجأت اضطرارياً إلى الهبوط فى إيران، ولم تعترف إيران منها سوى بحوالى ٢٣ طائرة، قالت أنها جزء من تعويضات الحرب.

وتحطمت قوة العراق العسكرية، وضربت قوات التحالف كل منشآته، وأرد الأمريكان فى النهاية تقسيم العراق، إلى ثلاث دول: دولة كردية فى الشمال، ودولة شيعية فى الجنوب، وثالثة سنية حول بغداد، وكانت إيران جاهزة لتشجيع إخوانها الشيعة فى جنوب العراق، وظهرت حكومة مؤقتة شيعية، مقرها طهران بقيادة السيد «محمد باقر الحكيم» (١).

وفوجئت السعودية التى تعد هى الأخرى لحكومة مؤقتة للعراق، أعدتها وحرصت على طابعها السنى، وكانت المفاجأة قاسية

(١) المرجع السابق، ص٥٧٢- ٥٧٤.

للسعودية التى تخشى من الشيعة، لأنهم يتمركزون بالدرجة الأولى فى شريط يمتد من جنوب العراق إلى جنوب شبه الجزيرة العربية، ويرى البعض(١) بأنهم قاموا بأدوار بارزة فى تاريخ الحركة القومية العربية، لكن بعض المؤسسات الرسمية للفكر السنى، لم تستطع فى كثير من الأحيان تقدير هذا الدور، وقد راحت هذه المؤسسات تخلط مرات كثيرة، مفترضة وجود خلافات أعمق بين المذاهب الإسلامية، وبدلا من أن تحاول مؤسسات السنة الواثقة من نفسها، بحكم أغلبيتها الساحقة فى العالم العربى، تقريب الخلافات بين المذاهب، فإنها -واعية أو غير واعية- راحت تزيد الفجوة، غير مدركة أنها بذلك تفتح ثغرات لا داعى لها فى الجسم العربى(٢).

وفى مارس عام ١٩٩١، والسعودية لا تخفى سعادتها بما حدث للعراق، جاءت يقظتها المفزعة من هذه السعادة بمخاوفها من أن الشيعة على وشك الاستيلاء على السلطة فى العراق، وأن الخطر الشيعى أصبح العدو رقم واحد حتى بعد «صدام حسين»، وأنه إذا نجح الشيعة فى الجنوب واستولوا على بغداد، أو إذا أقاموا دولة لهم فى الجنوب فقط، فإن المد الشيعى سوف يصل من هناك إلى الكويت وإلى البحرين، ويندفع إلى المنطقة الشرقية للسعودية، وبالذات منطقة القطيف وعاصمتها «الظهران»، عاصمة البترول السعودى، وإذن فالأمر جد خطير.

(١) محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص٥٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص٥٧٤.

ولكن الجيش العراقى، الذى عاد من معركة الكويت خاسراً يلعق جراحه، اندفع إلى الجنوب الشيعى والشمال الكردى، الذى كانت تعد فيه مؤامرة شبيهة بمؤامرة الجنوب ضد العراق، وجرت معارك شرسة غير متكافئة، استطاع بها الجيش العراقى أن يستعيد السيطرة على الشمال والجنوب، وتخلت الأطراف الخارجية عن معاونة الشيعة فى الجنوب والأكراد فى الشمال، خوفاً من عواقب الأمور المرتقبة، والنتائج المزعجة من إقامة دولة شيعية فى الجنوب أو كردية فى الشمال.

واكتفت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها بتشديد الحصار الاقتصادى والعسكرى على العراق، وملاحقته بتدمير إمكانياته العسكرية الباقية، بعد أن أصبح مجلس الأمن أداة طيعة فى يدها، وعدم وجود قوة موازنة تقف أمام جبروت أمريكا.

المحصلة النهائية

والمحصلة النهائية، أن الحرب التى أثارتها العراق، ومن ورائها أمريكا والغرب، ومدعمة من دول البترول ضد إيران، قد دعمت من قوة الثورة الإسلامية فى إيران، على مدى ثمان سنوات، وأعطت رجال الثورة القوة، بأن يضربوا معارضيهم فى إيران بيد من حديد، لأنه لا صوت يعلو على صوت المعركة مع أعداء الوطن، حتى أن ابن شاه إيران المخلوع عرض على الخمينى أن يأتى إلى وطنه من المنفى، لكى يحارب ضد أعداء الوطن.

وهكذا فإن الفرصة أعطيت للثورة الإسلامية، لكى تتمكن من السلطة وتقود الوطن، والذى أعطاها هذه الفرصة هم أعداؤها، وذلك مثل الفرصة التى أعطيت للثورة الفرنسية فى أوربا، عندما تحرش بها أعداؤها فى أوربا، وأثاروا حرباً أوربية ضدها، فانتشرت مبادىء الثورة الفرنسية فى أوربا كلها.

ومثل هذا حدث للثورة الإسلامية فى إيران، فإن مبادئها انتشرت بقوة فى المنطقة العربية والبلاد الإسلامية، وكانت مبادؤها تنتشر بقوة فى دول الجوار، وعلى الأخص أفغانستان وباكستان وطاجيكستان، ومن ثم فإننا سنشهد نضالا قوياً ضد الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان، ستكون له نتائج ضخمة، ليس فى أفغانستان وحدها، وإنما فى الاتحاد السوفيتى نفسه، وفى البلاد الإسلامية، العربية وغير العربية.

الفصل الثالث

أفغانستان المجاهدة

أفغانستان المجاهدة

أفغانستان دولة جمهورية آسيوية، تقع فى آسيا الوسطى، تحدها إيران من الغرب، وباكستان من الشرق والجنوب، وتركمانستان وطاجيكستان من الشمال، ولأفغانستان حدود من جهة الشمال الشرقى وهى هضبة بامير مع الصين الشيوعية، أى مع منطقة تركستان الشرقية الإسلامية، التى استعمرتها الصين الشيوعية.

وأفغانستان بلد جبلى، تنزل على جباله الثلوج فى الشتاء، وينزل عليها المطر فى الربيع مع ذوبان الثلوخ، فتنحدر المياه من جبال أفغانستان -الواقع أغلبها فى الوسط- فى أنهار صغيرة وكبيرة، وتجرى مياهها عابرة أراضى أفغانستان إلى أراضى الدول المجاورة، وجبالها غنية بالأحجار الكريمة مثل الياقوت واللازورد، وبعض المعادن كالنحاس والحديد، وتبلغ مساحة أفغانستان (٦٥٠,٠٠٠ كيلومتر مربع.

وتتكون أفغانستان الحالية من الأقاليم الإسلامية الرئيسية المعروفة، وهى كابل وقندهار وسجستان وتركستان وهندكوش وجيحون وهزارستان، وغير ذلك من المناطق الصغيرة، وسكانها الحاليون أخلاط من الأفغان والفرس (طاجيك) والأتراك والمغول والبلوش، واختلطت تلك الأجناس اختلاطاً كبيراً، فأصبح من الصعب تحديد العناصر المكونة لكل قبيلة، واللغة التى يتحدث بها الأفغانيون شعبة من اللغة الفارسية، ماعدا إقليم جيحون الذى يتحدث أهله التركية.

ويدين الشعب الأفغانى كله تقريباً بالدين الإسلامى، وعدد السكان فى إحصاء عام ١٩٨٨ حوالى ١٦ مليون نسمة، بنسبة ٩٩٪ من المسلمين، أغلبهم على المذهب السنى مع أقلية من الشيعة.

ولقد لعبت بلاد أفغانستان دوراً بارزاً فى التاريخ الإسلامى، فمنها انبعث المد الإسلامى الكبير إلى بلاد الهند، على أيام محمود الغزنوى وخلفائه (٣٨٨- ٥٨٢هـ)، وأيام الغوريين من بعدهم، واتخذ المغول المسلمون الذين تحولوا إلى الإسلام فى أرض أفغانستان من (غزنة) فى أفغانستان قاعدة لهم فى غاراتهم على الهند، ففى عهد (بابر المغولى) الذى أسس امبراطولاية المغول فى الهند سنة ٩٣٣هـ (١٥٢٦م)، وطد سلطانه فى كابل، وظلت (كابل) فى يد خلفاء المغول نحو قرنين من الزمان.

وعليه فإن الفاتحين للهند على أيام الغزنويين والغوريين، انحدروا من جبال أفغانستان العظيمة، مع الأخذ فى الاعتبار أن الحملات الأولى على الهند، حدثت فى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى، فكان من القواد الأوائل الحارث بن مرة العبدى الذى استشهد فى أرض السند سنة ٤٢هـ، وفى سنة ٩٣هـ أرسل الوليد بن عبدالملك محمد بن القاسم عن طريق الحجاج بن يوسف الثقفى فى العراق إلى الهند، فأرسى قواعد دولة إسلامية بها، إلا أن التدفق الإسلامى الكبير على الهند حدث فى عصر الغزنويين والغوريين.

وأفغانستان لها تاريخ عريق فى الجهاد فى سبيل الله فى الماضى والحاضر، حتى قال عنها أحد المؤرخين «لعمرى لو لم يبق للإسلام فى الدنيا عرق ينبض، لرأيت عرقه بين سكان جبال الهيملايا

والهندكوش نابضاً، وعزمه هناك ناهضاً»، ثم قال «إن تلك الجبال كانت ولم تزل على ما يعلوها من الثلوج، مستوقد حماسة، ومثار حمية، وموطن فتوة، ومعدن فروسية»(١).

وعندما نشأت الدولة الصفوية فى إيران، توسعت فى أفغانستان، وكان لها نفوذ فيها، وخضعت مناطق سنية كثيرة من أفغانستان للحكم الشيعى الصفوى، وفى عهد السيطرة الصفوية على أفغانستان قام زعيم أفغانى يسمى (ميرويس) من قبيلة القلزائى يتحدى سلطة الفرس، فهزمهم وأعلن استقلاله فى (قندهار)، وحذت حذوه القبائل السنية فى المنطقة، وبعد وفاة ميرويس سنة ١١٢٨هـ (١٧١٥م) خلفه ابنه محمود، ولم يكن رجال الحكم فى فارس يومئذ على المستوى اللازم لتحمل المسئولية، مما أعطى الفرصة لـ(محمود الأفغانى) للزحف والاستيلاء على المدن الفارسية، الواحدة بعد الأخرى، وتنازل الشاه عن العرش لمحمود الأفغانى سنة ١١٣٥هـ (١٧٢٢م)، وأنهى بذلك الأسرة الصفوية كحاكمة لفارس، وخضعت فارس لحكم الأفغان.

ولم تستطع أفغانستان الاستمرار فى السيطرة على فارس، لأنها -أى أفغنستان- كانت أصغر بشرياً من فارس، وقامت ثورات كثيرة فى المدن الفارسية، ولم يستمر الحكم الأفغانى طويلا، حتى انتهى تقريباً سنة ١٢٠٩هـ (١٧٩٤م).

(١) شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامى، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص١٩٧- ١٩٨.

إلا أن فترة حكم محمود الأفغانى تعتبر بداية لأفغانستان الحديثه، وبعده تزعم الحركة القومية الأفغانية (نادر شاه)، ثم دخلت أفغانستان دوامة الأسر الحاكمة الضعيفة وغير المستقرة، حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى.

وبدأت أطماع الانجليز تمتد إليها بحجة المحافظة على الهند، وقاموا بحملة عليها سنة ١٨٣٩، لأنهم كانوا يتوجسون خيفة من الروس، ومن أطماعهم فيها لقربها منهم، غير أن الأفغان قاوموا الاستعمار الانجليزى بشدة، وحاول الانجليز مناصرة فريق على آخر من الطامعين فى عرش البلاد، وحاولوا إجلاس الشاه (شجاع الملك) على العرش سنة ١٨٣٩، فلم يستمر له الأمر طويلا، وقتله الشعب، وأفنى الأفغان جيشاً انجليزياً سنة ١٨٤١ مكوناً من ١٧ ألف جندى، وثبتوا ملكهم الجديد وهو (دوست محمد خان)، الذى ظل فى الحكم حتى مات سنة ١٨٦٣م (١٢٨٠هـ)(١)، وبعده نشب الخلاف بين أبنائه وتقاتلوا مدة طويلة ولم يتدخل الانجليز فى القتال، خوفاً من اتحاد الأفغان ضدهم، كما حدث من قبل، وظلوا متربصين من بعيد، وكانوا يتدخلون قليلا.

وبعد كثير من الصدام فى الداخل، تولى الأمر فى أفغانستان عبدالرحمن خان بن أفضل بن دوست محمد سنة ١٨٨٠، وتمكن من توحيد البلاد بحكمته، وأقام العدل، واستولى على ولاية (كافرستان)، وكان أهلها وثنيون، وهدى الله أهلها على يديه

(١) المرجع السابق، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص٢٠٢.

للدخول فى الإسلام، فسماها (نورستان)، وعرفت أفغانستان فى عهده الاستقرار، ولم يقبل تدخل الانجليز فى البلاد، وأجرى بعض الإصلاحات فى الجيش والتعليم، وهو معروف بأنه من أفضل ملوك أفغانستان، وتوفى سنة ١٣١٩هـ (١٩٠١م).

وبعد الحرب العالمية الأولى، تولى حكم أفغانستان سنة ١٩١٩م (١٣٣٦هـ) الملك (أمان الله خان)، وكان متفاهماً مع الانجليز، وكان أحد ثلاثة فى الشرق يعول عليهم الغرب، ويعقد عليهم آمالا كبيرة فى التغيير العلمانى، والثانى هو مصطفى كمال فى تركيا، والثالث (رضا بهلوى)، فقوى علاقته بهما، ومنحه الانجليز استقلالا مزيفاً، لأنه شجع العلمانية منذ عام ١٩٢١م (١٣٤٠هـ)، ومضى قدماً فى تغريب البلاد، فأعلن سفور المرأة، ونادى بتحريرها، وكان شاباً طموحاً لا يعبأ بالشعب، فثار الشعب ضده سنة ١٩٢٩، وأطاح به، ونفى فى روما.

وولى الشعب مكانه ابنه (عناية الله محمد نادر شاه)، الذى لم يستمر فى السلطة طويلا، حيث اغتاله أحد طلاب الكلية الحربية، فانتقل الحكم إلى ابنه الوحيد (محمد ظاهر شاه)، وهو فى سن المراهقة، وفى عهد هذا الملك الصغير قويت علاقة أفغانستان مع روسيا، حيث تولى رئاسة الوزراء رجل طموح هو (محمد داود)، ابن عم الملك المعروف بميوله الشيوعية، ومن ثم فتح البلاد على مصراعيها أمام الروس، ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً، وتدفق الخبراء الروس على البلاد، وأرسلت أفغانستان مئات الطلاب إلى روسيا

سنوياً، ليتعلموا وخاصة فى المجال العسكرى، الذى احتكره الروس فى أفغانستان، تدريباً وتسليحاً، ومن هنا قويت أطماع الروس فى البلاد.

وبدأت التنظيمات الشيوعية تعمل فى أفغانستان، وكان (محمد داود) خير نصير لها، وفى سنة ١٩٤٧ أسس الشيوعيون جماعة (ويش زلميان) أى (جماعة الشباب اليقظ)، ومارست نشاطها، وأصبح لها وجود فى البرلمان، وأصدرت صحيفة (نداء خلق) أى (صوت الشعب)، وعندما اشتد ساعدهم قاومتهم الحكومة وعطلت صحفهم، غير أنه عندما أصدرت الحكومة قانون الصحافة الحرة سنة ١٩٦٥، تشجعت الحركة الشيوعية، وأخرجت صحيفة (خلق) أى (الشعب)، ورأس تحريرها (نور محمد تراقى)، الذى تولى رئاسة الجمهورية فيما بعد، وكانت هذه الصحيفة لسان حال الحزب الشيوعى فى البلاد، الذى عرف منذ ذلك الوقت باسم (حزب خلق)، وعلى الرغم من أن الملك جرد (محمد داود) من منصبه سنة ١٩٦٤، عقب إجراء تعديل دستورى، إلا أن سلطته ظلت قوية فى البلاد، لمناصرة الشيوعيين له، وأخذ يعمل معهم سراً من أجل قلب نظام الحكم.

وفى ١٧ من يوليو عام ١٩٧٣م (١٣٩٣هـ) قام محمد داود خان مع أنصاره بانقلاب أنهى به الحكم الملكى، وأعلن الحكم الجمهورى، وأصبح محمد داود أول رئيس للجمهورية الأفغانية، التى أطلق عليها زوراً «جمهورية أفغانستان الإسلامية»، وعلى إثر قيام

هذا الانقلاب، تولى الشيوعيون أهم المناصب، وقاموا بالدعاية للنظام الجدديد، وتمكنوا من البلاد فى عهد جمهورية محمد داود، وخاصة فى مجال الاستخبارات والمجال العسكرى، ولم يكن الشيوعيون مخلصين لمحمد داود، بقدر إخلاصهم لموسكو (١).

وكان بالبلاد تنظيم إسلامى قوى لجماعة، استمدت تنظيمها من جماعة الأخوان المسلمين المصرية، وأطلقت على نفسها «الجمعية الإسلامية الأفغانية»، أنشأها شاب من خريجى الأزهر هو (غلام محمد نيازى) سنة ١٩٥٩، وآثرت هذه الجمعية أن تعمل فى السر نحو عشر سنوات، ونشط فرعها الطلابى فى الجامعة باسم (الشبان المسلمون)، واستطاعوا أن يخلصوا الجامعة من سيطرة الشيوعيين، ومن ثم عمل (محمد داود) قبل قيامه بالثورة حسابهم، فاستمال أنصارهم فى الجيش والحياة المدنية، وأغراهم بأنه سيقيم حكماً إسلامياً صالحاً، ولكن عندما بدأ يحس باستقرار وضعه، ألغى من اسم جمهوريته عبارة «الإسلامية»، واكتفى باسم «جمهورية أفغانستان»، وبدأ يعين الشيوعيين فى مواقع السلطة، فعارضه زعماء الحركة الإسلامية، وشنوا عليه هجوماً بلا هوادة، وقالوا بأنه غير مؤهل لقيادة جمهورية إسلامية كما ادعى من قبل، وقالوا بأنه تربى فى فرنسا، فى أحضان الحاقدين على الإسلام، وكان معروفاً بالظلم منذ تولى المناصب، ومكن للشيوعيين بعد انقلابه على ابن عمه، فأعلن داود أن زعماء الاتجاه الإسلامى أعداء للثورة، وزج بهم فى السجون

---

(١) جريدة الشرق الأوسط السعودية، عدد ٤٥٧، بتاريخ ١/١/١٩٨٠.

وكانت هذه الردة هى التى مكنت للشيوعيين بدرجة أكثر من ذى قبل.

وخشيت روسيا من قوة الحركة الإسلامية على العودة، فعملت جادة بمعونة أنصارها فى الداخل على الإطاحة بمحمد داود الذى أدى غرضه المرحلى من وجهة نظرها.

وعلى الرغم من أن محمد داود تنبه لخطئه المميت، إلا أن ذلك كان بعد فوات الأوان، فقد كان الشيوعيون قد رتبوا أمورهم مع موسكو، للانقضاض عليه بزعامة (نور محمد تراقى).

وفى ٢٧ من أبريل عام ١٩٧٨، أطاح الشيوعيون بنظام داود، وهكذا خان الشيوعيون نصيرهم محمد داود، الذى مكن لهم فى البلاد، وانقلبوا عليه وقتلوه وجميع أفراد أسرته وأقربائه دون رحمة، حيث قتلوا فى الساعات الأولى من الانقلاب نحو (١٢,٠٠٠ نسمة)، حسب ما يذكره المحللون، وهناك من يذكر أضعاف هذا العدد من القتلى.

ولقد أعادت لنا هذه الانقلابات الشيوعية فى العالم الإسلامى، صورة ما كان يحدث فى العصور القديمة والوسطى، عندما يتخلص المنتصرون من خصومهم تخلصاً جسدياً بالجملة، وبلا رحمة، سواء منهم الصغير القاصر والكبير العاجز، وسواء أكان رجلا أو أمرأة.

وقدم الشيوعيون كبش فداء لحركتهم خوفاً من فشلها، وهو رجل غير معروف، يسمى (الجنرال عبدالقادر)، ليعلن على الناس

قيام الانقلاب على أساس الإسلام والعدالة والديمقراطية، ورحب المغفلون بالانقلاب، ولكن بعد يومين من وقوع الانقلاب، ظهر قادته الحقيقيون من الشيوعيين على مسرح الأحداث، فأعلنوا عن قادتهم، وكان كلهم من الشيوعيين بزعامة (نور محمد تراقى)، رئيس الحزب الشيوعى الذى أطلقوا عليه أبو الثورة الأفغانية.

وبعد عام ونصف من قيادة نور محمد تراقى، تخلص الشيوعيون منه، وذلك بعد عودته من موسكو فى التاسع من أكتوبر عام ١٩٧٩، وقيل «إنه استقال من منصبه بسبب فقدان عقله وجنونه»، والواقع أنه قتل بعد توديع (بريجنيف) الرئيس السوفيتى له فى مطار موسكو، وطبع على جبينه قبلة وصفتها وكالات الأنباء والصحافة بأنها «قبلة الموت»، التى تعود الروس أن يودعوا عملاءهم بها عندما يرغبون فى التخلص منهم، وفقاً لطبيعة الشيوعية التى لا تعرف خلقاً ولا جميلا ولا وفاء.

وأتى الشيوعيون بعد تراقى بعميل آخر هو (حفيظ الله أمين)، الذى اشتدت الثورة الإسلامية فى فترته الوجيزة، التى دامت نحو ثلاثة أشهر، وعلى الرغم من كل ما قدم له من دعم روسى، لم يستطع القضاء على الثورة الإسلامية فى البلاد، ولا الحد من توسعها وتقدمها إلى جهات جديدة، ورأى الروس أنه فاشل تماماً.

وعند ذلك رأى الروس أنفسهم بين خيارين، إما التراجع، أو التدخل المباشر، فرجحوا الخيار الثانى، بعد أن جاءتهم تقارير تشير إلى قتل كثير من المستشارين الروس، وهروب بعض الجنود

من الجندية، وانضمامهم إلى الثوار بكامل أسلحتهم، وتقدم الثوار فاستولوا على كميات كبيرة من السلاح الروسى، واستيلاء الثوار على المناطق المتاخمة للاتحاد السوفيتى(١).

وزحف الروس على أفغانستان فى ٢٧ ديسمبر عام ١٩٧٩، بجيش قوامه مائة ألف جندى، لسحق المقاومة الإسلامية، التى اعتبروها خطراً على المناطق الإسلامية المتاخمة لأفغانستان، والخاضعة لروسيا فى تركستان الغربية، ونصب الروس عميلا جديداً لهم، بعد أن قتلوا حفيظ الله أمين، وكان هذا العميل هو (بابرك كارمل)، وهو زعيم حزب (برجم)، وعين رفاقه فى الحزب فى مناصب الدولة، وكان بابرك ورفاقه يعيشون فى المنفى.

موقف العالم الإسلامى من غزو أفغانستان

أدرك المسلمون فى العالم بعد غزو أفغانستان، أن روسيا ماضية فى الزحف على بقية الدول المجاورة، باكستان وإيران وتركيا، وأن أفغانستان مأخوذة فى الطريق إلى غيرها، فدعا المسلمون إلى مؤتمر إسلامى يعقد فى (إسلام آباد) فى الثامن من ربيع الأول سنة ١٤٠٠هـ (٢٦ من يناير عام ١٩٨٠م).

وفى المؤتمر لم يستطع المجتمعون أن يفعلوا شيئاً لأفغانستان السليبة، سوى إعلان الأسف لما حدث، واستنكارهم للعدوان الأثيم الذى يعتبر خرقاً للقانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة، ونادى

(١) جريدة الشرق الأوسط، عدد ٤٦٩، بتاريخ ١٩٨٠/١/١٥.

المؤتمر بالانسحاب الفورى للروس، ولكن ذلك الطلب من مصدر ضعف وتفرق فى الكلمة، لا من مصدر قوة، لأن بعض الدول الإسلامية التى اجتمعت فى المؤتمر، والتى كانت تمشى فى ركاب روسيا مثل سوريا واليمن الجنوبى وليبيا والجزائر لم تقبل حضور وفد رجال المقاومة الأفغانية للمؤتمر، وكان هذا منتهى التخاذل والخوف من روسيا، الذى أملاه الضعف، ولم تكتف هذه المجموعة بهذا الموقف، بل هددوا بإفشال المؤتمر، إذا أقبل على إدانة روسيا، وقال بعضهم إذا أدنا روسيا فيجب أن ندين أمريكا أيضاً، ونتج عن هذا الموقف أن المشتركين فى المؤتمر أخذوا يتضاربون بالأقوال لتجريح بعضهم بعضاً، للتفريق لا للتجميع.

والمضحك المبكى أن المؤتمرين اختلفوا فى بداية المؤتمر على اللغة التى تدار بها جلسات المؤتمر، فالدول التى كانت فى الماضى مستعمرات فرنسية طلبت بأن تكون لغة المؤتمر هى الفرنسية، أما الدول التى كانت مستعمرة انجليزية فقد أصرت هى الأخرى على أن تكون لغة المؤتمر هى الإنجليزية، ولذلك فإن دول العالم الإسلامى كان انقسامها فى المؤتمر، انقسام ميول إلى روسيا أو أمريكا، وفى مسألة اللغة كان انقسامهم إنقساماً استعمارياً، وليس هذا فى اللغة فقط، وإنما فى الاتجاهات السياسية، والمشارب الأيديولوجية والثقافية(١).

---

(١) انظر للمؤلف، العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث والمعاصر، الجزء الأول، ص١٧٩ - ١٨٠.

موقف الدول الغربية من الغزو

على الرغم من تضارب المصالح، بين الشرق الشيوعى والغرب الرأسمالى، إلا أنهم يتفقون بشأن كثير من القضايا، التى تمس المصالح الإسلامية، وهذا ما حدث إبان اجتياح روسيا لأفغانستان فى ٢٧ ديسمبر عام ١٩٧٩، فعلى الرغم من أن النفاق الأمريكى أدى إلى اعتراض أمريكا الظاهرى على عملية الغزو الشيوعى لأفغانستان، ومنع بعض شحنات القمح الأمريكى عن روسيا، وقاطعت أمريكا دورة الألعاب الأوليمبية فى موسكو سنة ١٩٨٠، وغير ذلك من المظاهر الشكلية، إلا أن أمريكا لم تتحرك عملياً لمساندة أفغانستان، وإحساس المسلمين الذى لا يخطىء يجعلهم يدركون بأن أمريكا متخوفة هى الأخرى من الصحوة الإسلامية، التى بدأت فى العالم الإسلامى، وهى متآمرة سراً على ضرب الأمانى الإسلامية فى كل مكان فى العالم.

وقد وصف (مايكل آدمز) رئيس تحرير مجلة «ميدل إيست انترناشيونال» Middle East International أى مجلة الشرق الأوسط العالمية، سياسة النفاق الأمريكى هذه بقوله «إن رد الفعل الأمريكى يقتصر على سلسلة من البيانات المتضاربة، التى يرفضها حتى حلفاء أمريكا، بوصفها ضرباً من النفاق العديم المغزى»(١).

---

(١) من مقال للكتاب الانجليزى «مايكل آدمز» فى جريدة الشرق الأوسط السعودية، بعنوان «أين تقف يا ريجان؟»، عدد ١٩٨١/٩/٦.

وأيما كان تقديرنا لموقف العالم الإسلامى وأمريكا، فإن المعول عليه هو جهاد الشعب الأفغانى وصلابته أمام الشيوعيين، هذا الشعب الذى لم تفسده أمراض المدنية الحديثة، وتمكن بهذا الجهاد البطولى من القضاء على هيبة الاتحاد السوفيتى، حتى قال الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون فى كتابه «الفرصة السانحة» Seize the Moment «تمكنت المقاومة الأفغانية، رغم ضعف تسليحها، من وقف النفوذ الشيوعى، وأجبرت موسكو على الانسحاب المهين من البلاد» (١).

وعندما رأت أمريكا صلابة الجهاد الأفغانى ضد الاتحاد السوفيتى، وجدتها فرصتها التى لا تعوض، فقامت بتشجيع هذا الجهاد، وتسليح الأفغان، بل وأوعزت لحلفائها فى العالم الإسلامى، وهم باكستان ومصر والسعودية، بالسماح للمجاهدين المسلمين من بلادهم بالاشتراك فى عملية الجهاد الإسلامى فى أفغانستان، وبدأت باكستان تستقبل الآلاف من المتطوعين، وتدربهم على الحدود بينها وبين أفغانستان، وبدأ العون من مصر أيام الرئيس الأسبق محمد أنور السادات، والسعودية على أيام الملك خالد بن عبدالعزيز، وباكستان على أيام الرئيس الأسبق ضياء الحق، إلى أن وصل عدد المجاهدين المتطوعين حوالى ربع مليون مجاهد، إلى جانب الأفغان الشجعان، وانتهى الأمر إلى انسحاب الاتحاد السوفيتى من أفغانستان، انسحاباً

(١) ص١٢ من الترجمة العربية لأحمد صدقى مراد، نشر دار الهلال المصرية، القاهرة، ١٩٩٢.

مخزياً، وانتهى به الأمر إلى الفقر واستجداء الغرب لقمة العيش، ثم السقوط أخيراً، كما سبق أن ذكرنا.

الموقف فى أفغانستان بعد الانسحاب الروسى

بعد انتصار الجهاد الإسلامى فى أفغانستان، بدأ الصراع الداخلى على السلطة، وتفجرت الحرب الأهلية بين بقايا الشيوعيين بزعامة (عبدالرشيد دوستم)، من بقايا أنصار الرئيس الشيوعى المخلوع نجيب، و(دوستم) من الأوزبك، وهم طائفة قوية ولهم امتداد فى دولة أوزبكستان، ويأتيه الدعم من روسيا، التى مازالت متواجدة فى البلاد الإسلامية المستقلة فى وسط آسيا، ونظراً لأنه شيعى فيأتيه الدعم من إيران، والجبهة الثانية هى جبهة رئيس الجمهورية (برهان الدين ربانى)، المتحالف مع أحمد شاه مسعود وزير الدفاع السابق، وهو قائد القوات التابعة لبرهان الدين ربانى، والجبهة الثالثة جبهة (قلب الدين حكمت يار)، وهو من الباشتون، وهم يشكلون أغلبية الشعب الأفغانى، ولهم امتداد فى باكستان، وتدعمهم باكستان، وهو رئيس الوزراء، أما ربانى فهو من الطاجيك الذين لهم امتداد فى طاجيكستان(١).

ولقد تحالف حكمت يار مع دوستم الشيوعى، ضد رئيس الحكومة ربانى وحليفه أحمد شاه مسعود، ومن العجيب أن ينضم إلى حكمت يار صبغة الله المجددى رئيس الجبهة الوطنية الإسلامية، وكونوا ما يسمى (مجلس التنسيق الأعلى للجهاد الإسلامى)، وطالبوا

---

(١) جريدة المسلمون، عدد ٤٦٦، فى ١٩٩٤/١/٧.

بتنحية رئيس الحكومة ربانى، دون قيد أو شرط، وتشكيل حكومة مؤقتة، ومازال ربانى يعتصم بالعاصمة كابول، أمام هذا التحدى، الذى يستمر فى تدمير قدرات الشعب الأفغانى، ومقومات دولته تكاد تصل به إلى ما حدث فى الصومال من حرب أهلية، أدت إلى تدمير الدولة وانهيار كامل لها، ولكن وجه الاختلاف بين أفغانستان والصومال، أن الأولى دولة محل أطماع خطيرة من جانب القوى المحيطة بها، وهذه القوى هى روسيا، التى لا تقبل أن يسود الاستقرار فى أفغانستان، الذى يشكل قوة ضغط وإشعاع إسلامى لجمهوريات وسط آسيا المجاورة له، وما يحدث فى طاجيكستان من مساندة أفغانية للثوار الطاجيك ضد القيادة الشيوعية فى دوشنبة، أبلغ دليل على الوضع فى موسكو، التى تساند النظام الشيوعى فى طاجيكستان(١).

ومن جهة خرى، فإن النظام الحاكم فى أوزبكستان يخشى بدوره من الاستقرار فى أفغانستان، ولذلك يحرص على التحالف مع موسكو، ومع الشيوعيين فى طاجيكستان، وموقف روسيا واضح لأن يلتسين نفسه يقول «إن حدود روسيا الاستراتيجية هى حدو الجمهوريات الآسيوية الإسلامية»، ويزيد الآن من التأكيد على هذا الاتجاه، ما يعلنه رئيس المعارضة فلاديمير جرينوفسكى، الذى يتزعم الآن حركة التعصب القومى والعرقى الروسى، ويطالب بإخضاع الجمهوريات الإسلامية لروسيا، أو إعادة ضمها إليها.

---

(١) جريدة الوفد المصرية، الأحد ١٩٩٤/١/٩، من مقال للسفير صلاح بسيونى، بعنوان «أفغانستان ١٩٩٤، لا مجال للتفاؤل».

وليت الأمر يقتصر على روسيا، فهناك قوى إسلامية مجاورة، كإيران وباكستان، كل منها تود أن تلعب دوراً فى أفغانستان، بحيث تصل القوى الموالية لها إلى الحكم، كل هذا يؤجل من الاستقرار فى البلاد، ولا يجعلها تجنى ثمرة جهادها الطويل ضد الشيوعية.

ويلوح فى الأفق شبح التقسيم، فقد أعلن عبدالرشيد دوستم رغبته فى تقسيم البلاد إلى أربع ولايات على أساس عرقى، فتكون هناك:

(١) ولاية بشتونية فى الشرق والجنوب، والبشتون يشكلون ما يقرب من ٤٠٪ من السكان.

(٢) ولاية شيعية فى مناطق هزاجار فى وسط البلاد.

(٣) ولاية للطاجيك فى الشمال الغربى.

(٤) ولاية للأوزبك فى الشمال(١).

وعلى هذا، فالأمر يحتاج إلى مبادرة إسلامية من الدول الإسلامية، لكى تضغط على هؤلاء الزعماء، لكى يجعلوا المصلحة القومية فوق كل اعتبار، والبقاء على وحدة أفغانستان، فى وقت تتربص فيه القوى الكبرى لإفساد الأوضاع فى هذا البلد، الذى قام بدور بطولى فى إذلال الاتحاد السوفيتى، واليوم تقوم روسيا

(١) جريدة الوفد المصرية، الأحد ١٩٩٤/١/٩، من مقال للسفير صلاح بسيونى، بعنوان «أفغانستان ١٩٩٤، لا مجال للتفاؤل».

بإعطاء السلاح لأنصارها لتطويل الصراع، وجعل أفغانستان تنشغل بنفسها، بدلا من أن تنشغل بالتدخل فى الدول الإسلامية المستقلة حديثاً عن الاتحاد السوفيتى، ومازالت روسيا تضغط عليها، وتريد لهيمنتها أن تستمر عليها.

العبرة المستفادة من جهاد الأفغان

لقد أثبتت عملية الجهاد الإسلامى فى أفغانستان ضد الاتحاد السوفيتى قدرة المسلمين الكفاحية، وأنهم مازالوا قادرين على هزيمة الجبابرة فى العالم بقوتهم العقائدية، وأنهم مازالوا قادرين أيضاً على تجميع أنفسهم من العالم كله، لكى يواجهوا أعداء الإسلام بقوة وصلابة، وهذه العملية كان يشاهدها الغرب بعين ملئوها الريبة والخوف، وأدركوا أن الإسلام الذى هزمت دوله فى كل مكان على يد الاستعمار الغربى لم يمت تماماً، وأنه مازال قوياً قادراً على الكفاح والنضال، وأن روحه مشتعلة متوهجة بالنضال، وأنها كامنة كالنار تحت الرماد، تحتاج إلى من يشعلها من جديد، ويدفعها إلى ساحات القتال.

ولقد أدركت أمريكا هذه الحقيقة المرعبة لها، ولغيرها من الدول الاستعمارية، ويشهد رئيسها الأسبق نيكسون بقوة النضال الإسلامى، التى ساعدت على قهر الاتحاد السوفيتى، وقال ما معناه أن كفاح المسلمين للشيوعية كان أقوى من كفاح الغرب، ذلك لأن المسلمين كافحوا الشيوعية من منطلق عقائدى، ونحن حاربناها من منطلق اقتصادى، فكانت حرب المسلمين لها أقوى، وهذا ما أشرنا

إليه من قبل فى الفصل التمهيدى لهذا الكتاب.

والملاحظة التى يجب علينا أن نعيها كما وعاها الغرب، هى أن المسلمين مازالوا بخير، لن تفتر عزيمتهم، ولن تضعف همتهم، وأنهم قادرين على الانتصار إذا أتيحت لهم أسلحة يدوية بسيطة، ليست فى مستوى الأسلحة الغربية الالكترونية الحديثة، ولقد استوعبت أمريكا هذا الدرس تماماً، وأرادت بعد ذلك ومن ورائها عملاؤها فى العالم الإسلامى، أن تشتت جمع المجاهدين المسلمين الذين تجمعوا فى أفغانستان، على الرغم من أنها هى التى ساعدت فى تجميعهم لمنازلة الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان، إلا أنها أدركت فى النهاية، بعد أن أدوا دورهم فى القضاء على الاتحاد السوفيتى، أنهم خطر على النظم العميلة لها فى العالم الإسلامى، وبالتالى فهم خطر عليها فى النهاية، وبدأت تتعقبهم فى كل مكان فى أفغانستان وباكستان وطاجيكستان وإيران والصومال.

وعندما أرادت أن تسيطر على الصومال فى عام ١٩٩٢ فى حركة بهلوانية، أطلقت عليها «إعادة الأمل»، أى إنقاذ الصومال من المجاعة، فأرسلت إليه حوالى ثلاثين ألف جندى من قواتها، وقالت زوراً بأن مهمتهم القضاء على الفوضى فى الصومال، وتوزيع المعونات الأمريكية للبؤساء والجوعى من الصوماليين، إلا أنها كانت فى حقيقة الأمر تهدف إلى السيطرة على هذا البلد الاستراتيجى، الذى يقع فى مدخل البحر الأحمر، وتريد أن تأخذ منه رأس جسر إلى الدول الأفريقية، ولكنها فوجئت بحركة مقاومة صومالية قوية، وفوجئت أيضاً بالمجاهدين الأفغان الذين طاردتهم من قبل، يظهرون لها فى

الصومال، ويقضون على أمالها فى هذه البلاد، وإذا بالجنود الأمريكان يتساقطون عى أيدى هذه المقاومة الشرسة، فأدركت أمريكا بسرعة ألا مقام لها فى الصومال، وإلا تحولت إلى أفغانستان جديدة، أو فيتنام جديدة، فأعلنت بسرعة عن نيتها فى الجلاء عن الصومال، قبل أن تنال هزيمة مروعة، فى بلد تحاط بالبلاد الإسلامية فى أفريقيا، ولا تملك أمريكا أن تحاصرها حتى ولو تم لها حصارها من ناحية البحر، فتبقى حدودها مع الدول الأفريقية مفتوحة، لا سيطرة لدولة عليها.

إذن على العالم الإسلامى أن يدرك قوته، كما أدرك أعداؤه، وأن يجمع صفوفه، وأن يقضى على مرض الفرقة، ذلك المرض العضال الذى استشرى فى العالم الإسلامى، بسبب هيمنة الزعماء العملاء على مقدراته، وعليهم أن يتخلصوا من هؤلاء العملاء، ويعينوا الأكفاء المخلصين لأوطانهم بطريقة ديمقراطية بعيدة عن الاستبداد بالرأى، فليس أضر على العالم الإسلامى فى زماننا هذا من الاستبداد والمستبدين، فهم الذين أضروا بمصالحه ضرراً بليغاً، لأنهم يزيفون إرادة الشعب، ويكرهون الديمقراطية، ولا يحكمون صناديق الانتخاب لكى تأتى بالأكفاء، وكلما ذهبت أمة منهم لعنتها أختها التى تأتى بعدها، ويفتعلون المعارك مع غيرهم من الزعماء الآخرين فى العالم الإسلامى، هذه المعارك التى تقضى على الأخضر واليابس فى بلادهم، وفى النهاية يلجأون إلى الغرب لكى يصلح أمرهم، ويصلح بينهم، وهيهات أن ياتى لهم الصلاح من هذا الغرب المتربص بهم، فهو الخصم والحكم، وهيهات أن يأتى الخير من هذا الخصم الماكر، فهو لا

يرتضى حكماً إلا لمصلحته.

وعلى الرغم من انتكاسة الجهاد الأفغانى، كما سبق أن أوضحنا، وانقلابه إلى حرب أهلية، يتقاتل فيها المجاهدون على المناصب الحكومية وعلى الرئاسة، اننى أعتقد انهم سييميلون فى النهاية إلى تحكيم عقولهم، وخاصة إذا أدركوا أن روسيا التى ورثت الاتحاد السوفيتى تتربص بهم، ومن ورائها الغرب الرأسمالى، ونسمع فى الآونة الأخيرة (منتصف عام ١٩٩٤) عن أصوات تنادى بالوحدة، على كل حال فمن سنن الله الكونية التى لا تتغير أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

الفصل الرابع

جمهورية طاجيكستان

جمهورية طاجيكستان

جمهورية طاجيكستان فى الأصل منطقة تابعة لجمهورية أوزبكستان السوفيتية، وكانت تضم فى بادىء الأمر بعض المناطق العائدة لحكومة التركستان العامة السابقة، ولإمارة بخارى، فلما سقطت حكومة التركستان وإمارة بخارى بيد البلاشفة الروس، قاموا بوضع التقسيم الإدارى الجديد، وجعلوا طاجيكستان جمهورية ذاتية تابعة لأوزبكستان سنة ١٩٢٤، ثم ما لبثوا أن أضافوا إليها القسم الشمالى من منطقة البامير، وهى المنطقة المحاذية لأفغانستان، والمشهورة بثروات الفيروز واللازورد والذهب(١)، وتبلغ مساحتها ١٤٣,١٠٠ كيلومتر مربع، وهى بذلك أصغر الجمهوريات الإسلامية فى التركستان الغربية.

وهذه الجمهورية تقع شمال أفغانستان، وتشترك معها فى الحدود والأقاليم ومنابع المياه، مما جعلها أكثر معايشة للواقع الإسلامى فى أفغانستان، وطبيعة البلاد جبلية، حيث تبلغ نسبة الجبال ٩٣٪ من أراضيها، وتقع طاجيكستان على قمة جبال البامير الشاهقة الارتفاع، مما جعلها بعيدة عن التأثير الإلحادى، بل إن كثيراً من العلماء الذين قاوموا الغزو الإلحادى الشيوعى، جعلوها قاعدة لانطلاقاتهم الجهادية(٢).

وكلمة (طاجيك) معناها الفرس، و(ستان) معناها بلاد، فيكون معنى طاجيكستان بلاد الفرس، وقد عانى الطاجيك كثيراً من

(١) محمد على البار، المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، جـ١، ص٢٨٢.

(٢) كمال السعيد، مقال فى جريدة الوفد المصرية، عدد ٢٤ من ربيع الأول ١٤١٢هـ/ ٢٢ سبتمبر ١٩٩٢م، عن طاجيكستان.

تجاهل الأوزبك لهم، وعدم اعترافهم بوجود جنسية خاصة بهم، وكانوا يحاولون إقناعهم بأنهم من أصل تركى، ولكن الطاجيك كانوا يزدادون تمسكاً بأصلهم الفارسى ولغتهم الفارسية، وهم الدولة الوحيدة فى دول وسط آسيا التى تتحدث الفارسية، وباقى الدول تتحدث التركية، وتعداد البلاد حوالى ستة ملايين، يمثل الطاجيك منهم ٥٩٪، والأوزبك ٢٣٪، والروس والأوكرانيين ١٠٪، والباقى من جنسيات أخرى، ونسبة الإسلام ٩٠٪.

طاجيكستان فى حوزة السوفيت

فى ٥ من ديسمبر عام ١٩٢٩، أصبحت طاجيكستان الجمهورية السابعة فى الاتحاد السوفيتى، ولقد دفعت الحوادث إلى ذلك، وذلك أن الملك (أمان الله) ملك أفغانستان أقصى عن العرش بسبب ثورة داخلية، واعتبرت هذه العملية ضربة للاتحاد السوفيتى، وخشيت الحكومة السوفيتية أن يؤدى سقوط أمان الله إلى الإخلال بتوازن القوى فى وسط آسيا، ولابد من إجراءات سوفيتية لتلافى ذلك، فحولت منطقة طاجيكستان إلى جمهورية اتحادية سوفيتية، واعتبرت هذا رداً على إسقاط أمان الله بيد السياسيين الأفغان، الذين كانوا يعملون بوحى من بريطانيا.

ولقد أرسل ستالين إلى الزعماء الشيوعيين فى طاجيكستان، رسالة بمناسبة قيام هذه الجمهورية، ليشرح لهم فيها أهمية هذه الجمهورية بالنسبة للسياسة السوفيتية، واستهل رسالته بقوله «تحية إلى طاجيكستان، جمهورية العمالة السوفيتية الجديدة على أبواب هنداستان»، لأنه كان يطمع أن تكون بوابتهم إلى الهند وأفغانستان وإيران، واستطاعوا بالفعل الوصول إلى أفغانستان عن طريقها، لأن

سكان أفغانستان الشمالية يتألفون من شعوب تخضع للاتحاد السوفيتى، وهم الطاجيك والأوزبك والتركمان، وتستطيع أن تستعملهم للضغط على أفغانستان فى أى وقت، وكان السوفيت يرون أن شعب الطاجيك ووطنه قسما بالقوة تقسيماً مصطنعاً، وأنهما ينبغى أن يعودا إلى وحدتهما، وأولى خطوات التقسيم حدثت فى منتصف القرن الثامن عشر، حينما انتزعت قبائل الأفغان بقيادة أحمد خان، أراضى الطاجيك بولاية بخارى، وهى الأراضى الواقعة إلى الجنوب والجنوب الغربى لنهر جيحون، والتى تشمل بلخ، وهى أقدم مركز ثقافى طاجيكى، ثم قسم الطاجيك مرة أخرى عام ١٨٩٥ بفعل روسيا وبريطانيا، فقد قام الاثنان بتخطيط حدود أفغانستان الشمالية، وضمت إليها المناطق التى يسكنها الطاجيك على الجانب الأيسر لنهر تانزا(١)، وتمركزت فى طاجيكستان قوات سوفيتية هائلة، أعدها الروس لاستخدامها عند الحاجة إليها، وفى النهاية تم دخولهم أفغانستان سنة ١٩٨٠ محتلين، فكانت أفغانستان مقبرة للشيوعية.

مشاكل طاجيكستان العرقية

وفى أثناء تبعية طاجيكستان لأوزبكستان، كان الأوزبك يؤكدون أنه لا توجد جنسية طاجيكية، ومن ثم فإن الطاجيك كانوا يشعرون بالضيق إزاء الأوزبك، والعنجهية التركية التى يشجعونها، وكانوا يؤكدون دائماً أن أصلهم يرجع إلى الإيرانيين، وليسوا بأى حال من أصل تركى.

ومع ذلك فإن بعض الأوزبك، ينكرون وجود شعب طاجيكى

(١) د.خليل عبدالمجيد، جمهورية طاجيكستان الإسلامية ماضيها وحاضرها، من أبحاث مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز، جامعة الأزهر.

إذ أن أصل هؤلاء الناس هو أصل تركى، ولكنهم نسوا لغتهم الأصلية، ألا وهى اللغة التركية، وقد اعترف الدستور السوفيتى سنة ١٩٢٠، وهو الدستور الخاص بالجمهوريات السوفيتية، الذى شارك فيه الأوزبك والأتراك الشيوعيون، أن هناك ثلاث جنسيات فقط بين هذه الشعوب المسلمة، وهم الأوزبك والقرغيز والتركمان، ونفوا وجود أى كيان لأهل طاجيكستان مختلفاً عن الكيان الأوزبكى، لكل ذلك فقد عارض الشيوعيون الأوزبك إنشاء جمهورية طاجيكستان، وظلوا يرفضون فكرة وجود الجنسية الطاجيكية لسنوات عدة.

ولذلك فإن إقامة جمهورية طاجيكستان سنة ١٩٢٤، تعد ضربة خطيرة فى مواجهة هذه النزعة التركية، وقد بدأ ينمو منذ ذلك الحين التغنى بالأدب الطاجيكى، وانتشر كذلك تعليم اللغة الطاجيكية(١)، وقد قلب الطاجيك التفسير الذى يقدمه أنصار النزعة التركية، فيقولون إن الشعب الأوزبكى من أصل إيرانى، ولكنه اتجه ناحية الأتراك وأصبح تركياً، مع أنه يدين بالكثير لجذوره الإيرانية، وقد ظهر هذا التفسير فى الكثير من الكتابات، وعلى الأخص عند غافوروف Ghafurov، السكرتير الأول للحزب الشيوعى الطاجيكى من سنة ١٩٤٦- ١٩٥٦ فى كتابه (الطاجيك)، وهو من أهم الكتاب هناك، وبعد وفاته سنة ١٩٨٠ انتشر هذا التفسير، بعد أن أعيد طبع كتابه Tajikan أى الطاجيك، وقد

(١) د.رجاء ياقوت، نماذج من المشاكل العرقية فى طاجيكستان الإسلامية، بحث مقدم إلى مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز، جامعة الأزهر، وهو عبارة عن ترجمة لمقال بالإنجليزية بعنوان الذاتية الدينية والذاتية القومية فى منطقة آسيا الوسطى، كتبته السيدة موريبل أنكين فى سنة ١٩٨٨.

وصف الإعلام الطاجيكى هذا الكتاب بأنه «كتاب قومى مقدس»(١).

ويعتبر هذا التفسير تفسيراً صحيحاً من الناحية الشكلية، إذ أن غافوروف قد قرر فيه أن الشعبين الطاجيكى والأوزبكى يتفقان فى أشياء كثيرة، سواء فى أسلوب حياتهما أو فى صراعهما ضد الطغيان، ووصف الأوزبك بأنهم مدينون للايرانيين، سواء من حيث السلالة أو من حيث الثقافة، وهم جميعاً من جنس واحد، ألا وهو الجنس الإيرانى الخاص بآسيا الوسطى، ويختلف الشعب الأوزبكى أصلا عن بقية أهم الشعوب التركية فى آسيا الوسطى، أمثال القازاق والقرغيز، حيث أنهم لم يتأثروا مثلهم بالمغول، فقد جاءت القبائل التركية إلى منطقة آسيا الوسطى منذ القرن السادس بعد الميلاد، واختلطت بالقبائل المختلفة الإيرانية التى كانت تعيش هناك من قبل، وخرج الأوزبك من هذه البوتقة التركية الإيرانية فى حوالى القرن الحادى عشر الميلادى، وذلك قبل أن يطلق عليهم اسم الأوزبك، وبناء على ذلك فإن الأوزبك، ولو أنهم يتكلمون اللغة التركية، إلا أنهم ينحدرون من أصل إيرانى فى الغالب، وقد ورثوا كذلك الحضارة الإيرانية القديمة، وعندما تشكل الشعب الأوزبكى، كان الشعب الطاجيكى شعباً ذا حضارة فريدة خاصة، كما أنه كان يعد أغلبية وسط سكان مدن آسيا الوسطى والمناطق الزراعية، وبعد ذلك بقرون عدة، جاءت أفواج من المهاجرين الأتراك للمنطقة، مما جعل العنصر التركى هو الغالب، حتى أن الكثير من الطاجيك اكتسبوا لذلك الصفة التركية، وهكذا ظل الأوزبك إيرانيين، ولكنهم تحولوا إلى أتراك على خلاف ذلك، فمن النادر أن يصبح الأوزبكى طاجيكياً،

---

(١) د.رجاء ياقوت، المرجع السابق.

حتى أن اللهجات التركية التى تتكلمها الأغلبية الجديدة من الأوزبك، تنحدر أصلا من اللغات الفارسية والإيرانية، وكذلك من اللغة العربية، كما أن الكثير من الشعراء الأتراك كانوا يكتبون باللغة الفارسية إلى جانب التركية (١).

ويفسر الطاجيك، وبنفس هذا الأسلوب، السيطرة التركية على منطقة آسيا الوسطى، حيث يؤمنون بأن القوة العسكرية السياسية للأتراك فى المنطقة لم تأت بإنجازات عظيمة، وإنما هى نابعة من وحشيتهم البدائية، وهكذا فإن الحضارة فى رأى الطاجيك قد أقامها بالفعل السامانيون فى هذه المنطقة، وقد كانوا يتحدثون بالفارسية (٨٧٤- ٩٩٩)، وهم الذين كانوا يحكمون الإقليم، وقد أقاموا دولة مسلمة فارسية قوية فى آسيا الوسطى وفى شرق إيران وفى الشمال الغربى لأفغانستان، وقد ساعدوا فى نفس الوقت على تطور الأدب الفارسى، الذى يصفه المؤرخون الطاجيك، بأنه أغنى تراث طاجيكى (٢).

وقد تبعت الحقبة السامانية فترة حكم بدائية لقبائل تركية متنقلة، تختلف سياستها جذرياً عن السياسة السامانية، حيث أنهم أغلقوا أساس الحضارة، ألا وهو تطوير المدن فى المنطقة، وجدير بالذكر أن المناخ السياسى فى الاتحاد السوفيتى فى عهد جورباتشوف، كان يشجع هذه الانتقادات ضد أوزبكستان وحكامها.

(١) د.رجاء ياقوت، المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

المتغيرات الطاجيكية فى ظل الحكم الشيوعى

إن فترة الحكم السوفيتى قد أحدثت تغيراً هاماً فى مفاهيم عديدة، وأرست مبادىء جديدة مثل مبدأ التعليم للجميع، وكذلك الاهتمام بالإعلام، ووضعت بدايات للتخطيط الإقليمى، وأنشئت بعض الصناعات، وأقامت نظاماً جديداً للزراعة الجماعية، كما اهتمت بالشئون العسكرية، وبإرساء وعى سياسى شامل، إذ كان التقدم الذى جلبه النظام السوفيتى، قد غير طاجيكستان، وعلى الأخص القرى حيث يعيش غالبية الطاجيك، فإنه كان أقل بكثير مما حدث فى المناطق الأخرى من الاتحاد السوفيتى.

والغالبية الكبرى من السكان يعيشون فى القرى، مما يفسر إبقائهم على أسلوب الحياة التقليدى هناك، كما يفسر أن هذه الجمهورية كانت أقل الجمهوريات السوفيتية اهتماماً بالمدن، مع أن نسبة سكان القرى، حسب تعداد ١٩٧٩، هى ٣٨٪ من سكان الولايات السوفيتية، إلا أن نسبة القرويين ٦٥٪ من مجموع سكان طاجيكستان، والحق يقال أن هذه الجمهورية قد زادت نسبة سكان القرى فيها منذ سنة ١٩٧٠، حتى أن الشكل العام للمجتمع يتسم بأنه مجتمع قروى أكثر من أى جمهورية أخرى فى الاتحاد السوفيتى، إذ أن ٧٢٪ من الطاجيك يعيشون فى القرى، ويمثل الشعب الطاجيكى نسبة ٤٢٪ من إجمالى سكان المدن فى الجمهوريات السوفيتية.

يعيش الشعب االطاجيكى حياة منعزلة، ولا يهتم بما يحدث فى الخارج، هكذا يعيش أكثر من ٨٠٪ من الريفيين فى المكان الذى ولدوا فيه، وهم يتفرقون فى أكثر من ثلاثة آلاف قرية، ولما كانت

(١) المرجع السابق.

طبيعة البلاد جبلية أساساً (٩٣٪ من مساحتها)، فإن الريفيين يعيشون فى مناطق متباعدة، تصل بينها طرق وعرة، ولا يمكن المرور بها فى أكثر الأحيان، ويسكن هذه القرى فى الغالب أفراد من جنسية واحدة، إذ كانت الأوراق الرسمية تقول إن الطاجيك من أجناس مختلفة، وإن كانوا يعيشون فى أماكن متباعدة، إلا أنهم ينتمون إلى عرق واحد، والطاجيكى لا يتزوج إلا من القبيلة نفسها، وهو ريفى أكثر منه حضرياً، وفى الحالات النادرة التى يتزوج فيها من خارج قبيلته، فهو يفضل أن يتزوج أوزبكية أكثر من الروسية، أو أية فتاة من جنسية أخرى.

ولم تساعد طرق المواصلات الغير متطورة فى نشر تأثير المدن على سكان القرى، كما أن الإمكانات الريفية من مكتبات ونوادى ومسارح ودور السينما كانت غير لائقة بالمرة، لذلك فإن الطاجيك هم أقل سكان الجمهوريات السوفيتية قراءة للكتب، واقلهم اشتراكاً فى الصحف والمجلات، كما أن مستوى التعليم هناك أقل مما هو موجود فى المدن، وإذا كان من المعروف أن ثلثى سكان الجمهورية من سكان الريف، وإذا كان التعليم قد انتشر فى جمهورية الطاجيكستان، إلا أن الكثير من الطاجيك يبقون فى ديارهم، ويتكلمون لهجات مختلفة ترجع إلى أصولهم المختلفة، ولا يستخدمون اللغة الطاجيكية المكتوبة، كما أن اللغة الروسية لا تستخدم كذلك فى جمهورية طاجيكستان، ففى إحصائيات سنة ١٩٧٩ أدعى أكثر من ثلث الطاجيك معرفتهم بها، ولكن لا يمكننا الاعتماد على هذه الإحصائيات، حيث أنها مفرطة فى حرصها على

إرضاء السلطات الروسية والنظام السوفيتى(١).

والطاجيكى يجهل تاريخ بلاده، لأن السلطات السوفيتية عملت على ذلك، فلا يوجد كتاب تاريخ يتحدث عن تاريخ الطاجيك إلا نادراً عند المتخصصين، ونتيجة لذلك فإن التلاميذ هناك يعرفون تاريخ اليونان ومصر وروما والصين أكثر مما يعرفون تاريخ بلادهم.

المتغيرات أيام جورباتشوف

ولما خفت فى عهد جورباتشوف الضغوط السوفيتية، أمام النشاط غير المصرح به للمجموعات، ظهرت خلافات عنيفة وسط الطاجيك فى القرى وجيرانهم المسلمين الآخرين، مما سبب توتراً فى العلاقات بين الطاجيك والقرغيز والأوزبك، كما ظهرت أيضاً أعمال العنف فى أوزبكستان، ويرجع السبب المباشر لكل ذلك العنف إلى النواحى الاقتصادية، مثل الحصول على الأراضى أو على المياه.

ونظراً لعدم الاعتناء بتعليم الدين فى وسط آسيا السوفيتية من قبل، فإن إلمام الطاجيك وغيرهم بأصول الإسلام قليل، والحكومة تحدد المساجد المعترف بها، وتغلق الباقى وتحوله إلى متاحف، ففى إحصاء سنة ١٩٧٩ كانت المساجد المعترف بها فى طاجيكستان ١٥١ مسجداً، ومن ثم يعمل الكثير من العلماء فى الدعوة سراً، دون أية رقابة رسمية، وفى السنوات الأخيرة ظهرت شخصية الشيخ (عبدالله سيدوف)، وكان من العلماء الأصوليين فى المنطقة، واعتقل فى صيف سنة ١٩٨٦، عندما نادى بتطبيق الشريعة الإسلامية، وتظاهر مؤيدوه للإفراج عنه، وتعرفت عليهم السلطات، وكانوا هم وزعيمهم

(١) المرجع السابق.

يعيشون فى المنطقة الجنوبية الغربية.

والعلماء المعترف بهم رسمياً، قد أخذوا تعاليم الدين الإسلامى من مدرستين، إحداهما فى بخارى، والأخرى فى طشقند، وهاتان هما المدرستان الوحيدتان اللتان تمنحان التكوين الدينى والشهادات الدينية فى الاتحاد السوفيتى، ويتخرج منها حوالى ستون شخصاً كل عام، وقد أنشئت مدارس إضافية منذ سنوات قليلة، أما الذين يصبحون علماء غير رسميين أو صوفيين منهم، يدرسون فى مدن وقرى مختلفة، وهكذا يختلف الوضع هنا عما هو فى البلاد الإسلامية الإخرى(١).

ويتصل المسلمون الطاجيك بالعالم الإسلامى، بواسطة الإذاعات والتسجيلات والكتب التى تصل إلى آسيا الوسطى، وتأتى هذه الرسائل الدينية من عدد كبير من البلاد مثل مصر والسعودية وإيران وباكستان وأفغانستان، وهنا يختلف التفسير الدينى للإسلام من بلد إلى آخر، تبعاً للاختلافات السياسية والمذهبية.

الوضع الاقتصادى

على الرغم مما يشاع الآن عن طاجيكستان، بأنها بلاد فقيرة، إلا أن لها موارد اقتصادية هائلة، صحيح أن حوالى ٩٣٪ من مساحتها جبال، إلا أن الجبال بها مساقط مياه كثيرة من المرتفعات، وهذه المساقط تولد الطاقة الكهربائية منها بوفرة، مما يساعد على تشغيل المصانع، ولما كانت البلاد غنية بالمعادن (ومن أهمها اليورانيوم والذهب والنحاس والألومنيوم والزنك والياقوت واللازورد

(١) المرجع السابق.

والفضة والنفط والغاز الطبيعى)، فإن توفر الطاقة الكهربائية يساعد على التصنيع بشتى أنواعه، الثقيل والخفيف، لذلك فإن ٨٠٪ من استخدامات الاتحاد السوفيتى السابق النووية، كانت تعتمد على اليورانيوم المستخرج من جبالها، ومن ثم فإن ما يقال بأنها دولة فقيرة، هى دعاوى يرددها أعداء البلاد الإسلامية، الذين يريدون أن يغرقوها بالديون، ومن ثم الاستيلاء على اقتصادها، وهى المسألة التى تتكرر أمام أعيننا كل يوم فى العالم الإسلامى.

السكان

كان عدد سكان طاجيكستان سنة ١٩٧٩ (٣,٨٠٦,٠٠٠ نسمة)، منهم ٨٢,٥٪ من المسلمين، وكانوا يتوزعون كالآتى:

الجنس	العدد	النسبة المئوية
طاجيك	٢,٢٣٧,٠٠٠	٥٨,٥ ٪
الأوزبك	٨٧٣,٠٠٠	٢٣,٠ ٪
الروس	٣٩٥,٠٠٠	١٠,٥ ٪
التتار	٨٠,٠٠٠	٢,٢ ٪
القرغيز	٤٨,٠٠٠	١,٢ ٪
الأوكرانيون	٣٦,٠٠٠	
اليهود	١٥,٠٠٠	٠,٤ ٪
التركمان	١٤,٠٠٠	٠,٣ ٪
جنسيات أخرى	١٠٨,٠٠٠	

وكان يعيش فى هذا التاريخ، خارج الاتحاد السوفيتى من الطاجيك، حوالى من ثلاثة ملايين إلى أربعة ملايين فى أفغانستان،

وهناك مجموعات صغيرة منهم فى شمال باكستان والصين.

والشعب الطاجيكى ريفى فى معظمه، وفيما يزداد عدد سكان المدن على حساب سكان الريف فى كل أنحاء العالم، وحتى فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى الأخرى، فإن ريف طاجيكستان يميل إلى الرجحان على كفة المدن، فنسبة سكان المدن فى عام ١٩٧٠ (٣٧,١٪)، وهبطت فى عام ١٩٧٩ إلى (٣٥٪).

ويشكل الشعب الطاجيكى أمة متحضرة، لا وجود فيها لأى بنية قبلية، وتقول المصادر السوفيتية إن هذا الشعب مثل الأوزبك، أكثر سكان آسيا الوسطى تديناً، وغالبية المسلمين من السنة على المذهب الحنفى، وتعيش جماعات شيعية فى مدينة دوشنبيه العاصمة، وجماعات إسماعيلية تتارية فى منطقة البامير ذات الحكم الذاتى(١).

الوضع الدينى فى ظل الحكم الشيوعى

كانت الحكومة الشيوعية قد حددت عدد المساجد وعدد الدعاة فى فترة ما قبل انهيار الاتحاد السوفيتى، ففى عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) حددت عدد المساجد بحوالى ١٨ مسجداً مفتوحاً للعبادة، وعدد رجال الدين الرسميين ٦٨ رجل دين مسجلين رسميين، ونزل هذا العدد سنة ١٩٦٤ إلى ٣٩ داعية رسمى(٢).

ويتم سد هذا النقص الشديد فى مجال المساجد والدعاة عن طريق رجال الطرق الصوفية، ولاسيما النقشبندية والقلندرية،

(١) المسلمون المنسيون فى الاتحاد السوفيتى، أليكساندر بينانجس والسيدة شطال لو ميرسى، ترجم إلى العربية بواسطة مجلة الأسبوع العربى، ونشر على حلقات كل أسبوع، أنظر عدد ١٩/٤/١٩٨٢.

(٢) المرجع السابق، الأسبوع العربى، عدد ١٩/٤/١٩٨٣.

بالإضافة إلى عدد كبير من الدعاة غير الرسميين (الملالى)، وهم فى الغالب من الأئمة الذين تم إغلاق مساجدهم، وغيرهم من الدعاة الذين بفضلهم يحصل التوازن فى مجال الدعوة، ونشاط هؤلاء الدعاة غير الرسميين أخذ فى التزايد، والتحول إلى مراكز حقيقية للحياة الدينية، ولاسيما مزارات الأولياء والصالحين(١).

وبدأ كفاح طاجيكستان قبل ثلاثين عاماً من انهيار الاتحاد السوفيتى، ودراسة الدين الإسلامى وعلومه لم تتوقف طوال الحقبة الشيوعية، وكان يحدث هذا سراً فى المنازل، فيذكر الأستاذ محمد عبدالحى، ممثل نائب رئيس الوزراء فى الحكومة الإسلامية (١٩٩٢) «كنا ندرس فى منازلنا كل علوم الدين، وفى الستينيات بدأت الدراسة السرية لعلوم الدين تنتشر على يد اثنين من العلماء، الذين تعلموا فى جامعات العالم الإسلامى، وفى عام ١٩٧٤ بدأت الحركة الإسلامية المنظمة سراً، واستمرت هكذا بزعامة السيد عبدالله نورى حتى عام ١٩٩٠، حيث تم تأسيس (حزب النهضة الإسلامية) رسمياً، عندما أعلن عن حرية تأسيس الأحزاب فى البلاد، وتولى رئاسته (محمد شريف زاده)، ونائبه (دولت عثمان)، الذى تولى منصب رئيس الوزراء، وأصدرت الحركة عدة صحف إسلامية الآن (١٩٩٢)، منها:

١ - صحيفة النجاة ٢ - صحيفة خبر الحق

٣ - نور الإسلام»(٢).

وبالإضافة إلى حزب النهضة الإسلامية، يوجد فى طاجيكستان

---

(١) المرجع السابق، ذات المكان.

(٢) انظر الحوار الذى أجراه الصحفى عبدالفتاح فايد، محرر بجريدة الشعب، فى ١٤/١٠/١٩٩٢.

حزبان آخران، هما الحزب الوطنى الديمقراطى، الذى شكله يوسفوف، وهو حزب علمانى، ويطرح برنامجاً علمانياً يحاول به استرضاء جميع القوميات والقوى الدولية المتربصة بالإتجاه الإسلامى، وعلى الأخص روسيا، وحزب ثانى يسمى (رستاخيز) ومعناها البعث، ورئيسه طاهر عبدالجبار، ويدعو إلى إحياء التراث القومى الطاجيكى المرتبط بالثقافة الفارسية، وليس للحزبين الأخيرين قواعد شعبية.

أما حزب النهضة الإسلامية، فتؤيده غالبية واسعة وعريضة، خاصة فى الريف حيث يسكن ٧٠٪ من سكان البلاد، وقدتحدثت صحيفة (أزفستيا) الروسية عنه فقالت «إنه صاحب أفضل مستقبل بين القوى السياسية فى البلاد» (١).

وتتضح قوة الصحوة الإسلامية وتأثيرها الفعال، فى صدور قرار البرلمان بإزالة تماثيل لينين، وتغيير أسماء الشوارع المسماة بأسماء الشيوعيين، وإعلان حل الحزب الشيوعى، وإلغاء حركة الطوارىء التى فرضها البرلمان، وتنظيم إضراب رجال الدين المسلمين عن الطعام أمام أبواب البرلمان، مما اضطر البرلمان أن يضع على جدول أعماله خمسة من مطالب المعارضة، والمطالبة باستقالة رئيس الجمهورية (رحمن نبييف)، رغم مرور أسبوع فقط على تعيينه من قبل البرلمان، خلفاً للرئيس (قدرالدين أصلانوف)، الذى أقيل إثر محاولته حظر أنشطة الحزب الشيوعى فى البلاد (٢).

---

(١) د.خليل عبدالمجيد، جمهورية طاجيكستان الإسلامية ماضيها وحاضرها، مرجع سبق ذكره.

(٢) المرجع السابق.

ونجحت الحركة الإسلامية فى تغيير اسم العاصمة، من «ستالين آباد» إلى «دوشنبه»، وهو اسمها القديم، ولكن هذه العاصمة التى تحولت من قرية صغيرة إلى مدينة كبيرة، نمت كمدينة روسية، ليس للطاجيك فيها نفوذ كبير، ففيها عدد من الموظفين الروس والأخصائيين من الروس والأوكرانيين واليهود، ومن أجل هذا كانت مشاركة الوطنيين فى شئون بلادهم ضئيلة، لأن إدارة البلاد جميعها فى يد الروس، وكانت جميع المناصب ابتداء من الرؤساء، وحتى أصغر عامل فى البلاد من الروس(١).

ولقد أثارت طاجيكستان منذ عام ١٩٩٢، اهتمام المراقبين للحركة الإسلامية فى التركستان الغربية، نظراً لأنها البلد الوحيد الذى بادر بخلع الزيف الديمقراطى، الذى يمثله الحاكم الشيوعى (عبدالرحمن نبييف)، والذى كان يختفى وراء اللافتة الديمقراطية، فكل ما فعله أنه غير لافتة الحزب الشيوعى، ووضع مكانها «الحزب الديمقراطى»، ولكن هذا لم يقنع الشعب الطاجيكى المسلم، فقام بحركته النشطة بزعامة حزب النهضة الإسلامى، وخلع عبدالرحمن نبييف فى سبتمبر ١٩٩١، ولأن هذه الحركة إسلامية فقد تغيرت المصطلحات السياسية، الحرية تحولت إلى الفوضى والاضطرابات، والمجاهدون تحولوا إلى (زعماء قبائل)، و«الجهاد» تحول إلى صراع على السلطة، والزعماء المسلمون تحولوا إلى «رؤساء عشائر»، ولم يستسلم الشيوعيون، وتركزت مواجهتهم ضد حركة حزب النهضة بأنهم أصوليون، وأنهم يسعون إلى إقامة دولة أصولية

(١) المرجع السابق.

على غرار إيران(١)، وبدأت وكالات الأنباء الغربية تبث سمومها فى تحالف واضح ضد الإسلاميين، وفى تآزر مع روسيا التى تعلن الحياد المزيف، الذى يوارى خلفه إنحيازاً إلى الشيوعيين، وعلى رأسهم الرئيس المخلوع والمرفوض من الشعب، غير أن الانتخابات المزورة جاءت به إلى الحكم بعد شهرين من خلعه فى نوفمبر ١٩٩٢، فعادت المعارضة الإسلامية للتظاهر ومحاصرة القصر الرئاسى، حتى اضطر نبييف للهرب مرة أخرى، ثم العودة مرة أخرى بعد الرضوخ لمطالب المعارضة، التى تمثلت فى قبوله إقالة رئيس البرلمان الشيوعى «صفر على كنجايف»، نائب رئيس الدولة ورئيس جهاز التليفزيون والراديو، ونزل على رأى المعارضة بتشكيل حكومة جديدة تضم ثمانية من حزب النهضة الإسلامى، من بينهم دولت إسماعيل نائب رئيس حزب النهضة، ليكون نائباً لرئيس الحكومة، الذى يرأس الجمهورية فى الوقت نفسه.

ولكنه رفض التحول إلى الاقتصاد الحر، وسانده فى موقفه رؤساء الجمهوريات الإسلامية الأخرى فى وسط آسيا، واعتبروه حاجزاً للمد الإسلامى الذى بلغت قمته منتهاها فى طاجيكستان، حيث يعبر عن هذا الاتجاه حزب النهضة الإسلامى والذى يتزعمه محمد شريف زاده(٢).

وانتهى الأمر فى طاجيكستان إلى تولى حكومة شيوعية يرأسها (إمام على رحمنوف)، وتحرسه قوات روسية على الحدود

(١) كمال السعيد، خلفيات الصراع السياسى فى طاجيكستان، مقال بجريدة الوفد المصرية، عدد ١٩٩٢/٩/٢٢.

(٢) المرجع السابق.

بين أفغانستان وطاجيكستان، وأرسلت أيضاً كل من كازاخستان وأوزبكستان وقيرغيزستان قواتاً لها لمساعدة الحكومة الشيوعية الجديدة، التى هى ضد إرادة الشعب، وكل هذا يتفق مع أحكام اتفاقيات الكومنولث الروسى الموقعة فى مينسك (عاصمة روسيا البيضاء)، بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٩٩٣(١).

وفى ظل هذه الحماية، أعلن رحمنوف، القائم بالرئاسة الجديد «أنه بصدد بناء دولة علمانية، وأن بلاده لن تكون دولة إسلامية ولا شيوعية»(٢)، ولكنه لن يستطيع أن يكون ضد إرادة شعبه، وهذا هو خطأ الحكام العملاء ومن يقف وراءهم، فإن الشعوب لها دائماً الكلمة الأخيرة، وإذا لم تحترم إرادتها فإن الأمور لن تستقر، وهذا ما سنشاهده فيما بعد.

وأعلن زعيم حزب النهضة الإسلامية، أن حكومة بلاده شيوعية، وهو يرفض التعاون معها، معلناً أن أعضاءها مجرد (دمى) فى أيدى الروس، وأوضح بأنه لولا القوات الروسية لسقطت حكومة الماركسيين، التى ذبحت آلاف المسلمين، وهجرت ربع سكان البلاد كلاجئين إلى أفغانستان، لذا فقد نادى بتدخل كل من باكستان وإيران وأفغانستان فى الحوار مع روسيا، لتقرير مصير البلاد(٣).

والواقع أن قضية طاجيكستان هى أكبر من طاجيكستان وحدها، فالدول المجاورة لها من دول الكومنولث الروسى ومن

(١) الوسط اللندنية، عدد ٨٢، فى ١٩٩٢/٨/٢٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) وكالات الأنباء، فى ١٩٩٢/١/٣١.

ورائهم روسيا، لا تريد هذا الاتجاه الإسلامى، وهم يرون أنه إذا خرجت طاجيكستان من أيديهم، سيمتد الاتجاه الإسلامى لبقية الجمهوريات الإسلامية المجاورة، والأمر الأهم أن ٣٠٪ مما لدى روسيا من اليورانيوم كان يأتى من طاجيكستان، وأول قنبلة نووية صنعت من هذا اليورانيون، كما أن تكنولوجيا اليورانيوم وتخصيبه موجودة فى طاجيكستان(١).

وقد تآلفت واتحدت قوى الأحزاب الثلاثة، النهضة الإسلامى والحزب الديمقراطى وحزب رستاخير (البعث) القومى، وقد خاض هؤلاء عدة معارك عنيفة ضد قوات الجبهة الشعبية، التى تضم أعضاء الحزب الشيوعى، وكان البرلمان قد شكل قوات من الكومنولث أثناء دورته المنعقدة فى مدينة خوقند الشمالية، ودعاها إلى الزحف على العاصمة دوشانيه بعدما سلحت تسليحاً جيداً(٢).

وقامت مجموعة من الشيوعيين باغتيال زعيم التحالف الإسلامى الديمقراطى فى البرلمان وهو (صاحب نازاروف)، وبدأ القتل سراً للإسلاميين ومن يساندهم فى جميع أنحاء العاصمة، وسقط الشهداء بالآلاف ودفنوا فى مقابر جماعية، وبدأت عملية تصفية لخصوم الشيوعيين ليس لها مثيل، حتى قال رئيس البرلمان إمام على رحمانوف إن ضحايا الصراع حتى الآن (يناير ١٩٩٣) قدروا بعشرين ألف قتيل ومائة ألف مفقود، وأن مائة ألف آخرين هاجروا إلى أفغانستان، ومن الملاحظ أن ما قام به الشيوعيون شبيه بتصفيات

(١) د.نيفين عبدالخالق، مرجع سبق ذكره.

(٢) فهمى هويدى، طاجيكستان حرب ضد التاريخ، مقال فى مجلة المجلة السعودية، فى ١٩٩٢/١/٢٧.

العصور الوسطى، التى يحاول المنتصر إلى إبادة خصمه تماماً من الوجود، وهذا المظهر الهمجى لا نجد له مثيل سوى فى البوسنة فى العصر الحديث، وضد المسلمين وحدهم، لأن الخوف من اليقظة الإسلامية شديد للغاية.

ونتيجة لذلك عاد الحزب الشيوعى يعمل باسمه كما هو لم يغيره، وسيطر على مؤسسات الدولة التنفيذية والتشريعية، وأجهزة الأمن وقوات المخابرات الروسية الـ(كى جى بى)، وأصبح الشيوعيون فى جانب، وقوى الأحزاب الإسلامية والعلمانية والقومية فى جانب آخر، وبذلك أصبحت طاجيكستان هى الدولة الوحيدة من دول الاتحاد السوفيتى، التى يحكمها الحزب الشيوعى، بزعاماته وكوادره التى احتكرت السلطة طيلة السبعين عاماً السابقة(١).

حدث هذا بسبب الخوف من المد الإسلامى، وهو الفزع الأكبر لدول الغرب وروسيا، على الرغم من أن قادة حزب النهضة الإسلامى أعلنوا مراراً أن الحديث عن إقامة حكم إسلامى ليس وارداً فى الوقت الراهن، وتحدثوا عن حاجتهم إلى فترة عشرين عاماً من العمل التربوى والفكرى قبل فتح ذلك الملف، وأكدوا فى كل مناسبة أن قضية الدفاع عن الديمقراطية هى التى تحتل الأولوية القصوى فى برنامجهم السياسى.

ويذكر الكاتب والمحلل الإسلامى الكبير فهمى هويدى أن ما جرى ينبهنا إلى عدة حقائق، فى مقدمتها(٢):

(١) فهمى هويدى، المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ذات المقال.

- أن النخب الشيوعية التى كانت تحكم البلاد قبل انهيار الشيوعية، مازالت هى التى تهيمن على مقدرات الجمهوريات الإسلامية خصوصاً حتى اللحظة الراهنة، وبعضهم ظل كما هو معلناً نفسه بذات العنوان وذات الوجوه، ومن ثم فنحن نقع فى مبالغة نسبية عندما نتحدث عن سقوط النظام الشيوعى، لأن ذلك الوصف ينطبق على روسيا بالدرجة الأولى، حيث سقط المشروع وسقطت رموزه، وحظر نشاط الحزب، أما فى الجمهوريات الإسلامية فقد سقط المشروع حقاً، ولكن رموزه وكوادر حزبه مازالت باقية، وما تغير حقاً فى تلك الجمهوريات هو المناخ العام والحريات، التى أطلقت بدرجات متفاوتة.

- إن روسيا برغم كل ما تعانيه من مشكلات داخلية، ليست غائبة عن وسط آسيا كما يتوهم البعض، ولكنها موجودة ومؤثرة على أربعة مستويات على الأقل، فهناك الجيش الروسى لايزال مرابطاً على حدود كل جمهورية وفى أرضها، وإن وصف بأنه جيش دول الكومنولث، بل إن بعض وحدات ذلك الجيش تجاوز وجودها الحدود، وانتشرت فى الداخل بمقولة حماية المرافق الحيوية فى البلاد، كما حدث فى طاجيكستان.

من ناحية ثانية، فهناك جهاز الأمن الـ(كى جى بى)، الذى لايزال قائماً ونشطاً ومتابعاً لكل ما يجرى فى تلك الجمهوريات، وإن كان الاتحاد السوفيتى قد انهار، فإن شبكة مخابراته السرية مازالت موجودة، وتباشر أنشطتها فى مختلف الجمهوريات.

ومن ناحية ثالثة، فهناك النخب الروسية، التى جرى

زرعها فى مختلف الجمهوريات، وتولت احتكار جميع الوظائف العليا فيها، على المستويات الإدارية والسياسية والفنية، ومن ثم فكل الأجهزة الفاعلة والأعصاب الحساسة فى البلاد، لاتزال تحت الهيمنة الروسية، أما الكوادر المحلية فقد كانت فى الماضى محجوبة عن تلك المواقع، وتحتاج إلى وقت طويل لتصبح مؤهلة لشغلها.

من ناحية رابعة، فإن اقتصاد تلك الجمهوريات لايزال محكوماً بالسياسة الروسية، ابتداء من النقد الذى يصدر فى موسكو، وانتهاء بالمشروعات القائمة على التكامل، والتى تعجز كل جمهورية عن النهوض بها منفردة، حيث المشروع الواحد موزع على عدة جمهوريات، و«المايسترو» الذى يضبط عملية الإنتاج قابع فى موسكو، وبمقدوره أن يحرك أى صناعة أو يصيبها بالشلل، إذا أراد.

- أن الكلام عن الاستقلال فى تلك الجمهوريات هو سابق لأوانه فى الواقع، وغاية ما يمكن أن يقال بصددها أن باب النضال أمام شعوبها لنيل الاستقلال قد انفتح، وعلى تلك الشعوب أن تواصل النضال ضد الهيمنة الخارجية والاحتكار الداخلى، حتى تفوز باستقلالها فى نهاية المطاف، بعد أجل قد يطول أو يقصر (١).

ولكن الشيء الهام الذى يجب أن نؤكده، أن هذا ليس نهاية المطاف بالنسبة للقوى الإسلامية والديمقراطية والقومية فى طاجيكستان، فلن تقف هذه القوى مكتوفة الأيدى أمام سحق الشعب الطاجيكى، على أيدى فلول الشيوعية البائدة، فقد استولت هذه

(١) فهمى هويدى، المرجع السابق.

القوى على مرتفعات بامير القوية، وهى تعد لحرب عصابات، وتقوم بتسليح رجالها، وتتاخم هذه المنطقة الجبلية أفغانستان والصين وقيرغيزستان وتسمى بدخشان، وتتمتع بحكم ذاتى داخل دولة طاجيكستان، وبها عناصر شيعية قوية، لها تاريخ طويل فى النضال، ولن تقف أفغانستان مكتوفة الأيدى أمام سحق أخوانها الطاجيك فى طاجيكستان، على يد الشيوعيين، ولها تجربة ناجحة فى النضال ضدهم.

ومما هو جدير بالذكر، فإن طاجيكستان كانت قد قررت أن تكتب لغتها الفارسية بحروف عربية، كما كانت قبل الاحتلال الروسى، وبدأت تقرر تعليم اللغة العربية فى مدارسها، بينما تبنت كل من كازاخستان وتركمانستان وقيرغيزستان كتابة لغتها بالحروف اللاتينية مثل تركيا(١).

وفى الآنة الأخيرة (مايو ١٩٩٤)، أعرب محمد شريف همت، نائب رئيس حركة النهضة الإسلامية، عن رغبة الحركة فى تحقيق تسوية سلمية للنزاع، واستعداد حركة النهضة للقاء الوسيط الروسى، وإجراء مفاوضات برعاية الأمم المتحدة، واشتراك ممثلين من المجلس الأوربى والسعودية وباكستان وإيران وأفغانستان ودول آسيا الوسطى وروسيا.

وقال «إن حركة النهضة ستطرح عدة مقترحات، من بينها:

١ - تشكيل المجلس الأعلى للدولة، والحكومة المؤقتة المحايدة، من أفراد (تكنوقراطيين) أكفاء، غير منتسبين إلى أى من الأحزاب المتصارعة.

---

(١) مجلة الوسط اللندنية العربية، عدد ٤٥، فى ١٩٩٢/١٢/٧.

٢ - إرسال قوات لحفظ السلام تحت إشراف الأمم المتحدة، وتكون هذه القوات من دول الكومنولث، باستثناء الدول المجاورة، وأن تخضع لإشراف خبراء عسكريين دوليين، نصفهم على الأقل من السعودية وباكستان وأفغانستان وإيران.

٣ - وقف جميع الملاحقات والاعتقالات السياسية.

٤ - إعادة المشردين والمهاجرين إلى ديارهم.

٥ - إعادة جميع الممتلكات المغتصبة إلى أصحابها.

٦ - إجراء انتخابات حرة بعد عامين من الاتفاق.

٧ - إعداد دستور جديد للبلاد.

وأكد محمد شريف أن الهدف لقوات المعارضة، هو حل المشاكل المتراكمة وتأمين التطور الاجتماعى والاقتصادى والثقافى، وبناء المجتمع الديمقراطى المدنى، عن طريق إجراء تغييرات جذرية فى جميع نواحى حياة المجتمع(١).

ولكن الدول الغربية والأمم المتحدة والمجتمع الدولى المؤثر، مازال صامتاً، بل وصفقت أوربا وأمريكا على هذا الاعتداء على الديمقراطية، كما حدث فى حالة الجزائر ونيجيريا، ولم تناصر الديمقراطية إذا كانت تتعلق بدولة إسلامية، بينما هى لا تسمح بمثل هذا العمل فى شرق أوربا ضد الدول التى تحررت من الاتحاد السوفيتى، وتحمى حركتها الديمقراطية، وتحترم اختيار الشعب لحكوماته فى كل من (لاتفيا وليتوانيا ومولدافيا)، أى أن الدول الغربية تكيل بمكيالين، فالديمقراطية ضرورة فى أوربا، مرفوضة فى

(١) المسلمون، عدد ٤٨٥، الجمعة ٩ من ذى الحجة ١٤١٤هـ/ ٢٠/٥/١٩٩٤م.

الدول الإسلامية، ويرضون لهذه الدول الإسلامية أى شىء غير النهضة الإسلامية الديمقراطية، حتى ولو كانت الشيوعية التى سبق لأمريكا وأوربا محاربتها بالتعاون مع المسلمين، وكان الميدان أرض أفغانستان، وتحت شعار الجهاد الإسلامى.

وكان المراقبون يعلقون ومازالوا، أهمية كبيرة على مساعدة مجاهدى أفغانستان لإخوانهم الطاجيك فى محنتهم، ولكن المؤامرات الغربية فجرت الحرب الأهلية من جديد فى أفغانستان، بين بقايا الشيوعيين بزعامة عبدالرشيد دوستم، من بقايا أنصار الرئيس المخلوع الشيوعى نجيب، ودوستم من الأوزبك، وهم طائفة قوية ولهم امتداد فى أوزبكستان وإيران، ومن هنا ناصرهم الشيعة بحزبهم، وهو «حزب الوحدة»، وهو مشارك فى الحكومة المؤقتة التى يرأسها (برهان الدين ربانى)، وهو أستاذ جامعى تعلم فى الأزهر بمصر، وهو من طائفة الطاجيك السنة، وهو رجل معتدل متدين هادىء الطباع، ولكن اضطرته الظروف الآن ليقود حرباً مكروهة ضد جانب من الشعب الأفغانى الشيعة والشيوعيين، ومن العجب أن يقف ضده ومع الشيوعيين رئيس الوزراء المؤقت (قلب الدين حكمت يار)، وهو من طائفة الباشتون، وهم يشكلون أغلبية الشعب الأفغانى، ويعتمدون على مساعدة باكستان، لأن للباشتون امتداد فى باكستان(١).

وهكذا لم تخدم هذه الحرب الأهلية الأفغانية قضية طاجيكستان، وإنما أخرتها.

(١) جريدة المسلمون، عدد ٤٦٦، السنة التاسعة، فى ٧ يناير ١٩٩٤.

الفصل الخامس

جمهورية أوزبكستان



جمهورية أوزبكستان

هى أكثر الجمهوريات كثافة فى السكان، حيث وصل تعداد سكانها طبقاً لتعداد ١٩٩١ إلى ما يربو على عشرين مليون نسمة، ويقدرها البعض الآن بحوالى ٢٢ مليون نسمة(١)، وهى تقع جنوب كازاخستان، وغرب طاجيكستان وقيرغيزستان، وفى شمال شرق تركمانستان، ولها حدود جنوبية مع أفغانستان.

ويرجع اسمها إلى أصل مغولى، حيث حكمها فى العصور المغولية حاكم مغولى من أسرة جنكيز خان اسمه (اوزبك) Uzbek فى الفترة من ١٣١٣- ١٣٤٠م، وبه تسمت القبائل التى كانت تسكن هذه المناطق، ومع ذلك فإن سكانها خليط من الترك والمغول، وأراضيها من أخصب الأراضى، حيث تحتل هذه البلاد الأرض السهلة بين نهرى سيحون (سرداريا) وجيحون (أمودريا)، ومن ثم فإنه يوجد بها كثير من المجارى المائية المتفرعة منهما، مما جعل الأراضى بها منتجة لكثير من المزروعات وخاصة القطن والحبوب والفواكه والخضروات.

وتقع فى هذه الجمهورية أهم المدن التاريخية فى منطقة تركستان الغربية، وهى (طشقند) و(بخارى) و(سمرقند)، ويتحدث السكان لغة من فروع اللغة التركية، وتسمى اللغة الأوزبكية، وكانت تكتب بالحروف العربية قبل الاحتلال الروسى، ثم فرض الروس الحرف الروسى، وطردوا منها كثير من الكلمات العربية(٢).

---

(١) خديجة قاسم، أهرام ١٩٩٢/١١/٣، من مقال عن أوزبكستان فى مفترق الطرق.

(٢) المرجع السابق.

والعاصمة (طشقند)، ومعناها فى اللغة الأوزبكية (البرج الحجرى)، ويسكنها ٢ مليون نسمة، وهى بذلك أكبر مدن التركستان إزدحاماً بالسكان، وهى مدينة عريقة تضرب فى أعماق التاريخ منذ الفى عام، مثل روما وبابل، وتقع طشقند فى قلب جمهوريات آسيا الوسطى، فى المنتصف من طريق الحرير القديم، الذى يصل بين الشرق الآسيوى والغرب الأوربى فى العصور القديمة والوسطى، والذى كان يبدأ من أقصى الشرق فى الصين، ماراً بتركستان الشرقية والغربية وأوزبكستان والعراق وإيران والشام، ويمتد عبر البحر المتوسط حتى اليونان وشمال إيطاليا.

وتحاول اليونسكو الآن إحياء هذا الطريق القديم، الذى يمر بحوالى ٣٢ دولة آسيوية، وقد استمر هذا الشريان الحيوى تجارياً وثقافياً فى التقريب بين الشعوب فى الشرق والغرب قرابة ألف عام، ولا تقتصر أهمية طشقند على ذلك التاريخ الموغل فى القدم، بل تزداد الأهمية لأن تاريخ هذه المنطقة فى وسط آسيا، التى كان العرب يسمونها ما وراء النهر، شهد أعلاماً من مفكرى الإسلام وعلمائه الأفذاذ، منهم الإمام البخارى المحدث الكبير، والترمذى جامع الأحاديث، وابن سينا الطبيب والفيلسوف والمسمى بالشيخ الرئيس(١)، والفارابى المعلم الثانى بعد أرسطو، والزمخشرى صاحب الكشاف، والخوارزمى صاحب مفاتيح العلوم، وأبوالريحانى البيرونى الذى ألف أول كتاب بالعربية عن الهند، وكان مثالا للعالم المسلم فى أرقى مراتبه.

---

(١) المرجع السابق.

متى بدأت السيطرة الروسية

بدأت السيطرة الروسية على مدن أوزبكستان فى القرن ١٩، فاحتلوا طشقند فى سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م)، وسمرقند سنة ١٢٨٣هـ (١٨٦٨م)، وفرضت روسيا حمايتها على حامية بخارى سنة ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م)، وفى سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) بسطت حمايتها على (خيوة) أى خوارزم، واحتلت خوقند (فرغانة) سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م)(١).

وارتكبت روسيا القيصرية أفظع الجرائم فى حق هذه الشعوب والمدن المسلمة، بالإبادة الجماعية، وسياسة التهجير وتغيير الأنثربولوجى للسكان، بإسكان الروس فى أخصب الأماكن، وتهجير أهلها إلى سيبيريا وغيرها من مناطق روسيا.

وعند قيام الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧م (١٣٣٦هـ)، قامت ثورة فى كل مكان من بلاد التركستان الغربية، بقيادة علماء الدين والمثقفين ورجال الطرق الصوفية، إلا أن الروس، سواء المهجرين إلى هذه البلاد أم القوات الشيوعية، ضربوا هذه الثورات بيد من حديد، وهدموا كثيراً من المدن، ومنها مدينة خوقند، وكانت مركز رئيسياً للثورات والمقاومة، وأبادوا سكانها عن بكرة أبيهم، وقاموا بأفظع الجرائم والمنكرات، واغتصبوا الفتيات المسلمات.

وأسس الاتحاد السوفيتى فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٤م (١٣٤٣هـ) جمهورية أوزبكستان، وكانت أراضيها موزعة قبل ذلك بين خانية بخارى وخانية خيوة وحكومة التركستان العامة، وكانت تضم أراضى جمهورية طاجيكستان، ولكن ستالين قرر فى سنة

(١) محمد على البار، المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، جـ١، ص٣٥٢- ٣٥٤.

١٩٢٩ فصل طاجيكستان عن أوزبكستان، كما سبق أن أشرنا(١).

ويشكل المسلمون الأغلبية الساحقة من السكان بنسبة ٨٧٪، بينما يشكل غير المسلمين من الروس والأوكرانيين وغيرهم ١٣٪، وذلك فى تعداد سنة ١٩٧٩، ولكن بدأ هؤلاء الدخلاء يعودون إلى بلادهم بعد سقوط الاتحاد السوفيتى.

وتعد أوزبكستان هى أكثر بلاد تركستان محافظة على قواعد الإسلام وعاداته وتعاليمه، مثل الختان وطريقة الزواج ودفن الموتى(٢)، على الرغم من الحرب الشرسة التى كانت توجه إليها فى العهدين القيصرى والشيوعى، والآن بعد الاستقلال منذ عامين، أعلن رئيسها (إسلام كريموف) علمانية الدولة فى دستورها الجديد، وقبلت الدولة فى الأمم المتحدة عضواً(٣).

والذين يزورون أوزبكستان الآن (١٩٩٤) يدركون مدى حنين الشعب الأوزبكى لماضيه الإسلامى العريق، ورغبته فى إعادة وإحياء أسماء زعمائه وقادته وعلمائه فى تاريخه الإسلامى السابق على الحكم الشيوعى، وسقط بانهيار جورباتشوف ومعه الاتحاد السوفيتى.

وبالإضافة إلى الأسماء الإسلامية اللامعة فى مجال العلوم فى تاريخ هذه البلاد، هناك أسماء مغولية أبدعت فى مجال الفتوح يعتز بها هذا الشعب، أمثال جنكيز خان وتيمور لنك وأوزبك، وقد

(١) المرجع السابق، جـ١، ص٢٥٦.

(٢) المرجع السابق، جـ١، ص٢٥٨.

(٣) خديجة قاسم، أهرام ١٩٩٣/١١/٢.

اختفت تماثيل لينين من ميادين أوزبكستان، ووضع الشعب مكانها تماثيل تيمور لنك الذى حكم منذ سنة ١٣٦٩م، واستطاع خلال عشر سنوات فقط من فتوحاته أن يصل إلى موسكو والقوقاز وفارس والفرات، واتولى على بغداد، ووصل إلى دلهى والشام والأناضول والصين، ولكن الموت داهمه ودفن فى سمرقند أقدم مدن أوزبكستان، والتى تبعد عن طشقند نحو ٣٥٠ كيلومتر، ومن هنا يأتى الحنين إلى هذا القائد الفاتح، والذى استحق فى نظر الشعب الأوزبكى أن يحتل مكان لينين فى ميادين أوزبكستان.

ونظراً لأن أوزبكستان تتوسط جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، فهى كالقلب لهذه البلاد، فسيكون لها دور كبير فى مستقبل هذه الشعوب التى استقلت حديثاً، لأهميتها الجغرافية والتاريخية.

إلى أين تتجه أوزبكستان؟

والسؤال الذى يتردد الآن، إلى أين تتجه أوزبكستان بعد الاستقلال؟ وهل يتجه نظامها السياسى الجديد إلى النموذج التركى العلمانى الديمقراطى، القائم على تعدد الأحزاب، أم إلى النموذج الأندونيسى الذى يأخذ بنظام الحزب الواحد، وعلى كل حال فالرئيس (إسلام كريموف) يهتم بالإصلاح الاقتصادى فى المقام الأول، وتقديمه على التغيير السياسى، حتى يتجنب الأخطاء التى وقع فيها رئيس روسيا يلتسين، الذى اختار الانتقال السريع إلى السوق الحرة، مما أوقع البلاد فى مأزق اقتصادى بسبب التضخم وارتفاع الأسعار، وانتقل بسرعة إلى تعدد الأحزاب، مما عرض روسيا لكثير من الاضطرابات.

وانضمت أوزبكستان إلى رابطة الكومنولث الروسى، بعد أن اطمأنت إلى أن الكومنولث رابطة لدول مستقلة ذات سيادة، ونص فى تشكيل الكومنولث على المساواة بين الأعضاء (١).

وعلى الرغم من عدم رغبة (إسلام كريموف) فى تكوين معارضة حزبية، إلا أن هذه المعارضة تكونت بسرعة، وأقواها حزب (بيرليك) ومعناها بالأوزبكية (الوحدة)، و(جزب النهضة الإسلامية) وحزب (إيريك) ومعناها (الحرية)، وزعيمه كحمد صالح الذى رشح نفسه فى انتخابات رئيس الجمهورية، ولم يحصل إلا على ١٢٪ من الأصوات، ونظراً لأنه يتبع سياسة حذرة فى تأييده للاتجاه الإسلامى، فقد سمح له إسلام كريموف بدخول معركة الرئاسة، ولم يسمح لغيره من زعماء الأحزاب بذلك.

وحزب بيرليك (الوحدة) هو أقوى الأحزاب، ولهذا حاربته حكومة كريموف وأبعدت رئيسه عبدالرحيم فولادين، ويقال إنه فى تركيا أو أمريكا الآن (١٩٩٤)، والسبب فى ذلك خشية الحكومة من اتصال المعارضة بالمعارضين الآخرين فى بقية الجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا، عبر حدود يصعب التحكم فيها، لأن حدود الدول المستقلة الجديدة غير محددة، كما أن أغلب هذه الدول متعددة القوميات، فخلال فترة الحكم الروسى، والتى استمرت ٧٠ عاماً، انتقل عدد كبير من الروس إلى تلك الجمهوريات، لتطبيق سياسة خلخلة القوميات وإذابتها، تلك السياسة التى نادى بها ستالين للقضاء على هذه القوميات.

وتدل الإحصائيات الرسمية على أن نسبة الروس المقيمين فى جمهورية كازاخستان مثلا ٣٧,٥٪ من مجموع السكان، وفى

(١) خديجة قاسم، أهرام ١٩٩٢/١١/٢.

قيرغيزستان بلغت نسبة الروس ٢١,٥٪ من مجموع السكان، وطاجيكستان ١٠,٦٪ وتركمانستان ٩,٥٪، وأوزبكستان ٨٪، والسبب فى تدنى نسبتهم فى أوزبكستان وطاجيكستان يرجع إلى الهجرة المعاكسة إلى روسيا، التى زادت فى الآونة الأخيرة، وهى ظاهرة بدأت منذ أيام خروشوف عام ١٩٥٩، فقد كانت نسبتهم فى هذه السنة ١٤٪ من مجموع السكان فى أوزبكستان، وانخفضوا فى سنة ١٩٨٩ إلى ٨٪.

الوضع الاثنوغرافى

السلالات البشرية وعوائدها وأخلاقها

والشعب الأوزبكى مثله مثل الطاجيك، لا يهاجر خارج الأراضى الإسلامية إلا نادراً، ويميل هذا الشعب إلى سكنى الريف، حيث يشكل الأوزبكيون فى جمهوريتهم القومية العنصر الريفى الأساسى، ويعتبر الأوزبكيون الأكثر عدداً بين كل الأمم الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى، وتتألف الأمة الأوزبكية من عدة عناصر عرقية، جمع بينها الإسلام فى قومية واحدة، مع أن لكل منها خصوصيتها الاجتماعية واللغوية، وهى كما يلى:

(١) سكان المدن وبعض العناصر الحضرية فى وادى فرغانة وخوارزم ووادى أنفرن، وهذه الطبقة هى الأكثر قدماً، وتتألف من سكان آسيا الوسطى الأصليين الإيرانيين الذين اعتمدوا على مر العصور اللغة التركية من دون أن ينسوا تماماً اللغة الفارسية، فيتميز سكان المدن قديماً وحديثاً فى أوزبكستان بأنهم يتقنون اللغتين الفارسية والتركية، وكانت هذه الفئة تعرف بأنهم «السرط» أو «الطاجيك»، ذلك لأن أعضاءها قريبون جداً من

الطاجيك من الناحية العرقية (الأثنية).

(٢) المنحدرون من القبائل التركية أو المغولية (قبل القبائل الشيبانية)، وهى قبائل غزت آسيا الوسطى واستقرت فيها بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر، وكانوا قبل عام ١٩٢٤ يدعون «أتراكا» أو «تشاغاتاى»، وهذه التسمية الأخيرة تنطبق بشكل خاص على المنحدرين من القبائل المغولية التى أتت إلى آسيا الوسطى أيام (الأيل خان) أى (سيد القبيلة) تشاغاتاى (ابن جنكيز خان).

(٣) المنحدرون من القبائل الشيبانية، التى شكلت آخر موجة غزت آسيا الوسطى فى بداية القرن السادس عشر أيام محمد شيبانى خان، وهؤلاء كان يطلق عليهم قبل ١٩١٧ الأوزبكيين الصرف، إذ كانوا من المحافظين على بنيتهم القبلية، ومن الناحية العرقية (الأثنية) فإنهم يحملون سمات العرق المغولى البارزة.

وأكثرية الأوزبكيين مسلمين سنيين على المذهب الحنفى، وتوجد جماعات صغيرة من الشيعة فى سمرقند وبخارى، والعلاقات بين الطرفين ودية، وأحياناً تستعمل كل منهما المسجد نفسه لإقامة شعائرها الدينية، وهو نوع من التضامن فى مواجهة الإلحاد الروسى.

وتحتل أوزبكستان مركزاً خاصاً على الصعيد الإسلامى، فعلى أراضيها تتواجد القيادات الروحية الإسلامية، والمدرستان الدينيتان الوحيدتان فى كل الاتحاد السوفيتى، وهما:

(١) ميرى عرب فى بخارى
(٢) الإمام البخارى فى طشقند

وتطبع فى طشقند الجريدة الدينية الإسلامية الوحيدة فى

الاتحاد السوفيتى، واسمها «مسلمو الاتحاد السوفيتى»، والمساجد النشيطة أكثر عدداً فى أوزبكستان منها فى باقى الجمهوريات، وأخيراً تعقد فى طشقند وسمرقند وبخارى عادة المؤتمرات الإسلامية الدولية.

ومع أن روسيا الشيوعية كانت تحدد المساجد الرسمية، إلا أنه كان يوجد فى كل حى بيتاً سرياً للصلاة، ويتمثل الإسلام غير الرسمى فى أوزبكستان بالطرق الصوفية الآتية:

- النقشبندية، ومركزها بخارى وأيضاً فى كل البلاد.
- الكبراوية، ومركزها خوارزم وأنصارها فى منطقة خوارزم وكاراكلباك وطاشاأوز.
- الياساوية، ومركزها فى مدينة تركستان جنوبى كازاخستان وأنصارها شمال أوزبكستان وفى وادى فرغانة.
- القادرية، وأنصارها فى كل أوزبكستان.
- الكالندارية، وهى طريقة جوالة لها أتباع فى كل أوزبكستان(١).

وهذه الطرق كانت تمثل فى الفترة الشيوعية الغابرة المعارضة الصامتة للإلحاد السوفيتى والينابيع التى تقوم بتغذية الشعب المسلم بتعاليم الدين سراً.

وفى المقابل تنشط الحملة المناهضة للدين فى أوزبكستان، فبين عام ١٩٤٨ و١٩٧٥ نشر دعاة الإلحاد ١٧٧ كتاباً وكراساً مناهضاً للدين الإسلامى باللغة الأوزبكية، الأمر الذى يضع أوزبكستان فى المقدمة بين القوميات الإسلامية(٢).

(١) الأسبوع العربى، عدد ١٩٨٢/٤/١٢.

(٢) الأسبوع العربى، عدد ١٩٨٢/٤/١٢.

ويؤكد الرئيس كريموف على المساواة بين المواطنين فى الجمهورية، بغض النظر عن أصولهم سواء كانت أوزبكية او روسية، ولكن إجادة اللغة الأوزبكية إجادة تامة أصبحت شرطاً لازماً للترقية إلى المناصب العليا فى الإدارة، وفى عام ١٩٧٩ أعلن ٩٨,٥٪ من الأوزبكيين أن لغتهم الأم الأولى هى اللغة الأوزبكية.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى وإعلان استقلال أوزبكستان منذ عامين، أصبحت سياسة (طشقند) الجديدة محل اهتمام شديد ونشاط دبلوماسى مكثف من تركيا وإيران والصين، وإسرائيل أيضاً لأن أوزبكستان بها جالية يهودية نشطة (١٧ ألف نسمة)، وإسرائيل تحاول التغلغل فى هذه البلاد، وحرص إسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل على زيارتها، ولإسرائيل مركز ثقافى وسفارة فى طشقند، وقدمت إسرائيل لطلاب (جامعة طشقند) ومعاهدها عدداً كبيراً من المنح الدراسية، وللعمال الزراعيين والمهندسين وبعض موظفى الدولة (١).

أما تركيا فلها علاقات قديمة وقوية بأوزبكستان، نظراً لقرابة الجنس واللغة، ومن ناحية أخرى فإن أوزبكستان ليس لها منافذ على البحر، ولا تستطيع أن تصل إليه إلا عن طريق (تركيا وإيران أو روسيا)، وهناك روابط الدين والمذهب السنى واللغة والنظام العلمانى فى البلدين، وهو ما يطمئن إليه الغرب، وكل هذا يقوى فرص العلاقات بين أوزبكستان وتركيا، وفتحت تركيا عدة مدارس فى بخارى وسمرقند وطشقند العاصمة، ومنحت الطلاب الأوزبكيين عدة منح للدراسة فى تركيا.

(١) المرجع السابق.

ومن ناحية أخرى، قام (إسلام كريموف) بعدة جولات فى دول العالم العربى والإسلامى وعلى رأسها مصر، لإقامة جسور من العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية، وقد قام التبادل التجارى مع مصر منذ عام تقريباً (١٩٩٣)، وتم أثناء زيارة كريموف لمصر عدة اتفاقيات للتعاون، وقدمت مصر ١٥٠ منحة للطلاب الأوزبكيين للدراسة فى جامعة الأزهر وغيرها من الجامعات المصرية.

ولاشك أن هذا الاتجاه للعالم العربى نحو الشرق الآسيوى، فيه خير كثير، فإن العالم الإسلامى يوم أن اتجه شرقاً منذ عهد الفتوح فى القرن الأول الهجرى، كان فى ذلك تقدماً كبيراً، وامتزاج الحضارات التى حققت الحضارة الإسلامية، لأن الغرب الآن يضع الإسلام والمسلمين فى خانة أعدائه، ولا أمل فى تغيير الروح الصليبية لديه، ولاشك أن هذه الدول الإسلامية فى أواسط آسيا لديها خبرات طيبة وعلى الأخص فى المجال العسكرى.

ولاشك أن آسيا هى قارة المستقبل، بعدما صعدت فيها كثير من الدول كاليابان والصين وتايوان وكوريا الجنوبية والهند وأندونسيا، وهذه الدول ليس لديها عقد قديمة ضد العالم العربى والإسلامى، مثل تلك العقد التى يحتفظ بها الغرب الأوربى والأمريكى، وتؤثر فى علاقاته، لدرجة أنه يفرض علينا بين الحين والآخر حصاره فى مجال التسليح وفى المجال الاقتصادى، ويفرض علينا حروباً اقتصادية وثقافية، ويتبنى إسرائيل ويمدها بالعون، ويحاول الحفاظ على تفوقها من أجل فرض الهيمنة على الموارد العربية وأهمها البترول العربى.

وفى أثناء زيارة الرئيس التركى سليمان ديميريل للقاهرة فى

٧/٥/١٩٩٤، نشرت جريدة الأهرام القاهرية تصريحات للرئيس التركى، تعبر عن أمله فى أن تتعاون مصر مع تركيا فى مجال الجمهوريات الإسلامية الآسيوية، التى استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وقال «إننا ندفع الأجهزة التنفيذية ورجال الأعمال فى هذا الاتجاه لاستثمار طاقات وإمكانات البلدين، دعنى أشير مرة أخرى إلى الجمهوريات التى استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، فأقول إنه توجد بها إمكانات ضخمة للعمل المشترك بين مصر وتركيا، سواء فى المجال الاقتصادى أو الاجتماعى، ويمكن القول بأن الفرصة الآن متاحة ومهيأة أمام بلدينا للتعاون والعمل فى هذه الجمهوريات» (١).

ولقد تمت بالفعل بعض الخطوات فى سبيل تدعيم التعاون بين مصر والدول الإسلامية فى وسط آسيا، فقد اتفقت مصر وأذربيجان على إقامة بنك مشترك، ووقع صديق أبوشنيف وزير اقتصاد كازاخستان اتفاقية تجارية مع جمعية مستثمرى العاشر من رمضان فى مصر فى فبراير عام ١٩٩٢، كما اتخذت بعض الخطوات فى سبيل تدعيم التعاون مع بعض الجمهوريات الأخرى، منها اتجاه عدد من رجال الأعمال المصريين إلى إقامة عدد من المشروعات المشتركة بين مصر والجمهوريات الإسلامية، وعلى المستوى الرسمى توجه وفد اقتصادى برئاسة الدكتور الجنزورى لزيارة بعض الجمهوريات المستقلة، وذلك فى ١٩ من يناير عام ١٩٩٢ (٢).

(١) الأهرام، فى ٧/٥/١٩٩٤، ص٥.

(٢) د.نيفين عبدالخالق، مرجع سبق ذكره.

الإصلاح الاقتصادى

اتبعت جمهورية أوزبكستان سياسة حذرة، بشأن الإصلاح الاقتصادى، ولم تلجأ إلى سياسة «العلاج بالصدمة»، بسبب عجز الميزان التجارى لجمهورية أوزبكستان لعدة أعوام، وانخفاض مستوى الدخول للسكان، خاصة فى العائلات الكبيرة المنتشرة فى الجمهورية، مما قد يسبب مخاطر من عدم الاستقرار الاجتماعى، ويتلخص برنامج الإصلاح الاقتصادى فى عدة إجراءات، هى:

أولا فى عام ١٩٨٩ تم توزيع مجانى للأراضى المروية على أسر المزارعين، وفى عام ١٩٩١ بيعت مزارع الدولة المحققة للخسائر إلى العاملين، أو تحولت إلى تعاونيات بين المزارعين.

ثانياً صدر قانون فى ١٩ نوفمبر عام ١٩٩١ بشأن خصخصة المشروعات، يوضح القواعد القانونية التى يمكن أن تتغير إليها مشروعات الدولة، ونوعية هذه المشروعات وحجمها، وهى الصناعات الغذائية والاستهلاكية، ومشروعات الخدمات وزراعة القطن والطاقة والمعادن والسكك الحديدية والنقل الجوى والدوائيات، ولم تسمح الدولة بخصخصة الصناعات التكنولوجية الهامة.

ثالثاً تشجيع المشروعات المشتركة مع الأجانب، بحيث تسمح للأجانب بمزاولة النشاط فى المشروعات المشتركة، وليس لهم الحق فى ملكية الأرض المقامة عليها المشروع.

رابعاً إصدار قانون البنوك والنشاط البنكى فى فبراير عام ١٩٩١، الذى أعطى لبنك الدولة فى أوزبكستان حق الإشراف على البنوك التجارية، وعددها ١٩ بنكاً، كما سمح القانون بإنشاء العديد من البنوك التجارية الأخرى(١).

والواقع أن أمام جمهورية أوزبكستان فرص طيبة فى مجال التنمية فى جو السوق الحرة والمشاركة الأجنبية، لأن هذه الدولة لديها وفرة فى المياه من النهرين العظيمين سيحون وجيحون، ولهذا تبلغ مساحة الأراضى الزراعية فيها أكثر من ٧,٥ مليون فدان، وتشغل زراعة القطن نصف هذه المساحة، والنصف الآخر تشغله زراعة الحبوب والخضراوات والفاكهة، وتنتج أوزبكستان ٦٧٪ من محصول الاتحاد السوفيتى السابق من القطن، وتعتبر ثالث منتج للقطن فى العالم، وتنتج أيضاً ٥٪ من محصول الاتحاد السوفيتى السابق من الأرز.

أما عن الثروة الحيوانية، فإن جمهورية أوزبكستان تشتهر بتربية نوع من الأغنام الذى يمتاز بأصوافه الجيدة، والثروة الحيوانية بها تتضمن من الأغنام ٨,٧ مليون رأس، ومن الماشية ٤,١ مليون رأس،ومن الخنازير ٧٢٩٠٠ ألف رأس، وتهتم أوزبكستان بتربية دودة القز منذ القرن الرابع الميلادى.

(١) سهير حسن عبدالعال، الأوضاع الاقتصادية لجمهوريات قيرغيزستان وطاجيكستان وتركمانستان وأوزبكستان الإسلامية، من أبحاث مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز.

وبناء على ذلك، فإن لدى أوزبكستان صناعات جيدة فى مجال الورق ٢٦ ألف طن، وصناعة الورق المقوى ٥٦ ألف طن، وصناعة البلاستك ١٥٨ ألف طن، وصناعة حامض الكبريتيك ٢,٦ مليون طن، وصناعة الأسمدة ٢ مليون طن(٢).

فإذا أضفنا إلى ما سبق، أن أوزبكستان تضم أكبر تعداد من السكان، حيث يزيد على عشرين مليون نسمة بقليل، فإننا نرى المستقبل فى مجال التنمية كبيراً جداً، إذا مشت بخطى وئيدة متأنية، دون قفزات غير محسوبة فى مجال الاقتصاد الحر.

وتتمتع أوزبكستان فى مجال الطاقة، بموارد ضخمة من بترول وفحم وغاز طبيعى وكهرباء، ففى عام ١٩٨٩ بلغ إنتاجها من الغاز الطبيعى ٣٩,٩٠٠ مليون متر مربع، ومن الكهرباء ٥٥,٩٠٠ كيلووات/ ساعة، ومن البترول ١,٣ مليون طن، ومن الفحم ٤,٢ مليون طن، ومن ثم حيث الموارد والطاقة، قامت بها صناعات عديدة، مثل الصناعات الثقيلة كالصلب والصناعات المعدنية وأجهزة استخراج البترول، والصناعات الخفيفة مثل النسيج والورق والأحذية والملابس وغيرها(٢).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) د.زينب الأشوح، مرجع سبق ذكره.

الفصل السادس

جمهورية أذربيجان

جمهورية أذربيجان

يوجد بهذا الاسم منطقتان، إحداهما إيرانية فى شمال إيران، والأخرى كانت جمهورية سوفيتية واستقلت، وتقع فى شمال المنطقة الإيرانية، والمنطقة الأخيرة هى المقصودة فى عرضنا هذا، والمنطقتان تقعان فى جنوب غرب بحر قزوين، وتحدوهما أرمينيا من الغرب، وداغستان وجورجيا من الشمال، وإيران من الجنوب، ويفصل المنطقتين خط يمر بنهر الرس(١).

وأهل أذربيجان الشمالية والجنوبية فى الأصل من الفرس، وقد فتح هذه البلاد المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب، فقد وجه إليهم والى الكوفة (المغيرة بن شعبة)، الصحابى حذيفة بن اليمان فى سنة ١٨هـ، ثم أرسل من بعده عتبة بن فرقد السلمى(٢)، فلما كان عهد الخليفة الرابع على بن أبى طالب، كان قد أسلم أكثر أهلها وقرأوا القرآن، وسكنها العرب واختلطوا بأهلها.

وتداولتها أيادى الأمويين والعباسيين والسلاجقة والمغول والصفويين الشيعة، الذين كونوا جماعتهم الصوفية بها فى القرن التاسع الهجرى، إلى أن غيرت عاصمتهم فى أردبيل ثم فى تبريز، ونشأت بها نهضة إيران الحديثة على أيدى الصفويين.

وإذا كان الجزء الشمالى، الواقع شمال نهر الرس، قد غزته الهجرات التركية، فغدا تركياً وغلب عليه العنصر التركى واللسان التركى، وعلى الأخص أيام هجرات الأتراك السلاجقة، فإن الجزء الجنوبى التابع لإيران ظل فارسياً، لغة وثقافة وعقيدة شيعية.

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة أذربيجان.

(٢) المرجع السابق.

وبدأت روسيا تتطلع إلى منطقة أذربيجان، بشقيها فى القرن الثامن عشر، ولكن الدولة العثمانية ساعدت أهلها فى صد الروس عن المنطقة، ولكن النزاع العثمانى السنى والصفوى الشيعى، أجهدا المنطقة على مدى ثلاثة قرون ١٦ و١٧ و١٨، وتمزقت إلى عدة خانيات (ممالك) ضعيفة، فسهل على الروس ابتلاعها، وعلى الأخص الجزء الشمالى، فى الربع الأول من القرن التاسع عشر، وأقام الروس فيها نظاماً إقطاعياً استعبادياً، وتولى الروس حكم هذه الأراضى الإسلامية، التى اعتبروها غنيمة لهم(١)، وهذا هو الجزء الذى تشكلت منه جمهورية أذربيجان السوفيتية فيما بعد، وعاصمتها (باكو)، والذى مكنهم من ذلك داء الفرقة الذى اسشرى فى العالم الإسلامى، فمكن الأعداء من المسلمين فى كل مكان، وفى هذه المناطق بصفة خاصة، التى اكتوت بنار الحروب المتواالية بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية، فأرهقت المنطقة وتحولت إلى خانيات (ممالك) صغيرة متنافسة، فسهل على الدب الروسى قضمها وابتلاعها، هذا على الرغم من أن هذه البلاد جبلية، يسهل الدفاع عنها، فالمنطقة تمأها قمم الجبال الشاهقة، التى ترتفع فى أنحاء مختلفة من الإقليم، وسلاسل الجبال التى تصل هذه القمم بعضها ببعض تتخللها خوانق وديانية عميقة، وفى الشرق والشمال سهول فسيحة.

ثم أتى إليها بعد ضعف الدولتان العثمانية والصفوية، النفوذ البريطانى، فتآمر مع الروس كعادة الغرب، فى اقتسام أراضى المسلمين، فزحف الروس على تبريز بمعرفة الانجليز فى عام ١٩٠٨، بحجة حماية الجاليات الأجنبية، وهى الحجة التى تكررت

(١) محمد على البار، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص١٨١.

كثيراً فى بلدان العالم الإسلامى، وأعقبها الاستعمار، ولكن الروس اختلفوا مع الانجليز، وعند قيام الثورة الشيوعية فى روسيا سنة ١٩١٧م (١٣٣٦هـ)، اضطرت روسيا إلى الانسحاب من أذربيجان الفارسية، لانشغالها بالثورة داخلياً.

واستعادت إيران سيطرتها على أذربيجان الجنوبية، أيام رضا بهلوى، الذى تفاهم مع الانجليز منذ عام ١٩٢٥، عندما وصل إلى السلطة فى إيران، ولكن إبان الحرب العالمية الثانية ظهرت ميوله تجاه الألمان، فطردوه من السلطة، وعينوا ابنه محمد رضا شاهاً على إيران(١) سنة ١٩٤١.

واحتلت روسيا أذربيجان الفارسية، بايعاز من الحلفاء سنة ١٩٤١م (١٣٦٠هـ)، ولكن روسيا لم تستطع أن تدوم إقامتها بها، واضطرت أمام ضغط الحلفاء إلى الانسحاب منها، وسرعان ما عادت إلى إيران، وسيطرت روسيا تماماً على الجزء الشمالى، وقمعت ثورات السكان، وصادرت أراضيهم وأملاكهم منذ الحكم القيصرى قبل الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧، وعندما قامت هذه الثورة وعد لينين المسلمين بحكومة مستقلة كما سبق أن أشرنا فى المقدمة، وبالحرية الدينية التامة، إن هم ساعدوا الثورة، وقام المسلمون بمحاربة قوات الحلفاء وقوات روسيا البيضاء، وأعلنوا استقلال بلادهم فى مناطق التركستان والقوقاز.

---

(١) مات رضا بهلوى فى منفاه فى جنوب أفريقيا سنة ١٩٤٤ ونقل جثمانه إلى مصر ودفن فى مسجد الرفاعى بالقاهرة، وشاءت إرادة الله أن يموت ابنه محمد رضا منفياً فى مصر بعد الثورة الإسلامية فى إيران سنة ١٩٧٩ ودفن مع والده فى ذات المقبرة بمسجد الرفاعى بالقاهرة.

وكان ذلك خديعة من لينين، ريثما يتغلب على قوات روسيا البيضاء، التى ناوأت الثورة، وبعد أن تم له ذلك اغتال البلاد الإسلامية فى وسط آسيا والقوقاز، ومنها أذربيجان التى تم اجتياحها فى سنة ١٩٢٠، وشكل منها جمهورية أذربيجان السوفيتية، ولكن ثورات السكان لم تهدأ فى هذه البلاد لدرجة أن قامت حوالى ٥٢ ثورة(١).

وفى ١٢ مارس سنة ١٩٢٢، اتحدت جمهورية أذربيجان السوفيتية مع جورجيا وأرمينيا، لتؤلف جمهورية عبر القوقاز السوفيتية الفيدرالية، التى اتحدت مع جمهورية روسيا وجمهورية أوكرانيا وروسيا البيضاء، لتؤلف جميعها اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، وفى ٥ من ديسمبر عام ١٩٣٦، ألغيت جمهورية عبر القوقاز، ودخلت الجمهوريات الثلاث التى كانت تشكلها فى الاتحاد السوفيتى، كل منها بصفة دولة مستقلة(٢).

وتعتبر أذربيجان ثالث أكبر دولة منتجة للبترول على مستوى دول الكومنولث الروسى، وثانى أكبر دولة منتجة على مستوى الجمهوريات الإسلامية السوفيتية السابقة، فقد سجل إنتاجها من البترول عام ١٩٨٨ ١٣,٧ مليون طن، وفى سنة ١٩٩٢ انخفض الإنتاج إلى ١١,٤ مليون طن، كما أن لها ثروة لا بأس بها من الغاز الطبيعى، فتحتل المركز الثالث فى إنتاج الغاز الطبيعى بين الجمهوريات الإسلامية، فقد سجل إنتاجها عام ١٩٨٨ منه ١١,٨ بليون متر مكعب، وبنسبة ٨٪ من إجمالى إنتاج الجمهوريات من

(١) محمد على البار، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص١٩٠.

(٢) المسلمون المنسيون، مرجع سبق ذكره، مجلة الأسبوع العربى، عدد ١٩٨٢/٤/٥.

الغاز، مع ملاحظة نقص إنتاجها فى العامين ١٩٩٠ و١٩٩١ بنسبة ١٦٪ و٢٧٪ على التوالى بالنسبة للعام الأول، ثم ارتفع إنتاجها إلى ٩ بلايين متر مكعب عام ١٩٩٢ (١).

وتنتج أذربيجان بالإضافة إلى البترول والغاز، الحديد والكهرباء من مساقط المياه، كما تنتج الألمونيوم والنحاس.

وتبلغ مساحة أذربيجان ٨٧,٠٠٠ كيلومتر مربع، وعدد سكانها ٧,٢٢ مليون نسمة، طبقاً لتتعداد عام ١٩٩١، والغالبية العظمى من السكان من أصل تركى، وهم من ناحية المذهب، شيعة جعفرية إمامية، وهناك عدد قليل من العلويين والبهائيين، ويتحدثون باللغة التركية الأذرية، التى تختلف بعض الشىء عن لغة تركيا، بجانب أنها تكتب بالحروف الروسية، وكانت تكتب قبل الاستعمار الروسى بالحروف العربية.

واللغة الأذرية قريبة من اللغة التركية المحلية فى تركيا، وقريبة من اللغة التركمانية، وقد أخذت هذه اللغة فى الترقى فى القرن ١٤ الميلادى، وازدهرت فى القرن السابع عشر، وبرزت فى نهاية القرن ١٩ وبداية القرن العشرين، وبعد الثورة وحتى سنة ١٩٢٨ شجعت السلطات السوفيتية التأثير اللغوى للأذربيجانيين على سائر الشعوب المسلمة فى القفقاس عامة والداغستان خاصة، وفى سنة ١٩٢٣ أصبحت الأذرية اللغة المدرسية الوحيدة فى الداغستان، مكان اللغة العربية، لكن على إثر الحملة ضد الوحدة التركية فى الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٢٨ (٢)، فقدت اللغة الأذرية احتكارها، وسرعان

(١) مصطفى كسبة، مرجع سبق ذكره، ص٢٦٢- ٢٦٤.

(٢) المسلمون المنسيون، مرجع سبق ذكره، مجلة الأسبوع العربى، عدد ١٩٨٢/٤/٥.

ما منعت فى المدارس، وواضح أن تشجيعها فى البداية كان بهدف طرد اللغة العربية، فكانت خطة مرحلية، وبعد أن تم طرد اللغة العربية، كانت المرحلة التالية هى فرض اللغة الروسية فى التعليم.

ومع ذلك يتعلق الأذريون بلغتهم الأذرية، ويعتبرونها لغتهم الأم، ويتحدث بها حوالى ٩٨٪ من السكان، أما الذين اختاروا الروسية فحوالى ٢٪ فقط من السكان، وتطبع عدد ٥ جرائد بالأذرية خارج أذربيجان فى جورجيا، وعدد ٧ جرائد فى أرمينيا وداغستان، الأمر الذى يشهد على حيوية اللغة الأذرية(١).

وهناك نسبة ٧,٩٪ من سكان أذربيجان من الروس، ٧,٩٪ من الأرمن، ٣,٤٪ من الداغستانيين، ٢,٦٪ عناصر مختلفة، وتعيش هذه الأقليات فى المدن، بينما ينتشر الأذربيجانيون فى السهول والقرى، ويتركز الروس حول (باكو) فى مناطق النفط، ولكن هذه الجماعات غير المسلمة ينكمش عددها عاماً بعد عام، وعلى الأخص بعد الاستقلال عن الاتحاد السوفيتى، فبدأت هجرة عكسية منها إلى مواطنهم الأصلية فى روسيا وغيرها، بسبب العداء للروس والأرمن فى هذه البلاد.

وعلى العكس من ذلك، فإن هجرة الأذربيجانيين خارج دولتهم نادر، صحيح أن آسيا الوسطى تضم بعض جالياتهم الصغيرة المؤلفة من عمال اختصاصيين، إلا أن هذه الجاليات لم تشكل فى عام ١٩٧٩ إلا أقل من ٣٪ من مجموع هذا الشعب فى الاتحاد السوفيتى، وهى آخذة فى التناقص، بسبب عودة أفرادها إلى جمهورية أذربيجان(٢).

(١) المرجع السابق، ذات المكان.

(٢) المرجع السابق، ذات المكان.

وتضم أذربيجان إقليماً مستقلا استقلالا ذاتياً، وهو إقليم ناختيشيفان، مساحته ٥,٥٠٠ كيلومتر مربع، وعدد سكانه ٢٩٥,٠٠٠ نسمة، وتسمى جمهورية، كما تضم أيضاً مقاطعة (ناجورنو - كاراباخ)، ومساحته ٤,٠٠ كيلومتر مربع، وهى ذات حكم ذاتى، وبه أغلبية أرمينية مسيحية، وهذا الإقليم عليه نزاع طويل، أثار حرباً بين أرمينيا وأذربيجان.

الوضع الدينى

من السمات الواضحة لسكان أذربيجان، أن ٧٥٪ من السكان مسلمون على المذهب الشيعى الإمامى، بعكس الجماعات الإسلامية الأخرى فى جمهوريات آسيا الوسطى، فإنهم جميعاً من أهل السنة على المذهب الحنفى مثل تركيا، ومن ثم فإن الغالبية العظمى من الأذربيجانيين يميلون إلى إيران، ويتعاطفون معها، بعكس الأقلية من السنة فى أذربيجان، فإنهم يتعاطفون مع تركيا والعالم التركى، وأهل السنة بنسبة تتراوح من ٢٥- ٣٠٪، وينتشرون فى شمال البلاد، ويختلطون مع الشيعة فى وسط البلاد وغربها، أما الشيعة فينتشرون فى الجنوب على الحدود مع إيران.

ويشرف على المسلمين فى أذربيجان وعبر القوقاز، إدارة إسلامية مركزها باكو، ويرأسها شيخ الإسلام الشيعى، يساعده نائبان، أحدهما سنى والآخر شيعى، وتشرف الإدارة على المسلمين الشيعة فى الاتحاد السوفيتى سابقاً، وكذلك على السنة، وكانت الإدارة تشرف على ١٦ مسجداً مفتوحة للعبادة رسمياً فى سنة ١٩٧٨، وفيها حوالى ٥٠ إلى ٧٠ رجل دين مسجلين للخدمة الدينية، وكانت أذربيجان تضم قبل الثورة ٢٠٠٠ مسجد و٧٨٦ مدرسة قرآنية، وفى

سنة ١٩٢٨ كانت لاتزال تضم ٩٦٩ مسجداً للمسلمين الشيعة، و٤٠٠ مسجداً للمسلمين السنة، والمساجد المفتوحة قبل سقوط الاتحاد السوفيتى كانت مشتركة بين السنة والشيعة، ونظراً لنقص رجال الدين فإن الإمام (الملا) يؤدى الفرائض حسب الفقه الشيعى والسنى، وهذا حدث فريد فى العالم الإسلامى(١)، ويتلقى رجال الدين الشيعة علومهم الدينية فى معاهد بخارى وطشقند.

وهذا العدد الضئيل من المساجد والأئمة، كان لا يلبى حاجة السكان الدينية الأكثر إلحاحاً، ومن ثم فإن المصادر السوفيتية تذكر أنه كان يوجد حوالى المليون من بيوت الصلاة السرية، وثلاثمائة من أماكن الدراسة، وهذه تشكل المراكز الحقيقية للحياة الدينية فى أذربيجان، ويتولى إقامة الشعائر والوعظ فيها رجال غير رسميين من مريدى النقشبندية فى المناطق السنية، وبعض الأشراف فى المناطق الشيعية.

ولذلك فإن المعلومات الرسمية عن الحياة الدينية فى أذربيجان غير دقيقة، ويذكر مؤلفا كتاب المسلمون المنسيون فى الاتحاد السوفيتى «أن الإسلام الشيعى، بالنظر إلى تنظيمه القوى، عانى من الضغوط السوفيتية، أكثر من الإسلام السنى، الذى لا مركزية فى تنظيمه:

- لكون الإسلام الشيعى يقوم على إكبار التضحية والشهادة بشخص الإمام الحسين (رضى الله عنه)، فإنه يتمتع بقوة جذب شعورية ورومنطيقية (روائية)، يفتقدها الإسلام السنى، ثم إن الإسلام الشيعى عميق الجذور فى الحس العام الشعبى فى أذربيجان، ولذا يشكل حاجزاً قوياً للعمل الروحى والسياسى وقت الحاجة،

(١) المرجع السابق، ذات المكان.

وتفيد استطلاعات الرأى السوفيتية أن مستوى العاطفة الدينية أكثر ارتفاعاً فى المناطق الشيعية.

- تقول المصادر الرسمية إن الشعور الدينى أقوى فى المدن لاسيما فى باكو العاصمة مما هو فى الأرياف.
- بقدر ما تظهر الإرادة الروحية الرسمية للمسلمين السنة ولاءات للسلطات السوفيتية، بقدر ذلك تجابهها الطرق الصوفية (المتأثرة بطرق الداغستان)، من خلال موقف تقليدى شديد المحافظة، وغير مهادن فى شعوره تجاه الغرباء.
- من أجل أن يدافع المسلمون السنيون والشيعة على حد سواء عن أنفسهم ضد موجة الإلحاد العاتية فى الاتحاد السوفيتى، توصلوا إلى تسوية بلغت أحياناً حد التعارف الحقيقى، فهم يقيمون شعائرهم الدينية عند الحاجة فى أماكن العبادة ذاتها، وتحت إشراف رجال الدين ذاتهم (كما سبق أن أشرنا).
- تتميز الأعياد الشعبية الكبيرة، وخاصة احتفالات عاشوراء أو استشهاد الإمام الحسين، برونق احتفالى لا مثيل له. فتشترك فيها جماهير المؤمنين، بل ويحضرها غير المؤمنين، إذ يعتبرها الجميع تعبيراً عن تقليد وطنى، مثلما هو دينى.
- يميل المسلمون الشيعة فى أذربيجان أكثر من أخوانهم السنيين إلى مزج الدين بالقومية، ومما يقوى هذا الميل، وجود جماعة أرمينية مسيحية ذات شأن، يعتبرها المسلمون العدو الرئيسى.
- فى أذربيجان الشمالية، حيث يسيطر الإسلام السنى، يبدو أكثر وضوحاً للخلاف التقليدى بين فرعى الإسلام الكبيرين والزيجات

المختلفة بين المسلمين السنة والشيعة هى نادرة نسبياً هناك.

- الدعاية المضادة للدين هائلة، وموجهة بنوع خاص ضد المسلمين الشيعة، فبين عامى ١٩٤٨ و١٩٧٥ طبع فى اللغة الأذرية ٩٦ كتاباً وكراساً معادياً للإسلام(١).

والأذربيجانيون استعادوا وضعهم كأكثرية فى مدينة باكو العاصمة منذ عام ١٩٧٠، وهم منذ عام ١٩٥٩ يصدرون الروس والأرمن خارج بلادهم، وهم يعتبرون الأرمن المسيحيين العدو التقليدى، ومن بعدهم الروس، فهؤلاء هم الغرباء المكروهين.

وأذربيجان فيها حركة أصولية نشطة، تحاول الاقتداء بإيران الحالية فى صراعها ضد الإمبريالية(٢).

وبذلك يظهر لنا أثر الدين فى العقيدة فى حياة الناس ومواقفهم وعواطفهم، ولقد ظهر أثر الدين والعقيدة واضحاً فى الحرب التى نشبت بين أذربيجان وأرمينيا على إقليم (ناجورنو- كاراباخ)، من أجل محاولة الأخيرة ضم هذا الإقليم إليها، حيث وقف الروس مع أرمينيا المسيحية فى حربها ضد أذربيجان المسلمة، ومدوها بالسلاح، إلى أن تمكنت من اجتياح نصف أذربيجان، وهم الأقل عدداً من الأذريين، على الرغم من أن الإقليم المتنازع عليه يقع داخل أذربيجان، وليس على الحدود مع أرمينيا، ومازالت هذه المشكلة مشتعلة حتى الآن (١٩٩٤)، وتتشدد أرمينيا، وترفض روسيا أى ضغوط تمارس على الأرمن، وفى النهاية اقتنعت أذربيجان

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

أن الحلل بيد موسكو، وليس من مكان آخر أو عاصمة أخرى، وهو الأمر الذى دعا القائم بأعمال الرئاسة الأذرية (حيدر علييف) إلى زيارة موسكو، ومن هنا اتضح للجميع فى دول القوقاز الثلاث وغيرها من دول الكومنولث، أن حل مشاكلهم فى يد روسيا، ولأنها تتدخل بالسلاح لنصرة فريق على آخر، وفى النهاية فإنها تفرض الحل الذى يرضيه، وليس ما يرتضيه الطرفان المتصارعان، ومن ثم نرى أن هذه الأحداث سواء فى القوقاز أو غيرها، تشير إلى استعادة موسكو لدورها المفقود منذ انفرط عقد الاتحاد السوفيتى السابق.

ولذلك فإن أذربيجان، وهى الدولة القوقازية الوحيدة التى رفضت الانضمام إلى مجموعة الكومنولث الروسى، ستفكر جيداً فى المخاطر التى تلحق بها إن هى تمردت على الهيمنة الروسية.

وهذا هو الخطأ الذى وقعت فيه الجبهة الشعبية الأذربيجانية، وزعيمها أبوالفضل التشيبى، الذى درس العربية وتخصص فى فلسفة الشرق، ويعتبر من المستشرقين، وسجن فى العهد الشيوعى بسبب تمرده على النظام الشيوعى، وكان يطمح إلى إقامة مجتمع ديمقراطى فى أذربيجان، يقضى به على نظام الحزب الواحد الشيوعى، ويقيم نظاماً علمانياً ودولة قوية، معتمداً على عوائد النفط الكبيرة، ومرتبطة بالغرب مثل تركيا وعبر تركيا، وحاول إدانة المرحلة الشيوعية فى جو من الرومانسية الثورية، التى عبأت الجماهير لفترة قصيرة حكمت فيها الجبهة الشعبية، ولكن هذا التأييد الشعبى انهار سريعاً بعد اصطدامه بالواقع المر والهيمنة الروسية، التى

مازالت تحرك عملاءها من وراء ستار.

وأمام المواجهة العسكرية مع أرمينيا، وهى البلد الأقل سكاناً (فسكانها حوالى ثلاثة ملايين)، وأقل موارد من أذربيجان، سقطت حكومة أبوالفضل التشيبى، وتسلم السلطة مكانه الشيوعى السابق (حيدر علييف)، ليصلح الأوضاع، فما كان من الرئيس الجديد إلا أن ذهب إلى موسكو لإصلاح الأوضاع المتردية فى الحرب مع أرمينيا، تلك الحرب التى غدت عبئاً ثقيلا على اقتصاد البلاد، التى تنفق ثلث ميزانيتها على الأغراض العسكرية، وتسببت فى الانهيار السريع، ولم ينفعها فى أزمتها النفط الذى يصدر إلى الخارج، وتؤكل أمواله بطرق شرعية وغير شرعية.

ويجمع المحللون على أن النفط كان سبباً أساسياً للصراع الأخير على السلطة فى الداخل، وتأزيم الأوضاع الدولية بفعل التنافس بين روسيا وإيران من جهة، وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى على النفوذ فى أذربيجان(١).

وهكذا أصبحت أذربيجان الغنية بثروتها البترولية، ضحية مثل غيرها من البلاد النفطية فى آسيا كالكويت، أو فى أفريقيا مثل نيجيريا، لأنها أصبحت بعد استقلالها محل أنظار الدول القريبة منها، والبعيدة التى تحاول اقتسام تركة الامبراطورية السوفيتية.

ولكن من الملاحظ أن روسيا من وراء أرمينيا بشدة، وهى التى مكنتها من التفوق عن طريق السلاح الروسى، وتحاول تركيا التخفيف من وطأة الانحياز الروسى ضد أذربيجان، وتقوم بوساطة

(١) الوسط اللندنية، عدد ٧٦، فى ١٢/٧/١٩٩٢، ص٤٥.

التى مكنتها من التفوق عن طريق السلاح الروسى، وتحاول تركيا التخفيف من وطأة الانحياز الروسى ضد أذربيجان، وتقوم بوساطة فى هذا المجال، كما ذكر الرئيس التركى سليمان ديميريل فى تصريح له إلى جريدة الأهرام القاهرية يوم زيارته لمصر فى ٧/٥/١٩٩٤، فيقول «وهناك وساطة ومشروع اتفاقية، تناقش الآن لتحقيق انسحاب القوات الأرمينية من الأراضى الأذربيجانية المحتلة، وسوف تواصل تركيا، كما يقول الرئيس التركى، مساعدتها حسب الإمكانات المتاحة» (١).

ومن المخاطر المنتظرة بعد الصراع مع أرمينيا، الصراع مع إيران على إقليم أذربيجان الإيرانى، والذى يقع على الحدود بين البلدين، فمن المتوقع أن تحركه القوى الكبرى، للإضرار بأوضاع إيران، كما حركت الأكراد فى شمال العراق، لأن تقسيمات الأجناس بين الدول بعد الحرب العالمية الثانية، أضرت بأوضاع الشعوب، وقسمت الأجناس بين الدول، فكونت بذلك بؤراً مستعدة للاشتعال وقت اللزوم، وذلك مثل تقسيم الأكراد بين تركيا والعراق وإيران، والأذربيجانيين بين إيران وأذربيجان، والطاجيك بين أفغانستان وطاجيكستان، وغيرها من التقسيمات الجائرة، وهى التقسيمات التى كان الإسلام قد قضى عليها، وجعل من المسلمين أمة واحدة، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، لكن أطماع الدول الإمبريالية أحيت هذه الاختلافات فى الجنس والعرق واللون، لتفتيت القوى الإسلامية، بإحياء النعرات العنصرية القديمة، لإضعافها وسيادة هذه الدول عليها، ولكن المستقبل للترابط الإسلامى والتضامن الإسلامى أمام الأطماع الخارجية.

(١) الأهرام، فى ١٩٩٤/٤/٧.

الفصل السابع

جمهورية تركمانستان

جمهورية تركمانستان

جمهورية تركمانستان تقع فى الجنوب الشرقى لبحر قزوين، وفى جنوب كازاخستان وأوزبكستان، وفى شمال غرب أفغانستان، وشمال شرق إيران، وهى جمهورية داخلية مثل غيرها من جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، وتقع غربى نهر جيحون، وهى فى مجملها نطاق صحراوى ٨٠٪ من أراضيها صحراوى، وتشكل جزءاً مما عرف فى التاريخ الإسلامى بإقليم خراسان، وهذا الإقليم (خراسان) يقسم حالياً بين تركمانستان وإيران وأفغانستان، وعلى ذلك فإن خراسان الشمالية هى جمهورية تركمانستان وعاصمتها (عشق آباد).

وتبلغ مساحة جمهورية تركمانستان (٤٨٨,٠٠٠ كيلومتر مربع)، وكانت فى التاريخ الإسلامى عامرة بالمدن الحضارية، مثل مرو وسرخسى وآمل وشهرستان ونسا وبيهق.

وتشتمل هذه الجمهورية على جزء من إقليم طبرستان، الذى فتحه الصحابى الجليل (سعيد بن العاص) والى الكوفة، فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ٢٩هـ (٦٥٠م)، وكان معه فى الفتح الحسن والحسين سبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمرو بن العاص وحذيفة بن اليمان، وغيرهم من الصحابة(١).

---

(١) محمد على البار، المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، جـ١، ص٢٦٥.

وبعد فترة من الثورات والقلاقل فى عهد معاوية، استقرت طبرستان ولاية إسلامية، أخرجت لنا الكثير من النوابغ، وعلى رأسهم الإمام (ابن جرير الطبرى) المؤرخ المفسر الفقيه والمجتهد المشهور.

والتركمان شعب تركى، يقطن آسيا الوسطى، ويتركز فى جمهورية تركمانستان، وقد استعمل اسم تركمان منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)، والمراد بهم فى المصطلح التركى (الأوغوز)، والمصطلح الغربى (الغز)، وهم فى الأصل كانوا يسكنون منغوليا، ثم هاجروا نحو الغرب، وكان لهجرتهم غرباً أثراً فى لغتهم وخلقتهم بصفة عامة.

ولم يطغ اسم التركمان على اسم الأوغوز إلا فى عهد المغول، وكانت كلمة (غز) شائعة الاستعمال فى القرن السادس الهجرى، وقد أطلق ابن بطوطة على العثمانيين اسم التركمان، وعلى كل حال فإن الخلط بين الترك والتركمان وارد فى الكتب كثيراً لقرابة الجنسين واتحاد موطنهما الأصلى.

ويذكر بارتولد الذى أرخ لهم، أنه من السهل التمييز بينهم وبين الترك الذين يعيشون فى آسيا الوسطى، من رؤوسهم المستطيلة، وذلك بسبب تعمدهم تغيير شكل جمجمة الطفل وهو صغير فى مهده، وبسبب اختلاطهم بالشعوب الإيرانية المتبدية، التى تقطن آسيا الوسطى، ويذكر عنهم أيضاً أنهم فرقة من السلاجقة أو العكس، أى أن السلاجقة فرع من التركمان، وقد تعاونوا مع

السامانيين فترة قوة دولتهم، وعلى الأخص على أيام نوح بن نصر الساماني(١).

ولم يتمكن التركمان من إقامة دولة لهم، ومن ثم تفرقوا فى عدة دول مثل فارس وخوارزم وبخارى وأفغانستان فى القرن الثامن عشر، وحاولوا الحفاظ على استقلالهم تجاه هذه الدول، وكانت هذه القبائل التركمانية المتفرقة تقتتل بعضها مع بعض فى كثير من الأحيان، وهاجر قسم منهم صوب الشمال، ودخلوا البلاد الروسية، حيث لايزالون يسكنون حوض نهر كورنه وحوض نهر منبج، ودخل الروس مناطقهم واستولوا عليها إثر الحرب التركمانية عام ١٨٨٢، وهى الحرب التى أبادت فيها روسيا كثيراً من هذا الشعب، ثم أقام الروس مستوطنات روسية، وبدأوا بمشاريع مائية لتوطين الروس فيها، وتوافد الروس على البلاد حتى شكلوا ثلث السكان.

وبعد عام ١٨٨٥ تم إخضاع التركمان من جانب الروس، وتم عن طريق المعاهدات فى الأعوام التالية تسوية المسألة التركمانية فى الأراضى التى هيمنت عليها روسيا، وفى سنة ١٩٢٤ نظمت لهم روسيا دولة خاصة بهم، بعد حل مشكلة القوميات، على أساس أنها جمهورية سوفيتية اشتراكية، بلغ عدد سكانها وفقاً لإحصاء سنة ٢٦- ١٩٢٧ (١,٠٣٠,٦٤١ نسمة)، منهم ٧١٩,٧٩٢ تركمانياً، هذا بالإضافة إلى أنه كان يسكن أفغانستان منهم فى نهاية القرن الماضى عدد يتراوح بين ٥٠ إلى ٨٠ ألف نسمة، وكان يسكن فارس منهم

(١) بارتولد، التركستان، ص٢٩٢، ٢٩٧.

نحو عشرين ألف نسمة(١).

والتركمان فى دولتهم يشكلون فيدرالية، أى اتحاد فيدرالى من القبائل أكثر مما يشكلون أمة، وغالباً ما يتوزع أعضاء القبيلة الواحدة على دولتين مختلفتين، فلا يفرق بينهم سوى حدود سياسية غير محكمة السد، وغنى عن البيان أن الحدود السياسية والجغرافية، لا يمكنها أن تنتصر على روابط القربى، التى تشد أعضاء القبيلة الواحدة الموزعة على طرفى الحدود.

وعلى كل حال، فإن الشعوب الإسلامية التى كانت تابعة للاتحاد السوفيتى السابق، يقطنون مناطق تتخطى حدود السياسة، بحيث أن كلا من هذه الشعوب كان يشكل أمة واحدة، قسمت إلى جزءين أو أكثر من الأجزاء غير المتساوية، بواسطة نظام بين الحدود الاصطناعية، لكن هذه الأجزاء ظلت تجمعها روابط التاريخ والثقافة والدين واللغة المشتركة فيما بينها جميعاً، فالتجزئة فرضت على هذه الشعوب فرضاً من قبل القوى الاستعمارية الروسية والانجليزية، لكن روح التضامن الأخوى ظلت قوية عندهم جداً(٢).

والمدن الواقعة فى تركمانستان، والتى سبق ذكرها مثل (مرو) و(سرخس) و(آمل) و(شهرستان) و(نسا) و(بيهق)،

---

(١) بارتولد، من مقال له عن التركمان فى دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) المسلمون المنسيون فى الاتحاد السوفيتى، مجلة الأسبوع العربى، عدد ١٩٨٢/٣/٢٩.

كانت عامرة بالسكان، وهى الآن تكاد تكون خالية من السكان، بعد إبادة الروس لكثير من سكانها وإحراق ديارهم وهدم مساجدهم وتغيير معالمها وإبادة مدارسها وإضاعة الثقافة والعلوم الخاصة بها.

وفى إحصاء سنة ١٩٧٩ كان عدد سكان تركمانستان (٢,٧٦٥,٠٠٠ نسمة)، منهم ٤٨٪ سكان المدن وأغلبهم من الروس والأوكرانيين، و٥٢٪ سكان الأرياف وأغلبهم مسلمون، وفى الآونة الأخيرة بدأت أعداد التركمان فى إزدياد، بسبب الخصوبة التى يتمتع بها المسلمون، فتكاثر عددهم رغم الإبادة فى الآونة الأخيرة إلى (٣,٥٣٤,٠٠٠ نسمة)(١)، وعشق آباد العاصمة، عدد سكانها (٤٠٢,٠٠٠ نسمة)، وتركمانستان أقل الجمهوريات الإسلامية (التى كانت تابعة للاتحاد السوفيتى) عدداً فى السكان، وفى هذه الدول تظهر أهمية زيادة النسل بين المسلمين، ولولا هذه الزيادة لاندثرت شعوب إسلامية بكاملها، ولكن هذه الخصوبة واجهت حرب الإبادة أيام حكم القياصرة والشيوعية بفيض من المواليد.

الثروة فى تركمانستان

تنتج تركمانستان القطن (١,٣٨١,٠٠٠ طن)، والحبوب (٣٩١,٠٠٠ طن)، والبطاطس والخضر (٤٤٢,٠٠٠ طن)، والعنب (١٧٦,٠٠٠ طن)، وأنواع أخرى من الفاكهة (٤٩,٠٠٠ طن)، ومن

(١) د.طه أبوالعلا، مرجع سبق ذكره، ص٧٧، وفى تعداد عام ١٩٩١ (٢,٧٥ مليون).

الأغنام والماعز (٥,٠٨٣,٠٠٠ رأس)، وهذه الأغنام لها أهمية اقتصادية كبيرة، لأنها توفر المادة الخام لصناعة السجاد من صوفها، والماشية (٨٠٧,٠٠٠ رأس)، والخنازير (٢٨٦,٠٠٠ رأس)، وتنتج النفط (٥,٨١٢,٠٠٠ طن)، والكبريت (٥,٥٤٧,٠٠٠ طن)(١).

وتحتل تركمانستان المرتبة الثانية فى إنتاج القطن فى هذه الدول بعد أوزبكستان، والثالثة فى إنتاج البترول، وتعتبر جمهورية تركمانستان ثانى أكبر منتج للغاز الطبيعى بين جمهوريات الكومنولث الروسى، وأكبر منتج للغاز بين الجمهوريات الإسلامية، فقد بلغ إنتاجها من الغاز الطبيعى عام ١٩٨٨ نحو ٨٨ بليون متراً مكعباً بنسبة ٦٠٪ من إنتاج الجمهوريات، وأخذ إنتاجها يتراوح حول نفس النسبة تقريباً حتى عام ١٩٩١، وإن كان قد صاحب ذلك نقصاً فى إنتاجها من الغاز خلال نفس الفترة، ليصل إلى ٦٥ بليون متراً مكعباً، ويعزى الانخفاض الحاد فى كميات إنتاج الغاز الطبيعى لتركمانستان، إلى الصعوبات والمشاكل الاقتصادية، التى تواجهها بصفة عامة، وإلى ندرة الاستثمارات الأجنبية والتكنولوجيا المتقدمة، لتنمية حقول الغاز، والعمل على إصلاح خطوط الغاز(٢).

ويلاحظ فى تركمانستان أن المناطق الغربية بها، تركز فيها كثير من أنواع النشاط الاقتصادى، مثل استخراج النفط والغاز ومعامل تكرير النفط والصناعات الكيماوية والصناعات الاستخراجية،

(١) المرجع السابق، ص٧٩- ٨٠.

(٢) المسلمون فى آسيا الوسطى، مصطفى دسوقى كسبة، ص٢٦٢- ٢٦٥.

إضافة إلى الثروة السمكية من بحر قزوين، فأصبح هناك توزيع جغرافى للموارد الاقتصادية، فى الجنوب والشرق والوسط ثروة زراعية، ووفرة فى مياه الرى، وفى الغرب صناعات استخراجية وكيميائية، ثم صناعة سمكية وصناعات غذائية أخرى، وهناك أيضاً تربية أغنام الكاراكول فى واحات هذه الصحراء، وتربية الخيول ذات الشهرة العالمية، وكذلك الإبل(١).

ويوجد فى تركمانستان مراكز صناعية لها أهميتها الآن، مثل العاصمة عشق آباد ومرو وتشارجو وكركيش، ومن أهم هذه الصناعات فى هذه المراكز الصناعات الكيماوية والمنسوجات والملابس الجاهزة والصناعات الغذائية والزراعية مثل حلج القطن والسجاد.

القبائل العربية بتركمانستان

نظراً لأن منطقة طبرستان والديلم كانت فى العصر العباسى موطناً للدولة الطبرستانية الزيدية العلوية، فإن منطقة تركمانستان ماتزال بها بعض القبائل العربية، التى هى فى الأصل مهاجرة إلى هذه المنطقة.

ذلك أن هذه الدولة، كانت تحت زعامة أئمة الزيدية، فقد بدأ أهالى هذا الإقليم يدخلون الإسلام على المذهب الزيدى فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى، ويرجع ظهور الحركة الزيدية فى إقليم طبرستان إلى هذه الفترة المبكرة من دخولهم الإسلام، وذلك

(١) د.طه أبوالعلا، مرجع سبق ذكره، ص٧٩.

عندما فر يحيى بن عبدالله بن الحسن أخو محمد النفس الزكية من وجه العباسيين، عقب معركة فخ سنة ١٦٩هـ بـ(مكة المكرمة)، إلى منطقة طبرستان، ومنذ هذا التاريخ بدأ الإسلام يتوسع فى هذه البلاد على يد الشيعة الزيدية.

وظلت منطقة طبرستان وبجوارها منطقة الديلم، قبلة لهجرات الزيدية إليها، وصار أهل هذه النواحى يدافعون عن المبادىء الشيعية بصفة عامة، وعن مبادىء الزيدية بصفة خاصة، وقد وجد الزيدية فى جبال طبرستان المنيعة ملجأ لهم، فلم يستطع العباسيون إلحاق هزيمة حاسمة بهم، وكونوا دولة جعلوا على رأسها إماماً زيدياً، هو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، ويعرف بالداعى العلوى، وقامت به دولة زيدية فى طبرستان سنة ٢٥٠هـ، تعرف بالدولة الزيدية، واستطاع الحسن بن زيد هذا أن يحتل مدينة آمل عاصمة طبرستان، وانضم إليه أهل جبال طبرستان(١)، واستمرت دولتهم حتى سنة ٣١٨هـ، ثم أعقبتها فى نفس المنطقة الدولة الزيارية الزيدية، وهى

(١) طبرستان: طبر فى لغة تلك البلاد معناها الجبل، وستان بلاد، فطبرستان بذلك معناها بلاد الجبل، ويطلق على هذا الإقليم أيضاً اسم مازندران، وقمم جباله لا يفارقها الثلج فى جميع فصول السنة، انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة طبرستان، وانظر أيضاً: كى لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٠٤- ٤١٧، وحسن محمود، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص٤٨١.

دولة زيدية لا إمام لها، والتى استمرت حتى سنة ٤٧٠هـ، ومن الدولة الزيارية خرج البويهيون، الذين سيطروا على الخلافة فى بغداد حوالى مائة عام، فالدولة الزيدية والزيارية هما اللذان مهدا لظهور الدولة البويهية (٣٣٤- ٤٤٧هـ).

وعلى الرغم من القضاء على دولة الزيدية العلوية فى هذه المناطق، إلا أن منطقة تركمانستان ظل بها العرب المهاجرون، وكونوا قبائل عربية معروفة إلى الآن فى هذه المناطق، وهذه القبائل هى:

(١) **قبيلة عطا** فى شرق تركمانستان فى وادى جيحون.

(٢) **قبيلة حجة** فى غرب تركمانستان وهى المنطقة التى حكمها أولاد الإمام زيد فى طبرستان والديلم، وتوجد هذه القبيلة أيضاً فى جنوب تركمانستان.

(٣) **قبيلة السيد** وموطنهم فى غرب تركمانستان أيضاً فى طبرستان القديمة، حيث قامت الدولة الزيدية العلوية.

(٤) **قبيلة الشيخ** فى غرب تركمانستان كذلك.

وقد انتشرت بينهم الطرق الصوفية، التى كان لها دور كبيرر فى إسلام التركمان الذين جاءوا إلى المنطقة مع السلاجقة، وهذه الطرق يوجهها ويقودها السادة من آل البيت، وقد واجهوا الروس فى العهد القيصرى وفى العهد الشيوعى قبل سقوط الاتحاد السوفيتى(١)، وبفضلهم فإن تركمانستان هى الجمهورية الأكثر تديناً

(١) محمد على البار، المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، جـ١، ص٢٦٧- ٢٦٨.

فى آسيا الوسطى.

وأهم هذه الطرق الصوفية:

(١) **الطريقة النقشبندية** التى لم تظهر إلا فى القرن التاسع عشر.

(٢) **الطريقة الياساوية** التى أسسها الداعية العلامة أحمد يسوى المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٦م).

(٣) **الطريقة الكبروية** التى أسسها نجم الدين أحمد الكبرى من أهل خيوة والمتوفى سنة ٦١٦هـ.

وفى الوقت الذى تناقص فيه عدد المساجد أيام الحكم الشيوعى فى جمهورية تركمانستان، حتى وصل عددها الرسمى إلى أربعة مساجد، كما ذكرت بعض المصادر (١)، وقامت الطرق الصوفية بدورها فى مجال الدعوة الإسلامية سراً، وحولت المنازل إلى مساجد سرية، وكذلك أضرحة الأولياء، كما ذكرنا فى استعراضنا للدول السابقة، ومن ثم فإن روح الإسلام بقيت مشتعلة فى الخفاء فى نفوس الناس.

هذا بالإضافة إلى أن مفهوم القومية ارتبط بالإسلام، بحيث صار لفظ مسلم يعنى تركمانى، وهى ظاهرة لا توجد بقوة إلا فى الاتحاد السوفيتى، حيث ارتبط مفهوم (الملة) وهى تعنى قوم باللغة التركية بمفهوم الدين، ويكفى أن لفظ القوم أو القومية قد أصبح

(١) المرجع السابق، جـ١، ص٢٧٠.

لدى مسلمى الاتحاد السوفيتى السابق يعبر عنه بلفظ (الملة) التى تعنى فى اللغة العربية (الدين).

ولاشك أنه كان هناك تأثير قوى فى تركمانستان للعلماء من أوزبكستان، وللدعاة من إيران الذين كانوا يبثون دعوتهم من راديو جرجان باللغة التركمانية.

وظهرت بوادر النهضة التركمانية منذ الثورة الروسية سنة ١٩٠٥، وزادت هذه النهضة بعد عام ١٩١٧، والانقلاب الشيوعى، وكانت مدينة (عشق آباد) العاصمة التركمانية مركزاً لهذا النشاط، وصارت الكتب الدراسية والصحف تصدر باللغة التركمانية(١).

ويذكر أحد المسئولين فى وزارة الخارجية التركمانية فى مقابلة صحفية فى موسم الحج سنة ١٩٩٤م (ذى الحجة ١٤١٤هـ)، أن الأوضاع بصفة عامة فى تركمانستان هادئة ومستقرة، ولا يعانى المسلمون هناك مثلما يجرى فى مناطق أخرى فى وسط آسيا، فتركمانستان هى بلد إسلامى وجزء من العالم الإسلامى، وعدد سكانها حوالى أربعة ملايين، غالبيتهم من المسلمين، وبعد استقلال البلاد عن روسيا، تهيأت الظروف الملائمة للشعب ليمارس الجميع ديانتهم بكل حرية، وليقوموا بأداء واجباتهم الدينية دون تدخل من السلطات، ويوجد الآن ١٨٠ مسجداً فى تركمانستان، وهو عدد قليل فى بلادنا وغير كاف، ويجرى العمل الآن لبناء العديد من المساجد الجديدة.

(١) كوبريلى زادة فؤاد، من مقال له عن الأدب التركمانى فى دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية، مادة تركمان.

وفى هذا الإطار ندعو جميع الدول الإسلامية القادرة، لمساعدتنا فى بناء هذه المساجد، ودعم النشاط الإسمى، وقال إن تركمانستان بلد غنى بالمواد الأولية، إضافة إلى وجود استقرار سياسى يساعد فى جذب الاستثمارات الخارجية، والفرصة متاحة للدول الإسلامية القادرة، للدخول فى استثمارات فى بلادنا، وبالتالى دعم المسلمين هناك، كما أن هناك قوانين جديدة تفتح الطريق واسعاً أمام الاستثمارات الخارجية (١).

وعلى كل حال فإن فرصة تركمانستان كبيرة فى مجال العلاقات مع دول كبيرة، تسهل لها عملية الاتصال بالخارج، مثل إيران التى بدأت فى شق طريق عبر تركمانستان وإيران، لوصلها بالمياه الدولية فى الخليج العربى، وهذا ما أشرنا إليه من قبل، ففرصة تركمانستان فى الاتصال بالعالم الخارجى، أكثر من غيرها من الدول الإسلامية فى التركستان الغربية.

الأوضاع الحزبية

بعد انهيار الاتحاد الوفيتى، غير «الحزب الشيوعى» لافتته إلى «الحزب الديمقراطى»، ولكن لم يظهر أى تغيير ديمقراطى حقيقى فى البلاد، فكوادر الحزب الشيوعى الإدارية والفنية، مازالت

(١) عن مقابلة لجريدة المسلمين مع قربان وليف فى موسم الحج (ذى الحجة سنة ١٤١٤هـ)، عدد رقم ٤٨٥، الجمعة ٩ ذى الحجة ١٤١٤هـ/ ٢٠ مايو ١٩٩٤م.

تسيطر على الدولة، كما لم تزل فى الدولة حتى الآن تماثيل الزعماء، والموجودة فى ميادين وشوارع المدن، ولم تمح المطرقة والمنجل المرسومة على الأعلام، فالدولة فى حذر لأن هناك مائة ألف جندى روسى مازالوا جاثمين على صدر البلاد فى معسكراتهم.

وقد تكونت بعد الاستقلال خمسة أحزاب، هى حزب الفلاحين وهو أقوى الأحزاب، والحزب الديمقراطى الذى يترأسه (نيازوف) رئيس الجمهورية، وتدار البلاد برئاسته، وأعضاء البرلمان الحالى، حتى موعد الانتخابات القادمة المقررة فى عام ١٩٩٥ (١).

السياسة الاقتصادية بعد الاستقلال

فى تصريح لوزير خارجية تركمانستان، يقول بعد الاستقلال لا يريد أن تكون بلاده شيوعية أو إسلامية، بل يريد أن تقوم على «الديمقراطية العلمانية» (٢)، وهذا التصريح شبيه بتصريحات الرؤساء الشيوعيين الآخرين فى الجمهوريات الإسلامية، الذين مازالوا يجثمون على صدور شعوبهم، وتمكنهم روسيا من ذلك، وهذا التصريح يسوى بين الشيوعية التى أفلست وفشلت، وبين الإسلام الذى مازال يتفجر بالطاقات الفعالة والمؤثرة إلى يومنا هذا، وهذا أثر من آثار العهد الشيوعى، الذى فرغ عقول الناشئة من الاتجاه إلى

(١) د.عبدالعزيز محمد عوض، دراسة عن تركمان آسيا الوسطى الإسلامية، من مجموعة الأبحاث المقدمة إلى مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز، جامعة الأزهر، ١٩٩٣.

(٢) د.زينب الأشوح، مرجع سبق ذكره.

إسلامهم، فأصبحوا يجهلونه، ويعرفون عن الشيوعية والإلحاد والعلمانية أكثر، فيميلون إليها، وهذا الكلام ينطبق فقط على العصابات الشيوعية التى مازالت تحكم، أما الشعب فمازال اتجاهه إلى إسلامه قوياً جامحاً، لأنه أعرض ونئا بجانبه عن هؤلاء الذين سايروا الشيوعيين الروس.

وأيما كان الأمر، فقد اتبعت جمهورية تركمانستان عدة إجراءات للتحول إلى اقتصاد السوق الحرة، وهى:

أولا فيما يتعلق بملكية الأرض، صدر فى ١٢ من ديسمبر عام ١٩٩٠ قانون جديد، أقر أن ملكية الأرض للشعب، وليست للدولة، فلكل مواطن حق الانتفاع بقطعة أرض، ويمكن للأجانب حق تأجير الأرض لمدة ٢٥ سنة، وسمح القانون الصادر فى ٢٣ أبريل عام ١٩٩٢ بتقسيم المزارع الجماعية ومزارع الدولة وتوزيعها على الأسر، مع إمكانية استخدامها فى مجالات أخرى، مثل إنشاء المبانى، ومزاولة الحرف اليدوية، وأعطى القانون أيضاً حق الميراث طبقاً للشريعة الإسلامية.

ثانياً صدر قانون الخصخصة فى ١٩ فبراير عام ١٩٩٢، أى تحويل الشركات من القطاع العام إلى القطاع الخاص، وتم وضع مبادىء لعملية الانتقال إلى نظام الخصخصة، حيث يتم أولا خصخصة المشروعات الصغيرة الخاصة كالصناعات الاستهلاكية والخدمات والبناء.

وتظل الطاقة والماء والأرض مملوكة للدولة، ويتم تسهيل

شراء العاملين للمشروع، مع حقهم فى نسبة الأرباح، ويمكن للأجانب شراء حصص فى الشركات المباعة، مع إعطاء المواطنين الأولوية عند الشراء، وصدر قانون الاستثمار فى ١٩ مايو عام ١٩٩٢، للسماح للأجانب بالنشاط الاستثمارى فى البلاد، وكذلك المواطنين.

وتم تحديد القطاعات التى تعطى الأولوية عند الاستثمار، وفى المجال النقدى تم تنظيم قطاع البنوك، حيث تم إعطاء بنك الدولة حق الإشراف على قطاع البنوك فى تركمانستان، واعتباره مسئولا عن الاستقرار النقدى والائتمان فى الدولة(١).

وكانت أهم النتائج التى تمخضت عنها سياسة الإصلاح الاقتصادى، موجة عارمة من التضخم، وزيادة الأسعار، مع قلة الدخول، مما أوقع الدولة فى ارتباك شديد، مثل ما حدث فى غيرها من الجمهوريات المستقلة، ستعانى من آثارها زمناً طويلا.

الحرية الدينية بعد الاستقلال

اتخذ البرلمان التركمانى عدة قرارات، بعد الاستقلال، من شأنها فتح الطريق لمزيد من الحرية الدينية للأهالى، لممارسة شعائرهم الدينية، وقد قوبلت بفرح شديد لدى الشعب التركمانى المسلم، وكان فى مقدمة القرارات قرار يقضى بإزالة عبارة «الجمهورية السوفيتية الاشتراكية» من كل القوانين فى البلاد.

---

(١) د.سهير حسن عبدالعال، مرجع سبق ذكره.

وفى مجال الحرية الدينية، فها هى نصوص تلك القرارات التى أصدرها البرلمان:

مادة "٥" يجب أن تستقل الجمعيات الدينية عن الدولة، وكل شخص يمكن أن يعتنق أى دين يشاء، وقد استبدلت العبارة القديمة التى تقول «بدون إعلانات أو دعاية لذلك»، بعبارة «وكل شخص يمكن أن يقوم بأداء الوعظ والإرشاد الدينى، ولكن عليه ألا يقع فى خطر أن تهدد تلك المواعظ استقلال وسيادة الدولة، ويعاقب كل من أصدر كلاماً يهدد عموم الدولة وكيانها».

مادة "٦" يسمح للصغار، ما بين السادسة والثامنة عشرة، تلقى التعليم الدينى فى المدارس، ومن الممكن أن يتلقى الطفل قدراً أكبر خارج خطة الدراسة ومنهجها، ولكن فى هذه الحالة تكون تحت إشراف وموافقة المدرس وولى أمر التلميذ، وبشرط ألا تزيد تلك الكمية عن أربع ساعات فى الأسبوع.

مادة "٧" تؤسس الجمعيات الدينية، بهدف الوفاء بحاجة المواطنين ومتطلباتهم، وتعمل تلك الجمعيات فى إطار ومنهج تأسيسها، ولا يسمح لها بإقامة أى علاقات بالمؤسسات والجمعيات التى تعمل خارج البلاد، ويخرج نشاطها عن الدائرة الدينية.

مادة "١٣" يدقق فى القوانين الخاصة بالجمعيات التى تؤسس، وكذلك نظامها ومنهجها من قبل وزارة العدل، وهى التى تمنح الإذن بمباشرة أعمالها، والأشخاص الذين يعتزمون تأسيس جمعية، عليهم أن يكتبوا طلب لمباشرة العمل، وعند الانتهاء من ذلك

عليهم أن يوضحوا نهج العمل فى الجمعية المزمع إقامتها، ويمكن للأفراد الذين يصلون إلى سن الثامنة عشرة من العمر، أن يكونوا أعضاء فى الجمعيات الدينية، والجمعيات الدينية التى لا يقل عدد أعضائها عن ٣٠٠ شخص، تصير ذات حقوق كاملة، لدى تأسيسها ومباشرة أعمالها.

مادة "١٧" تقبل المساعدات التى ترد من خارج البلاد، فقط بإذن من هيئة القضاء، ويمكن للجمعيات الدينية أن تقيم مؤسسات تدر دخلا عليها، مثل المعامل والمصانع والشركات.

مادة "٢١" لا تقدم أى مساعدة للنشر أو الإعلان عن طريق الصحافة، للمناقشات الفكرية التى تتم بين كل من الجمعيات الدينية والجمعيات القومية، ويتم رفع دعوى قانونية بحق هؤلاء الذين يقفون هذا الموقف، وللجمعيات الدينية الحق فى إنتاج كتب ومجلات، وأن تكون مواقع الإنتاج التى تقوم من أجل تلبية حاجاتها فى إطار القانون.

مادة "٢٨" من الممكن اتخاذ أمثلة لمواقع العمل الخاصة بالمؤسسات التى تقام خارج البلاد بغرض دينى، وكذلك لنظام عمل إدارتها بين المؤسسات المحلية، ويمكن أن تمارس عملها فى إطار قوانين الدولة(١).

---

(١) د.عبدالعزيز محمد عوض، دراسة عن التركمان فى آسيا الوسطى، مرجع سبق ذكره.

الفصل الثامن

جمهورية قيرغيزستان

جمهورية قيرغيزستان

تقع جمهورية قيرغيزستان فى شرق أوزبكستان، وغرب تركستان الشرقية التابعة للصين، ويحدها من الجنوب الغربى طاجيكستان، وينبع نهر سيحون من جبال قيرغيزستان فى وسطها، ثم يتجه غرباً ليصل إلى إقليم فرغانة، وعاصمتها فرونزى.

ومساحتها ١٩٨,٥٠٠ كيلومتر مربع، وسطحها جبلى، وتكثر بها الأودية والمنخفضات بين سلاسل الجبال، ومن هذه المنخفضات منخفض فرغانة أو وادى فرغانة، الذى ينقسم بينها وبين أوزبكستان، وفيها وادى بحيرة (أسيك كول) فى شمالها الشرقى، ووادى (تشو) بالقرب من حدودها الشمالية، ووادى (تلاسى) فى الشمال، وتشغل هذه الأودية ١٥٪ من المساحة، وتتجمع بها مراكز الاستقرار التى تغذيها بمياه الثلوج الدائمة على قمم الجبال، وهى أحد أكبر البحيرات الجليدية فى العالم، وفيها تكثر الأنهار المنحدرة من هذه القمم وبها شلالات.

والسكان يبلغ تعدادهم طبقاً لإحصاء عام ١٩٩٠ (٤,٣٧٢,٠٠٠ نسمة، منهم ٥٢,٤٪ قيرغيزو، و١٢,٩٪ من الأوزبك، و٢٢,٥٪ من الروس، و٣٪ من الألمان، و٢,٥٪ من الأوكرانيين، و١,٣٪ من الطاجيك، و١,٣٪ من الكازاخ، و١,٦٪ من التتار، و١,٥٪ من اليوغور، و١٪ من الدانجان(١).

وقد استقرت قبائل القيرغيز قديماً على مرتفعات (تيان

(١) د.محمود طه أبوالعلا، مرجع سبق ذكره، ص٧٠.

شان)، ومنها انتشرت فى وسط آسيا، مكونة امبراطورية واسعة للقيرغيز، ولهم تاريخ يرجع إلى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد.

وغالبية سكان قيرغيزستان فى الريف ٦١٪، والقلة من أهل الحضر وتبلغ نسبتهم ٣٩٪.

ولقد اتبع الروس فى هذه البلاد سياسة الإبادة والترحيل وإحلال الروس وغيرهم مكانهم فى العهد القيصرى سنة ١٨٦٦ والعهد الشيوعى، حيث طردوا السكان من وادى فرغانة الخصيب، وألجأوهم إلى الصحارى والقفار المجدبة، وبذلك تناقص السكان، وقامت الثورات المتتالية ضد هذا الاستعمار الروسى الغاشم، وكانت هذه الثورات ذريعة للقوات الروسية لإبادة السكان شيوخاً وشباباً ونساء وأطفالا، ففى ثورة عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٦م) أبادت القوات الروسية ١٥٠,٠٠٠ قيرغيزى، وتبع ذلك مجاعة مات فيها مئات الآلاف (١)، وقد أبيد سكان القسم الشمالى من قيرغيزستان عن بكرة أبيهم، ومن أفلت منهم فر إلى الصين، حيث لاقى الكثير منهم حتفه أثناء الفرار، وفى معسكرات الاعتقال الصينية، وتسببت هذه الإبادة فى تناقص إنتاجهم من المواشى والزروع، ففى الإحصاء الرسمى السوفيتى، جاء أن عدد المواشى فى قيرغيزستان تناقص من ستة ملايين عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م)، إلى مليونين فقط عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م).

أما المناطق الجنوبية فى قيرغيزستان، فقد بقى أهلها بها،

(١) محمد على البار، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص٢٧١.

ولكنهم واجهوا الاضطهاد والمذلة على يد الروس، ولم يعفهم فى أثناء فترة الحكم الشيوعى أنهم تظاهروا بالشيوعية تقية من الروس، فكانوا يواجهون الموت أو السجن إذا طالبوا بحقوقهم من الروس، مثل توفير المواد الغذائية المنتجة فى بلادهم للأهالى، على أن يصدر الفائض بعد ذلك إلى روسيا.

الإسلام فى قيرغيزستان

ويذكر بارتولد فى كتابه « التركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى »(١)، أنه يوجد بفرغانة بمنطقة «أسبيد يولان» قبور ٢٧٠٠ من الصحابة والتابعين، كان قد أرسلهم الخليفة عثمان بن عفان تحت إمرة رجل يسمى (محمد بن جرير)، فاستشهدوا جميعاً فى واقعة مع الكفار، ولايزال هذا الموقع معروفاً وقائماً إلى حين زيارة بارتولد له فى بداية القرن العشرين، وهذه الواقعة إن صحت تدل على أن الإسلام وصل إلى فرغانة فى وادى نهر سيحون فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه.

ثم حدثت غزوة أخرى قادها (قتيبة بن مسلم الباهلى) فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك بن مروان (٨٦- ٩٦هـ)، الذى فتح فرغانة والشاشس وأشروسنة، ومضى فى فتوحاته حتى وصل إلى منطقة (كاشغر) بالصين، واستشهد قتيبة بن مسلم سنة ٩٦هـ فى وادى فرغانة، ويوجد قبره فى (رباط سرهنك)، وهو

---

(١) ترجمه من الروسية إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، ١٤٠١هـ (١٩٨١م)، ص٢٧٢.

الذي يسميه الأهالى هناك قبر (الإمام الشيخ قتيبة)، كما يوجد فى (خوقند) قبر الإمام (عبدالله بن على زين العابدين) بن الإمام السبط الحسين بن على المتوفى سنة ١١٣هـ (٧٣١م)(١).

وبعد وفاة قتيبة قامت ثورة بقيادة أمير فرغانة، وحاول استرداد نفوذه القديم، وقامت ثورات أيضاً فى بخارى وسمرقند، ولكن الدولة الأموية لم تتهاون فى مواجهة تلك الثورات وقمعها، ونجحت فى إخضاع أغلب الأمراء الذين بدأوا يدخلون الإسلام، خاصة فى عهد الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز، الذى دعاهم للدخول فى الإسلام، وبعده بدأوا يتذوقون الإسلام ويتآلفون مع العرب، ويدافعون عن الإسلام بحماس ضد الأتراك الشرقيين(٢).

وفى القرون اللاحقة، لعبت الطرق الصوفية دوراً هاماً فى تعميق الإسلام فى هذه المناطق، ونشره على المستوى الشعبى، ومن أهم هذه الطرق:

(١) **الطريقة النقشبندية** التى تتمتع بشعبية واسعة، فى جميع دول وسط آسيا الإسلامية، وفى المناطق الإسلامية فى روسيا الاتحادية، ومناطق القوقاز، ومركزها الرئيسى بخارى، وقد قاد رجال هذه الطريقة الجهاد ضد البوذيين فى القرن السابع عشر والثامن عشر فى قيرغيزيا، مما جعل لهذه الطريقة شعبية كبيرة بين القيرغيز، حيث أخرجت الإمام الملا محمد

---

(١) المرجع السابق، ذات المكان.

(٢) د.حسن أحمد محمود، الإسلام فى آسيا الوسطى، ص١٥٠- ١٥١.

والإمام محمد شامل، وحركة المريدين التى قاومت الغزو الروسى للداغستان والقوقاز، لأكثر من ١٣٧ عاماً، والتى كان من آخر أبطالها الإمام نجم الدين غوتسو، الذى أعلن استقلال الداغستان سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٨م)، والتى استمرت ثورته إلى عام ١٣٤١هـ (١٩٢٢م)، عندما تم إخضاعها بواسطة القوات الشيوعية الكثيفة(١).

(٢) **الطريقة الياسوية** مؤسسها أحمد اليسوى، وهو أحد كبار علماء المغول، وأحد كبار الشعراء، وقد أسلم على يديه مئات الآلاف من المغول ووسط القبائل المغولية، وقد توفى أحمد اليسوى فى مدينة (يسى) والتى عرفت فيما بعد باسم تركستان، وتقع فى جمهورية كازاخستان، وكانت وفاته فى سنة ٥٦٢هـ، وظل أتباع هذه الطريقة يعملون ضد الروس فى العهد القيصرى، وضد الشيوعيين حتى استقلت بلادهم.

(٣) **الطريقة القادرية** وتنتسب إلى الشيخ عبدالقادر الجيلانى، الذى يتصل بالنسب إلى الحسين بن على، وأصحاب هذه الطريقة منتشرون فى آسيا وأفريقيا، ولها دور فى مواجهة الغزو الروسى ثم الشيوعى.

(٤) **الطريقة الكبروية** أسسها الشيخ نجم الدين أحمد الكبرى الخيوى، نسبة إلى مدينة خيوة عاصمة خوارزم، التى انطلقت منها دعوتهم إلى مختلف مناطق التركستان، وهذا

---

(١) محمد على البار، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص٢٧٧- ٢٧٨.

الشيخ عاش فى القرن السادس الهجرى (٥٤٠- ٦١٦هـ)، وبفضل جهود أتباع هذه الطريقة، دخل كثير من الأتراك والمغول إلى الدين الإسلامى، وقاموا بالدفاع عنه، فى وجه الوثنيين ثم القياصرة والشيوعيين.

الوضع الحالى بعد الاستقلال

بعد استقلال قيرغيزستان، انطلقت الدولة فى مجال الإصلاح، وخاصة الاقتصادى، وكانت أسرع الجمهوريات فى اتخاذ إجراءات جديدة وسريعة لتطبيق سياسة الإصلاح الاقتصادى، حتى أن رئيس الجمهورية وصفه «بأنه الصدمة المفاجئة للاقتصاد»، وهذا البرنامج له خمس جوانب، هى:

أولا صدور قانون فى ١٩ أبريل عام ١٩٩١ فى قطاع الزراعة، ليحل محل القانون السابق فى عام ١٩٧٢، والذى نص على عدم بيع أو شراء أو منح أو رهن أو مقايضة الأراضى الزراعية، وذلك لأن المواطنين فى جمهورية قيرغيزستان هم فى الأصل بدو استقروا فى هذه الأراضى منذ الثلاثينيات، فالشعب بطبيعته لا يفضل الملكية الخاصة.

وجاء القانون الجديد ليعطى الحق لكل مواكن لتوريث قطعة الأرض التى يملكها، ويعطى للأجانب حق استئجار الأرض بمشروع مشترك مع المواطنين.

وقد صدر قانون آخر للتعاونيات فى ١٢ ديسمبر عام

١٩٩١، يسمح بإنشاء المزارع التعاونية مشاركة بين المزارعين بحد أدنى ثلاثة شركاء.

ثانياً صدرت مجموعة من القوانين والقرارات فى عام ١٩٩١، أهمها قانون الخصخصة العامة للمشروعات فى يوليو عام ١٩٩١، حيث نص على ضرورة بيع أسهم المشروعات للمواطنين، واشترط أن يأخذ العاملون نصيباً من الربح، وصدر قرار آخر فى ٧ أغسطس عام ١٩٩١ يجيز ملكية الأسهم للأفراد الوطنيين والجمعيات والأجانب(١).

وفى أغسطس عام ١٩٩١ صدر قرار آخر نص على أن ما بين ٣٥٪ إلى ٤٠٪ من الأصول الثابتة مملوكة للأفراد الوطنيين، وتوزع كالآتى:

٣٠٪ من الأسهم تحجز للعاملين فى الشركة التى تعرض للبيع.

٥٠٪ من الأسهم للحكومة.

٢٠٪ من الأسهم المتبقية تباع لشركات أخرى وطنية أو أجنبية بترخيص من الحكومة.

ثالثاً صدور قانون المشروعات بتاريخ ٦ فبراير ١٩٩٢، الذى شجع المشروعات المشتركة مع الأجانب.

رابعاً تتوقف الدولة عن منح الإعانة والدعم لكثير من المشروعات

(١) د.سهير حسن عبدالعال، الأوضاع الاقتصادية لجمهوريات قيرغيزستان وطاجيكستان وتركمانستان وأوزبكستان، مرجع سبق ذكره، ص٣٧.

مثل مشروعات تكرير السكر والدخان والكحول وغيرها.

خامساً إعادة تنظيم قطاع البنوك حيث تم تغييج اسم بنك الدولة في الاتحاد السوفيتي القديم إلى البنك الوطني لجمهورية قيرغيزستان، ويقوم البنك الوطني بالإشراف على السياسة الائتمانية للبنوك التجارية من خلال قرض قدره (٤٠٠ مليون دولار) أمريكي مقدم من البنك الدولي وجهات أخرى كذلك، ثم دمج لجنة الخطة السابقة ووزارة المالية في وزارة الاقتصاد (١).

ونتيجة لهذه السرعة في الإصلاح حدثت موجة كبيرة في زيادة الأسعار، لا يصاحبها زيادة في مستويات الأجور.

ويمكن لنا أن نتبين الاتجاهات الحديثة في قيرغيزستان من خلال آراء المسئولين فيها، حيث يذكر رئيسها «إنني ضد التعصب الديني، وهناك افتراض أن تصبح جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية دولا إسلامية، وأتعهد بألا يحدث ذلك» (٢).

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨.

(٢) د.زينب صالح الأشوح، الأهمية الاقتصادية للجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، بحث مقدم إلى مؤتمر المسلمين في آسيا الوسطى والقوقاز.

الفصل التاسع

جمهورية كازاخستان

جمهورية كازاخستان

جمهورية كازاخستان (قازاقستان)، وتسمى أرض القوزاق، وهى أكبر الجمهوريات الإسلامية مساحة، حيث تبلغ مساحتها (٢,٧١٧,٣٠٠ كيلومتر مربع)، بنسبة ٦٠٪ من مساحة الدول الآسيوية الكلية، وتمتد من دلتا نهر الفلجا (اتل) فى الغرب، إلى حدود الصين فى الشرق، ومن سيبيريا فى الشمال، إلى أوزبكستان فى الجنوب الغربى، وقيرغيزيا فى الجنوب، وتركستان الشرقية فى الجنوب الشرقى، وسكانها حوالى ١٧ مليون نسمة(١).

وعاصمتها (ألماآتا) ومعناها مدينة التفاح، وتتميز كازاخستان بأنها أكثر الأراضى الزراعية مساحة بين الجمهوريات الإسلامية، إذ يوجد بها ٦٥٪ من مجموع مساحة الأراضى الزراعية فى الجمهوريات جميعاً، وذلك لأن شمال القوقاز يقع فى نطاق إقليم الاستبس، الذى يمتد شمالا إلى سيبيريا، والذى يشتهر بتربته الخصبة، كما أن الأمطار به تتراوح بين ٨ بوصة و١٢ بوصة، وهذا يكفى للإنتاج الزراعى فى شمال كازاخستان، الذى كان أرضاً زراعية ثم أهملت وتحولت إلى أراضى بور، وتقدر مساحتها بـ٢٠ مليون هكتار أو ٥٠ مليون فدان، هى مجال التوسع الزراعى مستقبلا فى هذه الجمهوريات(٢).

---

(١) محمد على البار، جـ١، ص٢٤٥.

(٢) مصطفى دسوقى كسبة، المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، جـ١، ص٧٧، ود.طه أبوالعلا، الآثار الاجتماعية والاقتصادية لنهرى سيحون وجيحون، ص٤٩- ٥٠.

ويجرى فيها ثلاثة أنهار كبيرة، تصب فى أوب (سيبيريا)، الذى يصب فى المحيط المتجمد الشمالى، وهى أنهار إرتش وإشم وتوبول، وبنيت السدود العديدة فى مجرى نهر سيحون، لرى الأراضى الزراعية فى جنوب كازاخستان.

ولذلك فإن إنتاج كازاخستان من الحبوب وفير، إذ تنتج أكثر من ٢ مليون طن(١).

ونظراً لما ينبت من أعشاب فى هذه المساحات الشاسعة، فإن مهنة الرعى هى العامل المشترك لسكان كازاخستان، ويتجول الكازاخ فى مساحة واسعة من هذه الأراضى رجالا ونساء وأطفالا، ومعهم كل ما يملكون، ولكن الرعى المتنقل اختفى الآن فى ربوع البلاد، ولكن تربية الحيوانات بأنواعها قد استمرت، وأغلبها الأغنام والماعز ٧٠٪ من مجموع الحيوانات، والنسبة الباقية موزعة بين الماشية والخيول والبغال والحمير.

أما تربية الخنازير فقد أدخلت إلى كازاخستان حديثاً، فقد فرضها الروس عليهم، لأنهم يأكلونها رغم أنها تتنافى مع تعاليم الدين الإسلامى(٢).

وحرفة الرعى الآن تختلف تماماً عن مفهوم الرعى المتنقل من سكان الخيام قديماً، تنتقل الآلاف من أنواع الحيوانات التى أشرنا

(١) المرجع السابق، جـ١، ص٧٨، ود.طه أبوالعلا، المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، جـ١، ص٨٢، ود.طه أبوالعلا، المرجع السابق.

إليها فى حركة فصلية من القرية وهى المستقر الشتوى الثابت، ورعاة الحيوان من أفراد هذه الجماعات هم الذين ينتقلون مع حيواناتهم مخلفين وراءهم كل أفراد الأسرة، الذين يستمرون فى حياتهم فى قراهم هذه ويشتغلون بالزراعة أو التجارة أو الحرف اليدوية.

ونظرة إلى الإحصائية التالية، نلاحظ تفوق كازاخستان بين الجمهوريات الإسلامية الخمس فى وسط آسيا.

الدولة	رؤوس الحيوانات بالمليون عام ١٩٩٠		
	الأغنام والماعز	الماشية	الخنازير
كازاخستان	٣٦,٢٩	٩,٨	٣,٣
أوزبكستان	٤,١	٤,١	٠,٧
قيرغيزستان	١٠,٠	١,٢	٠,٤
طاجيكستان	٣,٤	١,٣	٠,٢
تركمانستان	٥,١	٠,٨	٠,٣
المجموع	٥٨,٨	١٧,٢	٤,٩

(١)

أما الثروة المعدنية فى كازاخستان، فإنها تملك ٩٠ نوعاً من المعادن، أهمها النحاس فى كازاخستان الوسطى، والرصاص والزنك

(١) مصطفى دسوقى كسبة، المرجع السابق، ص٨٥، ود.طه أبوالعلا، مرجع سبق ذكره، ص٥٤.

والفضة فى منطقة مرتفعات زانجوريا، والحديد الخام والفحم فى كاراجندا، أما الذهب فيوجد فى شرق البلاد، والمنجنيز والأنتيمون فى وسط البلاد، والنفط والغاز الطبيعى فى شرق بحر قزوين.

ولولا النظام الشيوعى، حيث ينعدم الحافز الفردى والبيروقراطية، لكان إنتاج كازاخستان من القمح أضخم إنتاج فى العالم، بسبب كثرة السهول الصالحة لزراعة القمح.

وكانت أغلب هذه الثروات تذهب إلى المستعمر الروسى قبل الاستقلال، ومن ثم فإن هذه البلاد الآن أمامها فرصة كبيرة للتنمية فى المستقبل، إذا حسنت القيادة والنظام.

السكان

كان عدد السكان فى آخر إحصاء معلن أيام الاتحاد السوفيتى عام ١٩٧٩ (١٤,٦٨٤,٠٠٠) منهم (٧,٩٢٠,٠٠٠) سكان المدن و(٧,٧٩٤,٠٠٠) سكان الأرياف، وكان السكان يتوزعون كالتالى:

المسلمون	العدد	النسبة المئوية
الكازاخ	٥,٢٨٩,٠٠٠	٣٦٪
التتار	٣١٣,٠٠٠	٢,١٪
الأوزبك	٢٦٣,٠٠٠	١,٨٪
اليعوز	١٤٨,٠٠٠	١,٠٪
الأذربيجانيون	٧٣,٠٠٠	٠,٥٪

غير المسلمين	العدد	النسبة المئوية
الروس	٥,٩١٩,٠٠٠	٤٠,٨٪
الروس البيض	١٨١,٠٠٠	١,٢
الأوكرانيون	٨٩٨,٠٠٠	٦,١٪
الكوريون	٩٢,٠٠٠	٠,٦٪

(١)

وبذلك نلاحظ أن الكازاخ يشكلون أقلية فى وطنهم، حيث أن نسبتهم من مجموع السكان ٣٦٪، بينما نسبة الروس والأوكرانيين ٤٨٪، وذلك بسبب الاستعمار الاستيطانى فى بلادهم، الذى عمد إلى نقل الروس والأوكرانيبة إلى هذه البلاد، ليس هذا فحسب، وإنما احتلوا أخصب المناطق وصادروا أراضى الأوقاف الإسلامية، لصالح الروس، وحرمت منها المساجد والمدارس والمؤسسات الإسلامية.

ولقد تعرض الشعب الكازاخى للإبادة منذ استيلاء الشيوعيين على بلادهم، فقد استمرت سياسة الاستيلاء على أراضى المسلمين بالقوة، وطردهم منها، وإعطائها للروس والأوكرانيين، وترتب على سياسة الاستيطان هذه انتشار المجاعات بين المسلمين، ومات فى مجاعة عام ٢١- ١٩٢٢ مليون كازاخى، كما مات مليون آخر فى مجاعة عام ١٩٢٦، ومليون ثالث فى الفترة من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٢٩، وفى الثلاثينيات من هذا القرن فقد الشعب الكازاخى المسلم ثلثه بسبب السياسات الاستيطانية الشيوعية، ولولا أن القازاخ تميزوا مثل بقية المسلمين بخصوبة عالية لانقرضوا فى وطنهم، كما انقرض

(١) محمد على البار، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص٣٤٩.

الهنود الحمر فى أمريكا (١).

ونجد أن الروس والأوكرانيين يسكنون المدن، بينما نجد الريف لايزال فى معظمه إسلامياً، وحدثت عملية هجرة إجبارية للشعب الكازاخى، ففى إحصاء عام ١٩٧٩ نجد أن منهم ٥٩٥,٠٠٠ فى أوزبكستان و٥١٨,٠٠٠ فى روسيا و٨٠,٠٠٠ فى تركمانستان و٢٧,٠٠٠ فى قيرغيزستان، هذا بالإضافة إلى حوالى نصف مليون منهم فى تركستان الشرقية تحت الاستعمار الصينى.

والشعب الكازاخى يتكون من قبائل تركية وقبائل مغولية، ولغة البلاد فرع من فروع اللغة التركية، وتعرف باسم نوغاى، وكانت تكتب بالحروف العربية، شأنها شأن اللغة التركية، وفيها كثير من الكلمات العربية، ومنذ الاستعمار الروسى فرضت السلطات الروسية عليهم كتابتها بالحروف الكريلية (الروسية)، حتى يتم إبعادها عن العربية لغة القرآن الكريم.

الدين

كان الإسلام قد دخل المناطق الجنوبية من كازاخستان منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، عندما كانت الدولة السامانية تحكم بلاد ما وراء النهر، وهى مناطق (كزيل وأوردا ودجامبول وتشمقند)، ولا تزال هذه المناطق إلى اليوم الأكثر تديناً فى كل كازاخستان، ففيها يوجد معظم المساجد المفتوحة للعبادة.

(١) محمد على البار، جـ١، ص٣٥٠.

أما مناطق السهول التى تقع شمال نهر سيحون (سرداريا)، فلم يدخلها الإسلام إلا متأخراً فى بداية القرن الرابع عشر، وظل فيها مدة طويلة إسلاماً سطحياً، وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، جاءت موجة ثانية من نشر الإسلام على يد رجال الصوفية لطريقتى الياساوية والنقشبندية، الذين أتوا من الجنوب، وعند مجىء الروس فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، جاء معهم التجار التتار المسلمين من الفلجا، فأخذوا يبنون المساجد ويؤسسون المدارس لتحفيظ القرآن الكريم، ومن هنا إزداد الإسلام انتشاراً ونمواً بفضل جهود هؤلاء التجار المسلمين.

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، قام تجار بخارى وخوقند التركستانيون المسلمون بدور مماثل فى نشر الإسلام فى مناطق كازاخستان الجنوبية.

ومن ثم نرى أن الإسلام وصل وتعمق فى أذهان الجماهير الكازاخية فى الفترة الروسية، وهذا على عكس ما كان متوقعاً، ويعود هذا إلى حركة رد الفعل المعاكس والتشبث بالذات إزاء الإجراءات الروسية التعسفية عقب ثورة ١٩١٦، وتمرد القبائل الكازاخية وسياسة خلخلة الشعب ونقله نقلا تعسفياً من وطنه، الذى أطلق عليها سياسة التحضير فى الثلاثينيات، وهى السياسة التى نتج عنها فقد ثلث الشعب الكازاخى، ووصول طوائف إسلامية منفية من مناطق سوفيتية أخرى، مثل التشتشين والأنيفوشى أثناء الحرب العالمية الثانية، فهؤلاء أدخلوا معهم طرائقهم الصوفية القادرية

والنقشبندية، وخاصة فى المناطق الجنوبية من كازاخستان(١).

النزعة الوطنية والقومية

المجتمع الكازاخى فى مجموعه مازال مهتماً بالانتماء القبلى، فالشخص الكازاخى يهتم بنسبته إلى قبيلته، وماتزال عاطفة القربى تشد الفرد إلى القبيلة، وبجانب الانتماء القبلى، فإن الكازاخى يحس بالانتماء الوطنى، بسبب وجود ثقافة قومية قزخية ظهرت فى القرن التاسع عشر، بأدب مزدهر، ساعد فى وجود هوية قومية، تتجلى من خلال الدعوة إلى توحيد الأمة التركستانية، ووحدة الأمة الإسلامية التى تتضمن عاطفة تضامن مع الشعوب الإسلامية الأخرى، وهى عاطفة نمت بعد الحرب العالمية الأولى(٢).

الحركات السياسية

أول من أنشأ حركة سياسية فى روسيا القيصرية هى البرجوازية التتارية فى الفلجا، فالتتار من خلال صراعهم لتوحيد الجماعات الإسلامية فى امبراطورية القياصرة فى ملة واحدة، اعتنوا بإضفاء طابع الوحدة الإسلامية على عملهم السياسى، أما الإيديولوجية التى كانوا يستوصونها فى حركتهم، فكانت ليبرالية، وأهدافها وأساليبها معتدلة.

(١) المسلمون المنسيون، مرجع سبق ذكره، مجلة الأسبوع العربى، عدد ١٩/٤/١٩٨٢.

(٢) المرجع السابق، نفس المكان.

وفى سهوب كازاخستان بدأت الحركة السياسية فى عام ١٩٠٥، بتأثير من تتار الفلجا، وكان برنامج الرعيل الوطنى يتبع الطريق الذى سبق لرؤساء النهضة الفكرية أن رسموه فى كازاخستان فى القرن التاسع عشر، وأهم نقاطه التعاون مع الروس والتغريب وعداء الإسلام المحافظ، وفى سنة ١٩١٢ تأسس تنظيم يدعى «الاشى أوردا»، الذى مالبث أن تحول إلى حزب سياسى فى مارس عام ١٩١٧، بقيادة عدد من المثقفين الخارجين من صفوف النبلاء الإقطاعيين الرحل، ومنهم على يوكيخانوف وأحمد بيطرسوف ومير يعقوب دولانوف.

كانت أيديولوجية الحزب ليبرالية فى بادىء الأمر، وقريبة من أيديولوجية الدستوريين الديمقراطيين الروس، لكنها تحولت فيما بعد إلى اليسار، واقتربت من عقيدة البلشفيك والاشتراكيين الثوريين، وعلى هذا فقد كان الحزب وطنياً وغير مبال تجاه الإسلام، وأفكار الوحدة التركية، ولقد دافع حتى ثورة أكتوبر عن مبدأ التعاون مع الاشتراكيين المعتدلين الروس، وعمل على تشجيع تحضير البدو الرحل، وطالب بإيقاف التوطين الريفى الروسى، وفى عامم ١٩١٣ تأسس فى منطقة نهر سيحون فى جنوب كازاخستان حزب «أوشى جوز» (القبائل الثلاث)، وهو معادى لحزب «الاشى أوراد» قادته مثقفون من صغار البرجوازيين، ورجال ملا درسوا فى بخارى، وكان برنامجه السياسى فى البدء يدعو

للوحدة الإسلامية، ويكن عداء سافراً للروس لتأثره بأفكار وعواطف أهل بخارى، ومثله مثل الكثير من التنظيمات السياسية الإسلامية، أعلن «أوشى جوز» حوالى عام ١٩١٦ انعطافه إلى اليسار، مع بقائه ينادى بالوحدة الإسلامية، والعداء للروس والتتار على السواء، وفى عام ١٩١٧ قبل قادته برنامج البولشفيك، وانتسبوا إلى الحزب الشيوعى الروسى(١).

وفى عام ١٩١٦ كان السخط فى كازاخستان قد وصل مداه ضد المستوطنين الروس، فقامت الثورة ضدهم، قامت بها القبائل الرحل ضد تجاوزات المستوطنين الروس، فأخمدتها السلطات بوحشية وأبادت قبائل عن بكرة أبيها، بينما هربت قبائل أخرى إلى الصين، وغرقت البلاد فى فوضى كاملة.

واضطر حزب «ألاشى أوردا» المعتدل والمتعاطف مع الروس إلى تغيير أرضيته السياسية تغييراً كاملا، فتبنى بعد مارس عام ١٩١٧ برنامجاًأكثر راديكالية، وقريباً من توجهات الاشتراكيين الثوريين، وطرح بعنف مطلب طرد الروس، وبعد مارس عام ١٩١٧ طرح مطلباً آخر هو خلق جمهورية كازاخية ذات حكم ذاتى، ولرغبة الحكومة المؤقتة فى استتباب النظام، وقطع دابر الفوضى السائدة فى السهوب، فإنها أوكلت إلى رؤساء حزب «ألاشى أوردا» مسئولية المنطقتين الوسطى والشرقية من سهوب كازاخستان(٢).

(١) المسلمون المنسيون فى الاتحاد السوفيتى، مجلة الأسبوع العربى، عدد ١٩٨٢/٢/١.

(٢) المرجع السابق، نفس المكان.

وفى ١٠ من ديسمبر عام ١٩١٧، أعلنوا الحكم الذاتى السياسى، ونظراً لاتساع رقعة بلادهم، ألفوا حكومتين، واحدة لكازاخستان الغربية، والأخرى لكازاخستان الشرقية، ولكنهم فى النهاية فى مايو عام ١٩١٩ اعترف قادة «ألاشى أوردا» رسمياً بالنظام السوفيتى الشيوعى.

وتشكلت لجنة ثورية كازاخية، نصف ممثليها من «ألاشى أوردا»، والنصف الآخر من مندوبين سوفيت، وقبل أعضاء الحزب بالجملة فى الحزب الشيوعى الروسى.

مشاكل كازاخستان بعد الاستقلال

منذ استقلال كازاخستان مع غيرها من الدول الإسلامية الآسيوية، وبدأت المشاكل مع روسيا تظهر فى كازاخستان على الأخص، نظراً لكثرة الروس المستوطنين فيها، وكثرة طموحهم، والنشاط المتزايد للكنيسة الأرثوذكسية الروسية، مما يولد الكثير من المقاومة لدى المسلمين، لقد أصر يلتسين مثلا على أن ينصبه قسيس روسى رئيساً لروسيا، فى ظل نمو تعاطف الرأى العام الروسى تجاه الكنيسة، وفى بيان لمركز استطلاع الرأى العام فى عموم الاتحاد السوفيتى، أعطى ٦٣٪ من الروس ثقتهم للكنيسة.

فى حين أعادت السلطات السوفيتية عشرة آلاف مبنى للكنائس إلى الكنيسة الأرثوذكسية، تمت إعادة اثنى عشر مسجداً فقط للمسلمين فى أثناء أعوام البريسترويكا، بل وتحاول الكنيسة الروسية غزو المجتمعات الإسلامية، فمثلا يقرر البابا ألكس الثانى تقسيم

أبرشية كازاخستان إلى ثلاثة أبرشيات، مما يؤدى إلى اعتراض رئيس جمهورية كازاخستان والمسلمين فيها، وتتزامن تلك النعرات الروسية مع تهديدات روسية، ببيع الغاز والفحم والنفط بأسعار عالمية لتلك الجمهوريات، وبالمطالبة بتعديل الحدود مع بعضها.

ويذكر أحد الباحثين أنه إذا كانت الجمهوريات الإسلامية السوفيتية رضيت بالهيمنة الروسية خلال أكثر من سبعين عاماً، فإن ذلك كان مرجعه سقوط الامبراطورية الروسية الأرثوذكسية، ومساواة المسلمين والمسيحيين فى التطبيق العقدى والدينى تطبيقاً لمبدأ «المساواة فى الظلم عدل».

ولكن بانهيار الاتحاد السوفيتى والشيوعية السوفيتية، استعادت روسيا وجهها القيصرى، وتعصبها المسيحى الأرثوذكسى، وهذا لن تقبله الشعوب المسلمة السوفيتية بأى حال من الأحوال، وكانت هذه المظاهر الروسية فى العودة إلى الكنيسة وإلى الدين المسيحى، سبباً دافعاً للمسلمين فى البحث عن ذاتهم وهويتهم القومية والدينية، والتمسك بها، فبدأوا فى العودة الجماعية إلى التمسك بالمظاهر الإسلامية علناً، بعد أن كانوا فى ظل الشيوعية يخفون هذه المظاهر، ويقومون بها سراً، وبدأوا فى بناء المساجد بأعداد كبيرة، لأن مساجدهم القديمة كان قد تم أسرها وتحويلها إلى مراقص أو متاحف أو مخازن.

وقد ظهرت مقاومة تلك الجمهوريات، بإصرار رئيس جمهورية كازاخستان «نزار نابيف» على احتفاظ جمهورية كازاخستان بالأسلحة النووية فى أراضيها، بل إنه بعث برسالة إلى

رئيس روسيا، يحذره فيها من «تصاعد النقمة فى جمهورية نووية»، وظهرت تلك المقاومة أيضاً فى اتجاه الجمهوريات الإسلامية إلى الإعلان عن استقلالها قبل انهيار الاتحاد، وتكوين جيوشها الخاصة (١).

ومن الناحية الاقتصادية نجد أن اقتصاد كازاخستان مازال محكوماً بالسياسة الروسية والأوضاع السوفيتية قبل الاستقلال، ابتداء من النقد الذى يسك فى موسكو، وانتهاء بالمشروعات القائمة على التكامل، والتى تعجز كل جمهورية على النهوض بها منفردة، حيث المشروع الواحد موزع على عدة جمهوريات و«المايسترو» الذى يضبط عملية الإنتاج قابع فى موسكو، وبمقدوره أن يحرك أى صناعة أو يصيبها بالشلل إذا أراد (٢).

ومن أمثلة التشابك الاقتصادى بين روسيا الاتحادية والجمهوريات الإسلامية، وعلى الأخص كازاخستان:

(١) جنوب كازاخستان يستخدم الكهرباء المولدة فى جمهورية قيرغيزيا.

(٢) شمال كازاخستان مرتبط بمصادر الطاقة فى سيبيريا.

(٣) الاقتصاد الصناعى شمال جمهورية كازاخستان مرتبط تماماً بجنوب سيبيريا أكثر من اتصاله بجنوب كازاخستان الزراعى.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن جمهورية كازاخستان فى موقف

(١) مصطفى دسوقى، مرجع سبق ذكره، ص٢٦٠- ٢٦١.

(٢) فهمى هويدى، طاجيكستان حرب ضد التاريخ، مجلة المجلة، عدد ٦٧٧.

حرج بالنسبة إلى استقلالها، فإنها لا تقوى على قطع الصلة بجمهورية روسيا الاتحادية، ونصف سكانها من العناصر السلافية، وترتبط مع جمهورية روسيا الاتحادية ونصف سكانها من العناصر السلافية، وتربط جمهورية روسيا عجلتها بالعجلة القازاخية بمقولة «المصالح المشتركة بين الجمهوريتين» (١).

ومن ثم فإن الكلام عن استقلال تلك الجمهوريات سابق لأوانه فى الواقع، وغاية ما يمكن أن يقال بصددها أن باب النضال أمام شعوبها لنيل الاستقلال قد انفتح، وعلى تلك الشعوب أن تواصل النضال ضد الهيمنة الخارجية والاحتكار الداخلى، حتى تفوز باستقلالها فى نهاية المطاف، بعد أجل قد يطول أو يقصر (٢).

والجمهوريات الإسلامية تتعرض لضغوط كثيرة من دول متعددة، طمعاً فى الاستفادة من ثرواتها الطبيعيةن واستغلال أراضيها الغنية، وأخطر هذه الدول التى تتسابق للسيطرة هى إسرائيل، التى اتجهت إلى كازاخستان بثقلها ورجال الأعمال فيها، ويعمل الإسرائيليون فى كازاخستان من خلال عدة قنوات أهمها:

(١) القناة الرسمية وهى السفارة الإسرائيلية التى تحتل شقة صغيرة فى الطابق الثالث عشر فى فندق كازاخستان، ويدير السفارة الإسرائيلية فى العاصمة (ألماآتا) السفير «نيتس كرميل»، وهو

---

(١) محمود طه أبوالعلا، الآثار الاقتصادية والاجتماعية لنهرى سيحون وجيحون، ص٥٩.

(٢) فهمى هويدى، المرجع السابق.

من أنشط سفراء إسرائيل.

(٢) قناة التعاون الأمريكى الإسرائيلى، ويعمل فى هذا النظام أطقم أمريكية إسرائيلية مشتركة، ويعترف الأمريكيون بالأهمية السياسية الجغرافية لكازاخستان، وقد خصصوا فى المرحلة الأولى ٤,٥ مليون دولار كمساعدة أولية لهذه الجمهوريات، أما المساعدات الزراعية فتقدمها إسرائيل من خلال تبادل الزيارات بين الوفود، وتقديم الخبرات اللازمة.

(٣) نشاط الشركات الإسرائيلية ورجال الأعمال ومعهم خبرة رجال الموساد.

(٤) ولقد صار التغلغل الإسرائيلى فى كازاخستان، بعد أن أدرك الإسرائيليون أنها أكبر دولة إسلامية فى دول الكومنولث الروسى.

وقام الوزيران الإسرائيليان «شمعون شطريت» و«آمنون روتشتاين» مؤخراً بزيارة لكازاخستان، على راس وفد من رجال الأعمال الإسرائيليين، لبحث أوجه التعاون بين البلدين(١).

وكازاخستان تشتهر بالصناعات الثقيلة.

ومن أقوال رئيس جمهورية كازاخستان (نور سلطان نزار نابيف) «نريد تطبيق نظام اقتصاد السوق الحر، والنموذج الوحيد

(١) د.محمود متولى، المسلمون والحكم الشيوعى السوفيتى، دراسة تاريخية، مقدمة إلى مؤتمر المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز.

الذى لدينا هو تركيا»، ويضيف «ولا أعتقد أن للإسلام فرص كبيرة، إن علمانية تركيا تمثل أيضاً نموذجاً بالنسبة لنا»، وفى مقام آخر أعلن عن رغبته فى إقامة منظمة عالمية للبترول، مع بقية الجمهوريات الإسلامية المستقلة، على غرار منظمة الأوبك، ولكنها تكون منفصلة عن تلك المنظمة(١).

(١) د.زينب الأشوح، مرجع سبق ذكره.

فهرس المحتويات

رقم الإيداع
١٩٩٤/٩٢٠٩
I.S.B.N. 977-00-7661-9
دار (أبوالمجد) للطباعة بالهرم